

إبراهيم أحمد عيسى

بنو الأزدق

ثلاثية تلال الشمس

رواية



إبراهيم أحمد عيسى

بنو الأزدق

❦ ثلاثية تلال الشمس ❦

رواية



إلى زوجتي

شكرًا لتحملكِ جنوني طوال فترة كتابة هذا النص.

أرض تلال الشمس





«في حياة كل إنسان لحظة لا تعود الحياة بعدها كما كانت قبلها».

أحمد خالد توفيق

جاد

ريشة، بنية بمسحة ذهبية، انسلت من جناح عقاب كاسر يطوف ما بين السماء والأرض، حملتها ريح ناعمة خفيفة، وتلاعب بها تيار هواء قارس، تراقصت معه بخفة، وتهادت وقوفاً من السماء إلى قمم مدبية لجبال شاهقة، لا حيلة لها ولا إرادة لتقاوم الهواء، مرت على سفوح صخرية مدثرة بالثلج والبرد، ودفع بها إلى الوديان والشعاب ذات الخضرة العميقة، مسحت بروية أطراف وريقات شجرة صنوبر متجمدة، وعرقلتها الأغصان والثلج المتراكم بين ثناياها، حتى وجدت مستقرًا لها فوق أحد الأغصان، بقيت لوقت وحيدة حتى أتى من التقطها بزهو، قفز فرحًا بأعظم انتصاراته وكأنه خلعها بنفسه من جسد الجارح المهيب. أخذ عصفور الدغناش أحمر الصدر غنيمته، تنقل مرفرفًا بين جذوع الصنوبر والبلوط، وما لبث أن حط فوق عشه المعلق حيث تنتظره خليلته الراقدة، استعرض أمامها الريشة التي كانت أكبر منه طولًا وعرضًا، وسرعان ما دسها بين أغصان العش الجافة بينما كانت هي تندب حظها بزقزقة خافتة؛ ليته أتى لها بطعام يقيها الصقيع، ويمنحها الدفء لتبقى فوق بيضها، أطلت برأسها متأملًا السماء وزرقتها الملطخة بسحب

كزبد موج يتتابع ببطء شديد. قرص الشمس باهت على الرغم من نوره الذهبي الذي غمر المرتفعات الصخرية وقممها الثلجية، لم تسطع هكذا منذ أيام، وحين أشرقت لم تفلح في تبديل الأجواء الباردة، لا يمر صباح من دون أن يمس لحاء الأشجار ضباب مشبع بالبرد، صقيع الشتاء يتوطن هاهنا في تلك الوديان السحيقة والغابة الكثيفة. على حافة دغل ظليل الأركان، ثمة كوخ عتيق من خشب السدر المعشَّق بأخشاب الهندم، تعلوه سقيفة من جذوع سميقة وطين مغطى بالقش عليه طبقة من الجلود المغطاة بالثلج، انبعث من مدخنة صغيرة في زاوية السقف دخان أبيض خفيف، وشاب يجلس مستندًا إلى الجدار الخارجي للبيت الصغير، يلوك عود عشب بجانب فمه متأملًا الخواء.

لا شيء يُسمع في الأرجاء إلا خرير جدول يتدفق في مجرى صخري وعر، يشق المرعى الممتد إلى أطراف الغابة. مشى صاحب النفوذ على مهل متبخرًا بمحيط مملكته الشاسعة، يلوك فمه متأملًا أقرانه المنتشرين بين الشجيرات، الإناث تكومن قرب الجدول النقي ماؤه، يرتوين ويلعبن بدلال ويرقبنه بعيون مكتحلة، ينتقين فروع العوسج النبات بين الثلج والصخور، والصفار يلهون ركضًا وقفزًا بين الآجام والكتل الحجرية. راقبهم بصمت يليق بمكانته ووقاره وهيئته المهيبه، لسنوات ظل هو حاكم تلك المجموعة، ذكرها

المهيمن ذا الفراء الأحمر، هذا لقبه الذي استمده من تلك اللبدة الكثيفة حول عنقه، قرناه متشعبان كفرعي شجرة عملاقة مسها جذب الخريف، أكبر أيل في مرتفعات الصقور، فحل قوي يخشاه بنو جلده، منذ عدة مواسم لم يتقدم أي ذكر لمناطقته، إلا ذلك الأيل الرشيق، ذكر يافع يحك فروه في جذوع الأشجار بعد نثر بوله فوقها، يتبختر في مشيته حول الإناث رافعًا رأسه متباهيًا بقرنيه الأنيقين، يشاكس الذكور الأصغر سنًا، ويطارد الصغار متحديًا إياهم. قفز فوق حواف جدول الماء الجاري برشاقة، شرب ثم ارتقى إلى ربوة صخرية صلبة تغطي أطرافها طحالب خضراء، أطلق ثغاءً مرتفعًا خامسًا الصخر بظلفيه الأماميين، نادى في القطيع وكأنه يقول لهم: «ها أنا، أجمل وأقوى أيل هنا».

الأمر لم يعجب ذا الفراء الأحمر، رفع رأسه وألقى نظرة على منافسه الجديد وما لبث أن سار باتجاهه تتبعه العيون المكتحلة، متبخترًا مؤرجحًا قرنيه ارتقى التلة الصخرية ليواجه الأيل الشاب الذي بدا مستعرضًا راقصًا بوثبات في المكان ذاته على أطراف أظلافه، بينما كان الفحل الضخم يقف أمامه ساكنًا مراقبًا، تراجع كل منهما إلى الخلف بضع خطوات، يزفران هواءً دافئًا اختزنته رئتاهما، بخار راح يخرج من منخريهما، خفتت كل الأصوات والتحمت الغيوم لتحجب عن الشمس رؤيتهما، والجدول قرر أن يهدئ من

جريان مائه، وندف من شذرات ثلج راحت تتساقط بروية يتلاعب بها الهواء الرقيق. ركض الذكران وضربت أظلافهما الصخور بشرر، وما لبثا أن اصطدما لتصدح في الوادي طرقعة عميقة جراء تناطحهما العنيف، تشاجرا وكل منهما ينوي إيذاء الآخر وفرض هيمنته، كررا التناطح مرات عدة وبدا أن الأيل الشاب ند قوي للفحل المهيمن، تشابكت قرونهما والضخم ذو اللبدة الحمراء يدفع منافسه دفعًا إلى الخلف، انزلقت أظلافه على الصخر، حاول أن يتفادى السقوط ولكن الفحل لم يتوقف، سقط الذكر الشاب من فوق التلة متدحرجًا فوق الصخور، غثاء المنتصر رددت صداه الجبال البعيدة، زفر بزهو رافعًا رأسه للسماء، والمهزوم يتألم محاولًا النهوض، كُسرت ساقه جراء السقطة، ظل يئن ويصرخ بينما راح الذكر المهيمن يرش بوله الساخن في أرجاء المكان ليعلم الجميع من هو قائد القطيع، كان الأيل الضخم يفعل ذلك وهو ينظر إلى عيني الراعي الشاب الجالس أمام الكوخ الخشبي بتحدٍّ وكأنه يقول له: «ها أنا أيها البشري، أملك كل هذه الإناث، وأستحق أن أكون قائد القطيع».

- هل انتهى قتالهما؟

أفاق جاد من شروده حين سمع صوت أبيه يأتي من خلفه،

التفت مبتسمًا:

- نعم، كالعادة انتصر ذو الفراء الأحمر، وها هو يتجهز للنزول.

رَبَّتْ الأب على كتفه:

- يبدو أن الأيّل الصغير تضرر جراء تلك المعركة، تعال لنرى ما أصابه، أرجو ألا تكون إصابته بالغة.

سارا معًا باتجاه المهزوم، حاول النهوض ليبتعد عنهما ولكن الرجل جثم عليه بكل قوته وراح يتفحص بأسى الضرر:

- كُسرت ساقه، سيحتاج إلى فترة من العلاج والراحة قبل المضي جنوبًا، علينا أن نحسب الأيام جيدًا حتى نعلم موعد الربيع، ومنتقل قبل أن تلد الإناث.

اقترب الفتى حتى جاور أباه وعيناه تتفحصان الأرجاء:

- أبت، هل سنخرج لتفقد الأشرار؟ لعنا نجد أرنبًا أو دجاجة ثلج عالقة بها، الأجواء لا تبشر بخير، الثلوج تتساقط من جديد.

أوما الرجل مبتسمًا:

- نعم سنذهب، ائتني ببعض الخرق البالية لنحاول صنع جبيرة ونعالج تلك الساق قبل الخروج إلى الغابة، ائتني بعود خشب متين أيضًا.

لم يمضِ الفتى الكثير من الوقت داخل الكوخ، عاد معتمراً
قبعة من فراء الأرانب الرمادية تتناسب مع معطف الوبر
السميك الذي يصل إلى ركبتيه، جلس إلى جوار أبيه الذي
تأكد من تجبير ساق الأيل بشكل يساعده على النهوض
مجدداً، حاول الركض فسقط، كان عليهما تكبيله وتركه
ليستريح ويعي ما ألمَّ بساقه، وما إن انتهيا حتى توغلا داخل
الغابة متفقدين الأشرار، خاوية كما وجداها منذ أيام، شعور
بالخيبة قرص معدة الشاب الجائع، رغبته في وجبة دسمة
صارت هاجساً يشغله، الأب يتفحص جذوع الأشجار بحثاً
عن فطر السمّن، وكلما صادفه جذع حطب جاف أشار إلى
صغيره بحمله، جمعا ما استطاعا من فطر وحطب واتخذا
سبيلهما عائدين إلى الكوخ، لم يدم الصمت بينهما طويلاً،
حاول الرجل بث روح الأمل محدثاً ابنه:

- سأصنع لك حساءً ساخناً لذيذاً من فطر السمّن.

غمغم متذمراً:

- سئمت هذا الحساء، أريد قطعة لحم شويت على مهل،
يسيل على جنباتها الدهن.

- من أين تأتي باللحم وكل الأشرار خاوية؟ وكأن أرانب
الغابة صار لديها عقل تفكر به وتبتعد عن الفخاخ.

- لدينا الأيئل الأعرج، لن ينجو في مثل هذه الأجواء.

توقف الراعي عن السير واستدار إلى فتاه، رمقه بعين لائمة
وصوته أكثر عمقًا:

- الأيائل ليست ملكنا...

- بل هي كذلك...

- لا، نحن نرعاها للسلطان، هي ملك له.

- بأي حق يا أبت؟ نحن من نرعاها ونحلبها ونجز وبرها
ونرتحل بها بين الوديان والسهول المتجمدة.

- بحق الجاباسكي وقسم العقاب الكبير المعظم جاد ذي
العين الزرقاء.

أشاح الفتى بوجهه ناحية الغابة وظلالها المخيفة، وبدا
الغضب على وجه الرجل الذي لعق بطرف لسانه شفته العليا
وشاربه الكث قبل أن يحدث ابنه:

- يا بني، إن أقسمت فلا تحنت، وتذكر أننا رعاة بني الأزرق،
نحصي الرؤوس كل موسم ونبلغ بها قيّم الخراج في سهول
جبل الثلج والمدينة الزرقاء، وهو من يختار ما يذبح منها
ليباع في أسواق المدينة الزرقاء، وكذلك يفعل كل الرعاة.
نبيع الوبر ونحصل على ما نريد من أموال وبضائع مقابل

ذلك. أما اللحم فهو ليس ملكًا لنا.

- يا أبي، لا أحد هنا ليبلغ السلطان ورجاله، نحن جوعى، ماذا سيستفيد غازي بن الأشرف إن متنا هنا وذهب القطيع إلى الوديان العميقة بلا عودة؟

- جاد، هل جنتت؟ تريد أن تخرق قانون أمتنا وعرف سلطاننا وأجداده؟

ألقى جاد الصغير ذو الأربعة عشر ربيعًا ما كان يحمله من حطب:

- أولسنا من نسل بني الأزرق؟ تلك الماشية هي حق لنا وليست للسلطان، إن أراد أن يملكها فليأت هنا ويرعاها بنفسه. مللت العيش وسط الجبال والثلوج وروث الأيائل، وهناك من ينعمون بالدفء في عش العقاب، بينما نقطن نحن تلك الأنحاء الباردة ذات الصقيع الدائم. نرتحل ونسبق أعاصير الشتاء الهوجاء كي لا تدركننا، نبعد الدببة والضواري عن القطيع، لأجل ماذا؟ أنا جائع يا أبي، هل ستتركنا نموت جوعًا كما ماتت أمي وأختي جولين في الشتاء الماضي بعد أن وهنتا ونال منهما المرض والبرد؟

ضم الرجل قبضته الملتحفة بقفازات جلدية، اعتصر ما بين أصابعه من فطر وعيناه تتأملان فلذة كبده، عيناه

الزرقاوان هوة سحيقة وكلماته كانت كنصل حاد لامس جدار قلبه، لا يعرف الأب ما عليه قوله، ولكن جاد محق، الهلاك يتربص بهما وسط الشتاء القارس، الدببة والثعالب والأرانب وجل حيوانات الغابة في سباتها، أوت لجحورها لتتفادى البرد المميت، ولكنهما ليسا حيوانين يستطيعان الصبر ولا يملكان الجلد على قلة الطعام والزاد، هما بحاجة إلى طعام دسم مليء بالدهن والمرق يقيهما البرودة ويمنحهما دفئًا يحتاجانه. ابتسم في وجه ابنه الذي تهلتت أساريره قبل أن يكفهر وجهه مرة أخرى حين قال أبوه:

- لن نخرق القوانين، سنأكل حساء فطر السمّن الليلة، والغد نعيد تفحص الأشراك.

استدار تاركًا إياه وهو يكمل حديثه بجدية:

- جاد، احمل الحطب واتبعني، الليل يدنو والعاصفة قادمة.

داخل الكوخ وفي أحد الأركان رقد جاد على فراش من فرو، كان هائمًا في تلك الحكايات التي راح أبوه يسردها عن قومهما، بينما يطبخ حساء الفطر على نيران هادئة، كان الأب يقلب مقادير الوصفة البسيطة داخل قدر من الفخار، وضعه فوق النيران المتأججة، الرائحة ليست شهية ولكنها تبعث الدفء في المكان، أضاف الزعفران المجفف إلى مرق الفطر محدثًا إياه:

- لا تفعل مثلما فعلت اليوم، ولا تكرر ما قلته عن السلطان غازي، وإياك أن تنتهك كل أمر مقدس أو تنتقد قوانين الأجداد، سأتغاضى عما قلته اليوم وأريد منك أن تعدني بهذا.

رمى نظرة خاطفة على جاد المستلقي قرب المدفأة مغمض العين، وما لبث أن عاد إلى القدر واستنشق بخار الطعام برائحته النفاذة وأكمل غارقاً طبقه:

- الحساء وأي طعام بحاجة لقصة تحتويه وإلا انساب وتبدد، أيضاً البشر بحاجة إلى القوانين والشرائع، لتحاكم فيما بيننا ويعلم كل منا ما له وما عليه. تعاقب على حكم هذه الأرض أمم وشعوب ورت الأقوى ضعيفها، حتى جئنا نحن، وما حظينا بما كان يوماً ملك بني شمس، إلا حين اتبعنا ما تقوله نصوص الجاباسكي، أسقطنا رايتهم الخالدة، وانتزعنا ما بين أيديهم بعدما كانوا ملوكاً، أسياد الزمان، امتد سلطانهم لقرون براً وبحراً، ولكن كما هي حال الدهر لا يأسى لضعف ولا يلطف بأحد، مدينتهم الزاهرة ذبلت وعين الشمس حمئت وصهداها الخانق كتم أنفاسهم، يقولون إنها نفثت بخاراً ودخاناً مات بتأثيرهما خلق كثير.

اعتدل جاد الصغير في جلسته وتطلع إلى وجه أبيه الذي يضع المقادير الأخيرة لعشائهم:

- هل رأيت عين الشمس يومًا يا أبي؟

- لا.

- كيف إذن تصدق بوجودها وأنت لم ترها؟

أتم الأب غرف طبقي الحساء وجاء إلى حيث يجلس ولده مبتسمًا، قدم له صحنه ذا الرائحة النفاذة، وجلس إلى جواره: - صحيح أنني لم أذهب أبعد من المدينة الزرقاء جنوبًا، ولكنني قابلت الكثير من الجند والرحالة والتجار الذين زاروها ومروا بها في طريقهم.

حرك جاد ملعقته الخشبية داخل حساء الفطر:

- هل هي بعيدة عن هنا؟

- أبعد مما يتخيل عقلنا، إنها هناك بين تلال وهضاب الصحراء البعيدة، من زارها يقول إنها هوة في الأرض ذات قطر شاسع، جدرانها منحدرية، منجم قعره من ذهب ونحاس وفضة وبرونز ومعادن لا تنضب، تلهبه وتصهره الشمس حين تتعامد وقت الظهيرة فوقه، وفي الليل ينبعث منها ضياء ذهبي يحيل المكان إلى نهار. لقرون عهد بنو شمس إلى عمالهم وحكمدارياتهم بجلب الناس للعمل هناك، استخرجوا على مدى عقود أطنانًا من المعادن النفيسة، بنوا بها مدنهم

وإمبراطوريتهم العظيمة، وقبل زمن أصابتهم الأوبئة وانصهر باطن عين الشمس لتصبح بركائًا يغلي، انبعثت منه أدخنة وروائح راحت تفتك بالعمال والجند، وانتقلت عدوى لمرض فتاك لم يجدوا له علاجًا ولم يعرفوا له نهاية، داء أضعفهم ونال منهم حتى تفتتوا، وراح يرتقي عرش سلطنتهم ملوك ضعاف، نسوا القوانين والشرائع التي كانت تحكم فيما بينهم، والشمس التي كانت هبة لهم وإلهًا يبجلونه صارت وبالًا وموتًا يحيق بهم، احتكموا إلى أهوائهم وتنازعوا الملك، حتى لم يبقَ منهم سوى أطلال لمدن مهيبة باتت خرائب، وتماثيل ملوك الشمس صارت أعشاشًا للخوف وذكرى لما حاق بهم على يد قومنا... بني الأزرق.

يسمينا الناس «أجلاف الجبال» و«رعاة الأيائل»، ولكن هيهات، أصبح لدينا إمبراطورية عظيمة تدين لها كل ربوع الأرض، باتت لدينا مدن حصينة من بعد البداوة التي كانوا يحقرونها، كل هذا حدث حين وُحِدَ المبجل جاد ذو العين الزرقاء قبائلنا وصفوفنا. أعلم أنك مللت من تلك الحكاية وكيف سمّيتك على اسمه، سار بنا الرجل على الطريق الصحيح حين فعلَ وسنَّ تشريعات قانون الجاباسكي الذي وضعنا على درب المجد، أعاد إلينا دين الأجداد ورفع رايته ليجمع بها قبائل بني الأزرق، طاف عليهم جميعًا من مرتفعات الصقور إلى جبل الثلج وسهول المرقد والعنبرية، جعلنا أمة

واحدة وحين استتب له الأمر وضع أساس عاصمتنا الزرقاء،
عش العقاب التي لا مثيل لها بين مدن المعمورة.

نزل غازيًا بستان الجياد وسهول أوريجا، وكان قد أوحى
إليه الرب بنقل ضريح جدنا الأكبر، من المرقد إلى عمق
كهوف الجبل الأزرق الذي هجرناه قبل ألف سنة وأكثر،
وصدقت نبوءته بزوال ملك بني شمس، كُسف ملكهم
رويدًا رويدًا وهم غارقون في مستنقع الصراعات والأوبئة،
قاد جاد المعظم جيشه لمساندة الديناري أمير قلعة النار
المتمرد على راية الشمس الذهبية، ولكن لكل حرب ثمن؛
قُتلت زوجة وبنات العقاب الكبير بعد اغتصابهن من أحد
أمراء بني شمس، وألقيت جثثهن في بحيرة بعيدة ناحية
نهر التاج، وكانت تلك اللعنة التي حلت عليهم، تهاوت المدن
تباعًا أمام قوة أمتنا وإيمانها وانتقامها لشرفها، يقولون إن
عينيه الزرقاوين ازدادت عمقًا وهما تعكسان لهب النيران
التي التهمت قباب وقصور عاصمتهم الزاهرة، مدينة الملوك
سقطت في يد جدنا وهو في السادسة والتسعين من عمره،
أراد محوهم من الوجود لما حاق ببناته وزوجته والأبرياء من
قومنا. خاض بحصانه البربري الضخم بحيرات من دم سكان
المدينة، سنايك حوافره دهست الأشلاء وتخطى الأجساد
بخطوات لها وقع مهيب، وحلق عقابه الذهبي فوق هامات
الجند ورماحهم خائفًا بجناحيه العظيمين، دخل إلى

ساحة الشمس المحاطة بتمائيل ملوك بني شمس البائدين،
اثنان وثلاثون تمثالاً من الجرانيت الذهبي تحيط بجوانب
المدينة، طول كل واحد ستون ذراعًا، ووقف أمامهم من دون
أن ينزل عن الجواد المهيب، أدار وجهه فيهم جميعًا وتوقف
أمام تمثال لم يكتمل وجنده يشعلون السقالات الخشبية
من حوله، كان يعلم أن النار ستأكل الحطب ولكن الحجر
سيبقى، وأنه لن يضيع الوقت في تحطيم حجارة صلدة فقد
كان أمامه الكثير من الفتوحات ليقوم بها، وهكذا أمر رجاله
بتغطيتها بالقار والطلاء الأزرق، وأحرقت المدينة. جال في
الأرض حتى خندق السراب وأخضع البوغاز بعد سنين من
الحصار، وحين أتم سنته السابعة بعد المائة أراد العودة إلى
حيث نشأ، أصابته الحمى قرب مدينة المرقد التي كانت
مثواه الأخير، وفاته دفن في الضريح ذاته الذي كان يحوي
جسد جده البعيد، وأقام بنوه فوق قبره تمثالًا عملاقًا دقيق
التفاصيل من جلمود الجبل الأزرق، يقف شامخًا عاري الصدر
ممسكًا في يده اليسرى بمطرقة حكمه الشهيرة وعلى كتفه
اليمنى عقابه الذهبي باسطًا جناحيه، وأسفل قدميه كان
هناك تاج كبير من الحجر ذاته يحمل شعار بني شمس. أتعرف
ماذا نقش على قاعدة الضريح؟

- ماذا؟

- هنا ضريح العقاب المعظم جاد الأول ذي العين الزرقاء،
سلطان تلال الشمس مُسن التشريع و...

قاطعه الفتى:

- أليست تلك هي السخرية الحقيقية؟

- أي سخرية والرجل هو من ترك الوصايا التي نعيش عليها
حتى الآن؟

- يا أبت، أقصد أن ذا العين الزرقاء أراد محو بني شمس من
الوجود، فنقش أبناؤه شعارهم واسمهم فوق ضريحه.

- ولكنه انتصر عليهم وصنع ما نحن فيه الآن، وما كتبوه إلا
تذكرة لصنيع الرجل.

- ما نحن فيه هو من صنعه بالتأكيد، نعيش وسط الثلوج
ونرعى الأيائل باسم أحفاده، ونمنحهم حياتنا وقوتنا وكل ما
نملك مقابل أن يمنحونا قليلاً من الزاد.

رمقه أبوه وحدّته بغلظة:

- كل وأنت صامت أيها الغبي، لن تفهم أي شيء، لا أعلم
لماذا أضيع وقتي في الحديث معك عن أشياء لن تفهمها.

- هذا لأن لا أحد هنا سوى أنا وأنت.

تضحكا وتناول جاد الحساء مرغماً، والحديث بينه وبين أبيه لا يتوقف، تكلمنا عن كل شيء، الغابة والطيور وشتاء بستان الجياد تلك السهول الخضراء الشاسعة، وحقول الأبقان الأزرق والخزامى والزعفران البري الممتد حول المدينة الزرقاء.

تأمل الأب ابنه الذي يشبه والدته كثيراً، شعره الأسود الهائج الكثيف وعينيه الواسعتين وتفصيل وجهه الدقيقة، ثم تأمل شاربي ولحية زغب الشباب، فطرٌ ذو حدس حاضر، تبدل كثيراً منذ وفاة أمه وأخته الصغيرة، ومر بفترة عصيبة من الصمت والوحدة، خشي أن يفقده هو الآخر، ولكنه عاد إلى رشده بكثير من التمرد والأسئلة التي لا تتوقف، من خلق الليل والنجوم اللامعة فوق الجبال الرواسي، ما سبب ذلك الشفق القطبي الساري كنه في السماء، لماذا عليهم التنقل من الوديان إلى مرتفعات الصقور الوعرة وصولاً إلى قفار شاسعة من الثلج، فقط ليرعوا أيائل السلطان؟ لم يكن الأب يجد إجابات عن تلك التساؤلات، على كل حال هو الولد والذرية التي تمنّاها. أخذ رشفة من قرية نبيذه وعيناه على فتاه، سيكبر إلى جواره وسيزوجه صبية عذراء ذات قدر من الجمال، جيدة الصحة والحال من قبائل مرتفعات الصقور، سينجب جاد أطفالاً كثيراً بالتأكيد، وسيأتي اليوم الذي سيلعب أحفاده ويحملهم فوق ظهور الأيائل ويركض في

السهول والوديان التي ستردد صدى لعبهم وضحكاتهم.

صوت خارج الكوخ هشم تخيلاته وأعادته إلى واقعه، اعتدل في جلسته محملاً في وجه جاد الذي كاد أن يقول شيئاً لولا أن أخرسه هو بإشارة من يده، أرهاق السمع ولم تلتقط آذانهما إلا صوت اللهب في المدفأة، ابتسم جاد وعاد إلى فراشه ولكن أباه لم يفعل، التقط فأسه بحذر ونهض متجهاً بخطوات وجلة نحو الباب، وفي تلك اللحظة ارتفع صوت سهيل خيل في الخارج، تجمد الرجل وهب الفتى واقفاً وهو يلتقط مشعلاً حديدياً راح يشعله سريعاً.

يقولون إن الشجاعة هي سمت بني الأزرق، يمنحها الأب لابنه بالوراثة، بعد ولادته بسبع ليالٍ يخوض الرضيع طقوساً احتفالية صاخبة، يتخللها غناء ترانيم جبلية ونذور وقرابين، يغسل بالماء البارد ويوشم أسفل قفاه بختم العقاب، وشم أزرق يطبع على ظهورهم عند موضع القلب، فلا يقترب منهم الخوف ما دامت فيهم الروح. لكن في تلك اللحظة كان جاد يوقن أن الشجاعة لا تتطلب وشماً، فأبوه كان يرتعد خوفاً وهو يقترب من باب الكوخ ببطء، ربما تلك المرة الأولى التي يرى فيها كل هذا الرعب على وجه رجل لطالما تحدث عن شجاعة قومه الذين يفخر بأنه منهم، بدا جلياً صوت الجلبة في الخارج وهمهمات أناس يتحدثون فيما بينهم، فتح

الرجل الباب حذرًا شاهراً فأسه، وعلى امتداد ضوء المشعل
كان هناك أربعة غرباء يمتطون جيادًا بربرية مختلفة ألوانها
وجميعها مسومة بفراء الثعالب الحمراء.

حاول قلب الراعي أن يكذب ما تراه عيناه، وبينما كان
الصغير يتطلع إلى الغرباء الواقفين على باب الكوخ كان الأب
يسألهم بصوته الخشن:

- من أنتم؟

ترجل أحدهم عن جواده قائلاً:

- صيادون تقطعت بنا السبل إلى مأواكم، نود أن نستأنس
بكم ونتواري من عاصفة وشيكة.

أشار والد جاد بفأسه نحو الأحصنة:

- منذ متى تلتحف صدور أحصنة الحرب بفراء الثعالب
الحمراء باهظة الثمن؟

- يبدو أنك نسيت شريعة الضيف وحقه أيها الراعي!

قالها أحد الفرسان الممتطين الجياد بنبرة حادة، واقترب
المترجل إلى حيث يقف الرجل والفتى محدثًا إياهما وعلى
وجهه ابتسامة باردة:

- أعتقد أنك سمعت جيدًا ما قاله صاحبي.

كان الراعي يعلم جيدًا تلك التفصيـلة من شريعة قومه التي يحفظها عن ظهر قلب: «للضيف الغريب حق ثلاث ليالٍ من الضيافة وبعدها يُسأل عن اسمه وطلبه ومقصده»، وهؤلاء الفرسان الأربعة يبدو أنهم ذوو شأن كبير، ثلاثة منهم يرفلون في ملابس من فراء دبية بنية، نزلوا عن صهوات جيادهم وربطوها إلى جذع شجرة قريبة من مدخل الكوخ، وسرعان ما أفسح الصغير وأبوه الطريق بتوجس داعيين إياهم للدخول. أول من دلف كان الفارس ذا اللحية الشقراء المضفرة، ومن خلفه الرجلان المدججان بالأسلحة، أولهما يسير بعرجة جلية، أما الثاني الذي يحمل حقائب الأمتعة على ظهره فقد أطلق صفيـرًا سريعًا وما لبث أن جاءه ما استدعاه؛ دفقات من الهواء سببتها خفقات جناحي ظل كبير، حط من الظلام على ذراع الرجل الممدودة إلى الأمام، عقاب ذهبي ذو عرف من ريش كمثل التاج على رأسه، حاد البصر أصفر العينين مخيف الهيئة، ربما هو ملك العقبان والنسور وكل جوارح السماء. دلفوا وأغمدة أسلحتهم تحتك بعمود الباب الخشبي، وتبين الفتى على ضوء مشعله تفاصيل الدروع الجلدية المدبوغة والمطرزة مع الفراء السميقة. أما آخر من دخل إلى الكوخ فقد كان مهيب الطلة، بدا أن الثلاثة يبجلونه حيث كان مختلفًا عن رفاقه، وقف يتأمل جنبات الكوخ وما زال اللثام الأزرق الحريري على وجهه، أوما برأسه

لحامل العقاب وبدأ في خلع معطف فراء الدببة البيضاء الثقيلة عن كتفيه، وشرع في نزع قفازيه وقبعته المصنوعة من الفراء ذاته، انعكس وهج نيران المدفأة مبددًا الظلال عن وجهه وهو يزيل اللثام، بدا مخيفًا حين استقرت مقلتا الفتى عليه، كان يحدق فيه مذهولًا مندهشًا وخائفًا، تبين أخيرًا من هو ضيفهما.

سلطان الدنيا غازي بن الأشرف بن مالك بن راجي بن المعظم جاد ذو العين الزرقاء، ملك تلال الشمس وعقاب مرتفعات الصقور وسهول الجياد وريف البردقوش، حارس البوغاز وسيد البحار الثلاثة، صاحب الجبل الأزرق وفارس جزيرة الكستناء.

مقاتل عتيد ارتقى العرش الأزرق عن استحقاق بعد مقتل كل الذكور من ذرية جده، ورث عنه عينيه الزرقاوين العميقتين القاسيتين، كهوة سحيقة لا قعر لها كانت مصير كل معارضيه، مهاب عندما يذكر اسمه، الرهبة تجد مستقرها في نفوس ذاكره، وحين يحل في مكان يعرفه الجميع، وجهه يحمل ندبة فريدة وقصة أسطورية عن عراق مميت خاضه بالأيدي مع نمر ثلوج عجوز يعيش في مرتفعات الصقور ذات الصقيع الدائم والصخور الحادة، لم يفتك به النمر ولم يحظّ هو برأس النمر، ولكن المعركة تركت لكل

منهما ذكرى خالدة، وذهب كل منهما في طريقه؛ النمر إلى أعالي الجبال والسلطان إلى معالجه ومشعوذيه، عولجت جراح وجهه بالتفل الأزرق، عشب عجيبة ذات صبغة زرقاء تنبت في ينابيع عذبة دافئة تنبثق في كنف جبل الثلج، شفيت الجروح وبقيت آثار مخالب النمر بلون أزرق طبع على لحم نصف وجهه، ولكنه وسيم على الرغم من ذلك، له لحية سوداء مشذبة عقدت أطرافها على شكل ضفيرة صغيرة صبغت باللون الأزرق. شبح ابتسامة عجب ارتسمت على محياه وهو يحدق إلى وجه الفتى قائلاً بصوت خشن على الرغم من هدوئه وبلكنة أهل الجبال:

- حسناً، وقد عرفتنى، هلاً ساعدت ضيفك؟

على الرغم من هول الموقف والمفاجأة المباغته وعدم التصديق، هرع الفتى وأبوه لضيافة وتلبية حاجات السلطان ومرافقيه، حاولا توضيب المكان وترتيبه ليليق بصاحب المجلس، لم يكف الأب عن ترديد عبارات التبجيل حتى أشار له أحد الفارسين بغلق فمه، همّ الصغير بمساعدة السلطان في خلع حذائه ولكنه توقف حين أشار له بالتوقف محدثاً إياه:

- الرجال لا يخلع أحدهم نعل الآخر، ما اسم الفتى؟

بحماس لم يخل من توجس نطق:

- جاد بن راجي.

- لك نصيب من اسم شريف يا فتى، فأنت وأبوك اجتمع في اسميكما اسمان لجدين من أجدادي.

- إنه لشرف عظيم أن تطأ قدما مولاي السلطان كوخنا، والشرف الأكبر أني حظيت ببركة اسم جدكم الأكبر راجي المنتصر ابن المعظم جاد ذي العين الزرقاء، الجميع يذكر بطولته في حرب قراصنة بحر العواصف، وانتصاره العظيم على آخر ملوك بني شمس في معركة الزاهرة.

جلس السلطان على الفراش قرب المدفأة وتحدث موجهًا كلامه إلى الراعي الذي خفض رأسه مبجلًا:

- من يحملون ذلك الاسم يحظون بالمجد دومًا، ويبدو أن ليلتي هذه ستكون رفقة راجي وراجي وراجي.

لم يفهم الراعي مقصد كلمات سيده، بدا أبله وهو يحدق إلى وجه سلطانه من دون أن يعرف ما عليه قوله، وهنا انفجر أحد الفارسيين ضاحكًا، وابتسم حامل العقاب بينما كان الفارس الثالث ذو اللحية الشقراء المصفورة متجههم الوجه حتى حدثه السلطان بلهجة ساخرة:

- ليلة مجيدة يا صائد الذئاب.

مال الفارس بجذعه إلى الأمام:

- مجيدة رفقتك، سلطان الدنيا.

لم يفهم الفتى وأبوه ما الذي يدور بين السلطان ورجاله، الأمر الذي جعلهما جامدين يحدقان في وجوه الفرسان وسيدهم، تمدد الأخير على فراش الفرو، وقد لمح بفراسته شهوة الفضول في عين جاد، رأى داخله روحًا صافية لطفل لم تلوثه الحياة وصخب المدن، قد يعيش ويموت من دون أن يرى المراعي الخضراء وأنهار تلال الشمس. أرخى السلطان جفنيه متنسّمًا دفاء نار المدفأة، فأشار الراعي لابنه بأن يأتي إليه وفعل الفتى مسرعًا، ما إن اقترب منه حتى جذبه من ذراعه بقسوة هامسًا:

- لا تثرثر بترهاتك عن القطيع وتشريع الرعي، دع المهيب يستريح ولا تعكر صفوه بأي جلبة.

- أبي، إنه السلطان حقًا!

- لا أعلم لمّ رزقني الرب بولد أحرق مثلك، نعم هو السلطان بشحمه ولحمه، كف عن الحديث وتعالّ لتفحص أشراك الصيد، لعلنا نجد عشاءً لضيوفنا.

تجولا في الغابة المعتمة على ضوء المشعل، خاضا في الثلوج يتفحصان الأشرار ويضعان مزيدًا منها، حظهما عاثر وبرودة الجو تنخر جسديهما، والأيل الكبير ذو الفراء الأحمر يقف على مقربة منهما وعيناه تشعان بشكل عجيب وسط الظلام، تأفف الأب وهو يلقي بأخر شرك أرضًا، كان يأمل أن يجد أرنبًا بائسًا أو حتى ثعلبًا جليديًا شاردًا، رأى جاد الخيبة واليأس على وجه أبيه، كان يعلم أنهما في مأزق، كيف ينزل السلطان في محل لا يجد فيه ضيافة؟ حدّث أباه بخفوت:

- ربما علينا أن نطبخ بعضًا من حساء الفطر.

رمقه أبوه بعينين زادهما الحزن كآبة:

- ربما لا تتقبله معدة السلطان، ويحدث له مكروه.

- ولكنه المتاح يا أبي، ماذا نفعل؟ عليه أن يعلم مدى فقرنا فيمنحنا هبة ما.

- جاد، غد إلى داخل الكوخ وتأكد من خدمتهم جيدًا، قم بتقطيع الفطر وجهز القدر للطبخ، خذ معك المشعل.

- ولكن يا أبي الظلام حالك هنا، كيف ستعود أنت؟

- أعرف طريقي جيدًا، هيا غد.

رجع جاد إلى الكوخ مرتبًا، راح يغسل القدر ويجهز طاولة

الطعام الصغيرة، أفرغ جوال الفطر وأخذ يغسله ويقطعه بسكين صغير، كان يتحاشى النظر إلى وجهي الفارسيين الجالسين قبالتة، بينما وضع صاحب الجراح طائرته جانبًا وراح يتفحص حقيبة جلدية وما بداخلها، ظل الصمت جاثمًا حتى نهض صاحب اللحية المضفرة وجاء إليه سائلًا:

- ما اسم هذا الفطر يا فتى؟

قالها وهو يلتقط واحدة ويقربها من أنفه ليشمها، رفع جاد عينيه إلى الفارس مجيبًا:

- فطر السمن.

- أليس لديكما أي مخزون طعام هنا؟

- عفوا سيدي، ولكن نفذ ما لدينا من طحين منذ أيام، ولم تعلق أي طرائد في الفخاخ مع اقتراب العاصفة. إن حساء فطر السمن لذيذ.

ألقي الفارس الأشقر ثمرة الفطر أرضًا وقال بجفاء:

- هل ستطعم السلطان حساء الفطر؟

ولم يتردد جاد في الإجابة، نطق بكل عفوية وعنفوان:

- لو كان هناك شيء أفضل لقدمناه، ما زال أبي بالخارج

يبحث عن طريدة عالقة هنا أو هناك.

همَّ الفارس بقول شيء ما ولكن السلطان سبقه بصوت
رخيم وهو ما زال مغمض العينين:

- راجي، دع الصبي وشأنه، لنجرب حساء الفطر، لطالما
سمعت عنه ولم أتذوقه.

رجع الفارس إلى مكانه من دون أن يبالي بجاد الذي أخذ
يقطع الفطر بينما يحدث عقله. إذن فذلك الفارس الأشقر
اسمه راجي أيضًا، لهذا كانوا يضحكون قبل خروجه هو وأبيه
من الكوخ، أما ذلك الصامت المتجهم دومًا فيبدو أنه لا يحب
الكلام كثيرًا، وحامل العقاب أدنى منهم جميعًا، إنه خادمهم
جميعًا يهتم بشؤونهم ويساعدهم قبل أن يطلبوا، على كل
سيتناول السلطان الحساء. كان يتمنى أن يعود أبوه حاملًا
أي صيد، ولم يمض الكثير من الوقت على التفكير في أمنيته
حتى فُتح الباب ودخل الرجل حاملًا على كتفه فخذ لحم
مشفى من الجلد ومغطى بالثلج. جحظت عينا جاد وظل
جامدًا لبرهة حتى وضع أبوه اللحم أمامه، كان دافئًا وقد
امتصت طبقة الثلج الدماء، خَمَّن جاد ما فعل أبوه ومصدر
اللحم، تهامسا وتعاتبا بالنظرات والفارس الصامت نطق
أخيرًا:

- يبدو أننا على موعد مع وجبة دسمة وليس حساء الفطر.

قال الفارس راجي:

- هذا من حسن طالع ذلك الصبي.

وتدخل الأب ضاحكًا:

- كنت أخبئ تلك الفخذة لوقت الشدة والشتاء القارس.

ألقي جملته وهو يلكز جاد مستطردًا:

- هيا تعال وساعدني لنعد الطعام.

جلسا يطبخان العشاء للسلطان، يساعدهما الخادم الذي اقتطع من اللحم النيئ بسكينه وراح يطعم الجارح الشره، الدماء كانت تغلي في عروق جاد مثل المرق في القدر، وبينما كان السلطان وصاحباه يشربان من نبيذهما الخاص ويتبادلان الحديث، همس الراعي محدثًا صغيره:

- لا تتجهم هكذا، كان عليّ فعل هذا، هل كنا سنترك

السلطان يتناول حساءً لاذعًا طعمه؟

رمقه جاد بنظرة غاضبة، فأكمل الرجل حديثه بخفوت وهو

يلقي ببصره نحو السلطان:

- لن يفطنوا للأمر.

- ثم ماذا؟

- ماذا؟ سيكون لدينا وفرة من اللحم بعد رحيلهم، وبالتأكيد
سيمنحنا السلطان عطية وهبة جزيلة على حسن ضيافتنا
وخدمته، الأيّل كان سيموت على كل حال.

أراد جاد أن يصرخ في وجه أبيه، تمنى لو هاج وصاح
بكل ما يجيش به صدره تجاه الفعل المعاكس لما كان عليه
الأب في النهار السابق، ومهما قال فسيكون لديه مبرر
وحجة لفعله، ظل صامتًا مكفهر الوجه، الأمر الذي فطن إليه
السلطان، ناداه:

- أيها الصغير، تعال.

نهض مسرعًا وانحنى تبجيلًا، سأله المبجل:

- ماذا بك؟

رفع جاد عينيه متطلعًا إلى سلطانه:

- لا شيء سيدي.

- إذن فلم يبدو عليك الحنق؟

- فقط كنت قد شردت وكنت أفكر فيما تفعلونه هنا في تلك

البقعة النائية بعيدًا عن قصور المدينة الزرقاء.

- الصيد، كنا في سبيلنا لاقتفاء أثر نمر ثلوج أحسب أنه

صاحب تلك الندبة.

كان يشير إلى العلامات الزرقاء في وجهه مكملاً حديثه:

- كادت عيني أن تُفقا، بشعة، أليس كذلك؟

- بل مهيبة يا مولاي ومميزة، تليق بشخصك المعظم.

- هل رأيت المدينة الزرقاء من قبل؟

- فقط في الأفق البعيد أرى أبراجها وقباب عش العقاب

المرتفع فوق مروج الأبحوان والخزامى، كياقوتة كبيرة ترتقي تلة مرتفعة وتملك كبد السماء.

- ولماذا لم تزرها؟

- ننشغل بالسوق ومراجعة قيّم الخراج في السوق وشراء

ما يلزمنا قبل العودة إلى مرتفعات الصقور للرعي.

ابتسم السلطان واسترخى في مجلسه متنهّداً:

- كم ربيعاً تبلغ؟

- الربيع القادم سيكون السادس عشر يا مولاي.

شرد المهيب وعيناه ترقبان العقاب الجاثم في الزاوية، كان

ينظف ريش جناحيه بمنقاره الحاد المعقوف مستدفئاً بالنار،

طال شروده وصمته وحين عاد من كهوف ذاكرته وجد أن

الفتى ما زال ينظر إليه بعينيه الواسعتين الممتلئتين فطنة،

فسأله:

- حين كنت في مثل عمرك، كنت أجوب بلدان أرض
تلال الشمس برفقة أولاد عمومتي من أمراء بني الأزرق.
ذهبنا إلى قلعة النار وأزاد، وقضينا صيفًا رائعًا في بستان
الجياد، اصطدنا معًا في أرض جدي لأمي في جبال الدب،
وخضنا مغامرات عاطفية وحفلات صاخبة على شاطئ
نهر التاج، وأبحرنا من العنبرية إلى البوغاز على متن سفن
صيد الحيتان، كل هذا فعلته ولم أشعر بتلك المتعة التي
من المفترض أن أشعر بها كأmir مرفه يجوب الأرض شرقًا
وغربًا. هل أنت سعيد هنا يا جاد؟

ظل الفتى صامئًا لبرهة قبل أن ينطق بتردد:

- نعم.

اعتدل السلطان في جلسته واقترب بوجهه من جاد قائلاً
بحزم:

- لا، أنت تكذب الآن.

جفل جاد وبدا على وجهه التوتر والسلطان يتابع:

- لا عليك، في بعض الأحيان نضطر لأن ندعي السعادة في
غير موضعها، كذلك كنت أنا في كل تلك المواقف التي

قصصتها عليك، كنت دومًا الأمير الصغير، وأينما ارتحلت معهم يذكرونني بأني أقلهم نسبًا وأبعدهم حظًا عن التاج والعرش الأزرق. لطالما احتفظوا هم بحق القرب من الكرسي، فكانت لهم السطوة والنفوذ والنساء، حتى تلك التي أحببتها يومًا حظي بها أحد أبناء عمومتي. كنت أدعي السعادة ولكن الحياة بقربهم علمتني أن لا سهولة في العيش، وأن عليّ أن أغتنم لحظاتي وأنتزع ما أريد وما أستحقه لأكمل حياتي. السعادة الحقيقية تكمن فيما نستطيع فعله والحصول على ما نبتغي. أنت حزين يا فتى، وذلك ما أراه في قعر عينيك، هل هناك شيء تود إخباري إياه؟

حاول جاد الهروب من عيني السلطان من دون جدوى، وحين أشاح بوجهه وجد أباه يتضحك مع خادم السلطان وهما يحملان قدر الطعام لينزلاه عن النيران، كان يسأل نفسه بينما تتسارع أنفاسه، لحظات ظل فيها يراقب أباه الضاحك وما لبث أن عاد إلى السلطان بوجه مبتسم:

- مولاي، هل تسمح لي بمساعدة أبي في إعداد مائدة تليق بعظمتك؟

أشار له بالذهاب وعاد بجسده مستندًا إلى الفراش متأملًا الفتى الذي هرع ليحمل الأطباق. عشاء شهى على وهج النيران والأبخرة المتصاعدة من القدر، رائحة اللحم بالزعر

وجوزة الطيب وفطر السمن كانت تعبق المكان، الجميع يأكلون بنهم وخادم السلطان يصب نبيذ التفاح في أكواب خشبية صغيرة كانت في متاعه، دارت الأكواب على الجميع إلا الفتى، لكن السلطان أمر بأن يصب له وبالفعل منحه الخادم كوبًا أمام عيني والده، لم يستطع راجي الراعي أن ينطق ليمنع ابنه من الشرب، وبعد تردد ونظرة تشجيع من السلطان وفرسانه رفع الفتى كأسه أمام الجميع مبتهجًا قائلاً: «المجد للسلطان».

«المجد للسلطان... المجد للسلطان».

رددت جموع الجند الهتاف المزلزل، صدحت الحناجر مهللة به وسرى الصدى في أرجاء أزد، المدينة القديمة القابعة على سهل نهر التاج، دخلت قوات جيش بني الأزرق عبر البوابتين الشمالية والجنوبية من دون قتال يُذكر، لم تكن هناك مقاومة أو أي أثر لشخص يحمل سلاحًا، فكل أفراد حامية المدينة غادروها منذ أشهر بعد أن فشلوا في كبح جماح الشغب والتمرد في الشهور السابقة، اندفعت الكتائب تباغًا تحمل البيارق والدروع، انتشروا في أرجائها ووقع خطواتهم العسكرية المنتظمة كدقات ألف قلب مرتجف، سيطر الجند على الأبراج والبوابات ورُفعت رايات بني الأزرق من جديد،

وراحت الفرق تؤمّن مداخل الأزقة والحارات، جموع غفيرة من الفرسان اكتظت بهم الشوارع والطرقات. وعبر البوابة الشمالية العتيقة دلفت فرقة المشاة الخاصة بأمر مرتفعات الصقور، مائتان من حملة الدروع والرماح، تراصوا في صفوف منتظمة متقابلة على جانبي الطريق المؤدي إلى ساحة المدينة حيث قصر حكمداريتها المحترق، بملامح جامدة وهيئات صارمة، ثم اقترب من البوابة القديمة ذات الأعمدة الرخامية والعقد الحجري موكب الأمير، ممتطيًا جوادًا بربريًا رمادي اللون يمشي متبخترًا بكبر يليق براكبه، فارس مشدود الظهر في كامل عتاد الحرب، مرتديًا درعًا فضية من زرد مذهب وخوذة فريدة لرأس عقاب تعلوها ثلاث ريشات زرق، من خلفه تحرك الخيالة من حملة الرايات وقادة الكتائب والألوية، على مهل سار الموكب عبر الطرقات حتى صار وسط ساحتها الشاسعة المسماة «سقف النهر»، وأمام ما تبقى من قصرها المحترق.

لكز الأمير جواده ليسير بضع خطوات إلى الأمام ودار الفحل الحربي حول نفسه حين جذب لجامه، جال في الأرجاء ببصره بينما اقترب منه أحد فرسانه قائلاً:

- مولاي، بدأ رجالنا في تفتيش أحياء المدينة بحثًا عن المتمردين وزعيمهم.

بسمو وُرقي رفع الأمير قناع خوذته لأعلى وأطال النظر في الأطلال المتفحمة أمامه، ومن دون أن يلتفت تحدث جاد الصغير بنبرة حازمة:

- أريد من فعل هذا حيًّا، مهما كلف الأمر.

لم تبدله الأعوام الأربعة المنصرمة كثيرًا، ازداد وسامة ووجاهة ونمت لحيته قليلًا، ملامحه صارت أكثر جدية ونضجًا، شد قوامه الفتى بدرع فضية فخمة ومنحته خوذته العجيبة ذات الريش الأزرق مكانة وهيبة. من كان يصدق أن ابن راجي راعي الأيائل يصير الآن أمير مرتفعات الصقور؟ لم يُكنَّ أحد بهذا اللقب قبله، وكان يوم سعه حين زار السلطان كوخهما منذ عدة سنوات، لم يخطر بباله حينها أن هذا سيكون مآله، أن يصبح أميرًا وقائدًا على رأس جيش كبير. وسط الجند ترجل وشد قامته متوجهًا إلى حيث نصب مجلسه، وما إن استوى على المصطبة الفخمة ذات الجناحين العظيمين حتى جاءه الخدم بأطباق من ثمار الفاكهة وأباريق العصير، ارتشف كأسه ببطء وهو يراقب جنده من صانعي المتاريس، عيناه جالتا في أرجاء المكان وبدا للجميع وكأنه فارس مجنح.

كان قد سمع الحكايات الأسطورية عن أزد، مدينة سهل نهر التاج العتيقة، أو كما يسميها العامة «مدينة السدين»،

بوابتها الشرقية والغربية هما في الحقيقة سدّان منيعان أقيما في زمن غابر ليهدئا من جريان النهر الهادر، وعلى جاد أن يكون هو السد الثالث في تلك المدينة، كلفه السلطان غازي بمهمة كبح جماح التمرد في تلك الأنحاء، تدمر وغضب في البداية، أراد أن يذهب مع قاسم أصلان إلى بحر الرمال، أراد الثأر لمعلمه راجي صائد الذئاب، ولكن أمر السلطان لا يبدل. ها هو بعد أربع سنوات من التدريب والتعلم على يد أفضل فرسان مملكة بني الأزرق، يتولى قيادة جيش كبير.

عهد غازي إلى قاسم أصلان وسليمان ناب أمر تعليمه، لكنه يدين بالفضل الأول لقتيل الذئاب راجي، ذلك الفارس الذي جعل منه ما هو عليه الآن، على الرغم من الأسى والحزن على فقدانه في رحلته لبحر الرمال إلا أن السلطان أراد منه أن يفرّغ غضبه وحزنه في حملته على أزد، رحلة طويلة تقدم فيها جيشه قادمًا من المدينة الزرقاء، منحه غازي ثقته في أول مهمة كبرى له وعليه أن يثبت جدارته، ولكن عند قدومه لم يجد عدوًا يذكر، فقط أبوابًا مفتوحة وأبراجًا خاوية، وطرقات لا أثر فيها للناس، رايات قومه ممزقة ومحروقة حول بيت الحكمدارية، ولكن ها هو وسط الصمت الذي لا يقطعه إلا خطوات الجند وخفق الرايات، يتذكر كيف كانت ليلته الأخيرة في كوخ أبيه في مرتفعات الصقور.

يومها اكتشف جان الصقار خادم السلطان الأيّل المذبوح، نبش الجارح ذو العرف والمنقار المعقوف الثلوج ليكشف الجيفة، فما كان من فرسان السلطان إلا أن أحكموا وثاقه هو وأبيه، محكمة نصبت أمام الكوخ الخشبي وأمام عيون قطيع الأيائل جثة صاحبهم ملقاة مدمّاة وقد فقدت فخذة اليسرى الخلفية كاملة، السلطان يجلس صامتًا مهيبًا واضعًا طائرته الذهبي فوق يده اليسرى وعيناه تتفحصان وجه الراعي المرتجف، وبدا صوت الفارس المتجهم مرتفعًا وهو يتلو:

- الجبن سمة السارقين، ومن يسلب شيئًا لا يملكه تقطع يداه، أما من يتجرأ على شريعة الجاباسكي ويخالف قانون السلطان فتفصل رأسه عن جسده.

كان جاد حانقًا ولكنه لم يكن خائفًا، شعر بفداحة ما صنعه أبوه، وأنه السبب فيما هما فيه، لا فائدة من نظرات اللوم أو التوسل الآن، والفارس راجي صائد الذئاب يحدث أباه بغلظة:

- ما الذي دفعك لذبح ما ليس لك؟

بكلمات يفوح منها الخوف نطق راجي الراعي:

- أردت تقديم ضيافة تليق بمولاي السلطان.

- تسرق وتخالف تشريع بني الأزرق لتطعم ضيفك؟ أي

دناءة هذه؟

سحب الفارس الصارم سيفه ذا المقبض العاجي المرصع بالذهب، السكون تملك من أرجاء المكان، بضع خطوات على الثلج الناعم وصار راجي فوق رأسيهما قائلاً:

- لا معذرة فيما اقترفت يداك أيها الراعي.

رفع سيفه إلى أعلى وهو يشير للخادم بتثبيت الأب المرتجف واستطرد حديثه:

- باسم سلطاننا المعظم غازي بن الأشرف حامي التشريع ومنفذ قوانينه، حكم عليكما بقطع رأسيكما لخرقكما نصوص الجاباسكي وسرقة أملاك السلطان.

- لم نسرق شيئاً.

صاح بها جاد الصغير ورفع وجهه ليلتقي بصره بعيني الأمير راجي، الأمر الذي لم يعجب الأخير فقال بتحدٍّ محدثاً الفتى:

- بل فعلتما.

نقل الفتى وجهه إلى حيث المهيب الذي كان يربّت على رأس الجارح:

- لم نسرق شيئاً، ما للسلطان أكله السلطان.

كلمات افتدى بها نفسه وأباه، وتقبلها السلطان بوجه باسم، ولم يخف إعجابه بجرأة الفتى، لم ينس جاد كلمات جان الصقار وغضب راجي صائد الذئاب والفارس الآخر الذي كان يُسمى سليمان ناب، ولكن كل هؤلاء صمتوا وتركوه مع سيد بني الأزرق الذي منحهما الحياة من جديد. حديث طويل دار بينه وبين المعظم في ذلك اليوم بينما يسيران وحدهما داخل غياهب الغابة المكسوة بالثلوج، ومن فوقهما كان العقاب يحلق أعلى هامات الأشجار، وخير جاد الصغير بين البقاء في مرتفعات الصقور في صقيع سيرافقه حتى القبر أو الذهاب إلى المدينة الزرقاء عاصمة بني الأزرق. كان الفراق محتومًا، غادر من دون أن يودع أباه إلا متبادلين نظرات حملت الكثير من المعاني، هيمن عليها أسى الأب ودموعه. في قصر الملك مُنح جاد الكثير وحظي بالمزيد لفطنته وسرعة تعلمه، حتى صار ما عليه الآن. كان غارقًا في غياهب الذكرى حين جاءه قول أحد فرسانه:

- سيدي، وجدنا الرجل.

النبي

ظلمة حالكة، وجدران لزجة رخوة خانقة، يحيط به ماء ودماء وحبل قصير يلتف حوله ويثبته داخل سجنه الغريب، يتملص ويركل محاولاً تفادي الانقباضات التي تعتصر جسده العاري الضئيل، قلبه يخفق بقوة ويكاد يخرج من بين عظام صدره اللينة، لو كانت أظافره أكثر صلابة لخمش بها جدار كهف اللحم القابض على روحه، يفرق في اللزوجة المحيطة به مختنقاً، لا يدري من هو وكيف وصلت به الحال إلى هنا، لا حيلة له ولا قوة يدفع بها نفسه خارج ذلك القبر المظلم. ووسط دوامات المخاض التي تدفعه عنوة نحو عنق شديد الضيق، راح ينزلق بصعوبة بالغة حتى خرج رأسه الصغير المغطى بالدم والسوائل اللزجة، وفتح عينيه في اللحظة التي أمسكت بكتفيه يد غليظة وجذبتة للخارج. هكذا خرج للعالم، وهكذا قبض عليه.

أُخرج إينال بقسوة من عتمة غرفته ببيته البسيط إلى ضياء نهار الدنيا الذي غشي عينيه، ألقوه على وجهه أرضاً بعنف، لم يشعر بهم حين دخلوا البيت، كان في غمرة تأمله، كان في انتظارهم، انتشلوه من سبات وحيه ورؤية راودته

عن لحظة ميلاده، ولكن هذا هو الميلاد الحقيقي له، وبدلاً من أن يُلف في خرق المهد، وجد الثرى والطين يلطخان وجهه ووثيابه، وأحد الجند يجثم فوق ظهره ليقيده بسلاسل غليظة، من حوله تساقط أتباعه بين ركلات وضربات قاسية أجبرتهم على الركوع والانبطاح أرضاً، مستسلمين من دون مقاومة كما أمرهم مبشرهم ونبیهم المخلص، نظراته الخاوية ووجهه المغبر كانا مثالاً للصبر على ما ابتلوا به، كان قد أخبرهم أنهم مقبلون على مصاعب وهوان كثير ومن بعد ذلك رفعة ومكانة وخلود يليق بتضحياتهم، صدقوه وآمنوا به وما زالوا يفعلون على الرغم من الأغلال وضربات الشياطين، سيقوا زمراً مكبلين بالأغلال وسط نحيب النساء والأطفال، ودموع الثكالى ترثي مآل الآباء والولدان.

منذ شهرين أضرم أتباعه النار في بيت حكمدارية أزد، وهدموا تماثيل العقاب الكبير، واشتعلت الفوضى في أزد وتحطمت منصات المذابح والنذور، دهسوا ومزقوا رايات بني الأزرق، وحكمدار المدينة اختار الهرب هو ورجاله رفقة جند الحامية، تركوها للجنون وثورة المجدفين الكارهين لسلطة وشريعة الجاباسكي، تخلى القادة والجند عن واجبهم وفروا مخلفين وراءهم الأسلحة والذخائر، غنيمة ثمينة للرعاع والمهرطقين، ولكن أزد بقيت آمنة من دون حكمدار يدير شؤونها أو عسكر ينظم حمايتها، ولم يبق في دواوينها

من يقضي بتشريع ابن الأزرق، ففي الليلة ذاتها التي غادر فيها رجال السلطان وجنده نودي في الناس لمبايعة الحاكم الجديد رسول الخالق المجيد؛ إينال النبي، إينال بن أنو.

تقدم أتباعه المسلسلين بخطى ثقيلة بفعل الأغلال الحديدية، واهنة على الرغم من اتزانها، مشدود البنيان وكأنه في موكب فخر وليس أسيرًا مكبلًا، لم يبالي بصيحات الفرحة والسباب من بعض مريدي بني الأزرق الشامتين، عيناه السوداوان الثاقبتان يعلوهما حاجبان معقودان زاداه هيبة وبأسًا، وشاربه الكث المغبر بالتراب يخفي شفتيه، تجاوز الخمسين ربيعًا ووجدت التجاعيد سبيلها إلى جبينه وأسفل جفنيه. كان قد اعتاد على حلق لحيته ورأسه كل ثلاثة أيام، ومثله فعل أتباعه المؤمنون المكبلون معه الآن، جميعهم حليقو الرأس يعفون شواربهم، لولا اختلاف ألوانهم وأحجام أجسادهم لكانوا صورة طبق الأصل منه، كانوا يسرون باتجاه الساحة المبلطة بالحجر حيث نصبت خيمة عظيمة تعلوها الرايات الزرقاء، ما زالت الاقتحامات جارية للمنازل والخانات، الكل متهم والجميع في نظر الجند متمردون، سواء كانوا مؤمنين بمدعي النبوة أو غير ذلك، صرخات وتوسلات تصدح في أركان المدينة بين الحين والآخر.

أوقفت طوابير الأسرى على مسافة بعيدة من الخيمة

السلطانية، بعضهم ما زالوا يصيحون بأن لا علاقة لهم بالأمر، وما نالوا إلا السياط واللکمات ردًا على التوسلات، وطال الانتظار وشمس الظهيرة تلفح الرؤوس الحليقة، أصابهم الإعياء ومن يسقط منهم أرضًا يجد في صوت السياط حافزًا للنهوض مجددًا، لم يستطع الخوف أن يتسرب إلى قلوب المؤمنين، يذكرون جيدًا ما أوصوا به، يثقون في صاحبهم ذي الكرامات والمعجزات، كلماته الهادئة ووصاياه النابعة من دماثة خلق وحكمة ما زال صداها يتردد داخل أرواح وجدت الخلاص وعرفت الطريق إلى الخالق. وبينما هم جلوس في أغلالهم لم تتوقف حركة الجند حول الساحة وفي أرجاء المدينة، وبين الحين والآخر يأتي بعضهم ويأخذون أحد الأسرى، ونبههم صامت جامد كوتد مثبت في الأرض المبلطة، لا تهزه ریح ولا يشوب قلبه خوف، وكل ما فعله هو الانتظار حتى جاء الدور عليه. تعاملوا معه بخشونة، دفعوه بعنف ممسكين به من قفاه بغلظة، نعتوه بالمشعوذ والساحر والمجدف، لم ينطق ولم يكن له أي رد فعل، ولكن ارتسمت على محياه ابتسامة أخفاها شاربه الكث ولم يرها سوى أتباعه.

أزبحت ستائر الخيمة الكبيرة جانبًا، لتكشف عما بداخلها،

تقدمه جنديان وخلفه آخران، ووطأت قدماه الحافيتان بساطًا من وبر أحمر ناعم، جدران من الديباج الأزرق المزين بنقوش فضية بديعة منحت المكان رونقًا ورحابة، وعلى جانبيها وقف عدد كبير من قادة الجيش ومستشاري السلطان ونبلاء أزد الموالين له، كانوا يتفحصونه وتشرئب الرؤوس لرؤيته، انزاح من يتقدمانه جانبًا ووقعت عيناه على الجالس متوسطًا الكرسي ذا الجناحين الفضيين، لم يكن السلطان غازي بن الأشرف بل شاب مليح الهيئة لم تغربله الحياة بمشقاتها، فخور معتد بنفسه وبدرعه وخوذته التي يضعها إلى جواره، لم يدم الصمت وحوار الأعين طويلًا، غادر رجل أشيب كثيف الشعر واللحية صفوف القادة وانحنى أمام الأمير الشاب الذي منحه الإذن بإشارة من يده ليبدأ، وتقدم القائد الهرم نحوه ليقف على مسافة قريبة منه واصطدمت مقلهما قبل أن ينطق سائلًا إياه:

- أنت المدعو إينال إذن!

ظل صامتًا ولم يجب، ولم يضيع الأشيب ذو الدرع الحربية وقته في انتظار إجابة بل أكمل حديثه بنبرة هادئة:

- حسنًا، يبدو أنك ستختار الصمت كمعظم أتباعك، ولكن أوليس أنت المبشر كما يدعون؟ فكيف تستأثر السكوت بينما تستطيع إخبارنا ما الذي دفعك للتمرد على التاج والتشريع؟

ربما كان رجالك مأمورين بعدم الحديث، ولكن لدينا أساليب كثيرة تجعل أشجع الرجال يعترفون بل ويتوسلون لنصدق رواياتهم.

قطع إينال حديث الرجل بلهجة قوية:

- لا أدري منذ متى وبنو الأزرق لديهم كل هذا الحلم والرافة مع أعدائهم! لماذا لم تنتهجوا هذه الطرق معي؟

ابتسامة صفراء رُسمت على وجه الأشيب واقترب منه خطوتين قائلًا:

- أنت هنا لتجيب، ولك الحق أن تدافع عن نفسك وتنفي أي حماقة قد اقترفتها، ونحن من نحدد هل تستحق الرافعة أم العقاب يا سيد إينال. والآن، ما قولك فيما نسب إليك بأنك أثرت البغضاء والشحناء بين الناس في أزداد حتى هجر العبيد أولياءهم، وتفرقت سبل العائلات بعد دعوتك الغريبة؟!

- بل منحتهم سبيلًا للسلام والمحبة والعدل.

- من أنت لتمنح نفسك هذا الحق؟

- وبأي حق تسألني أنت؟

عقد الأشيب حاجبيه ونظر حوله في وجوه الحاضرين وهو يقول مستنكرًا:

- يبدو أنني سأصدق قول نبلاء المدينة بأن لوثة أصابت عقل ذاك الرجل، اسمع يا هذا، لسنا في مجلس للتعارف، إن كنت حقًا تنادي بالعدل فعليك أن تخبرنا، ما الذي يدفع نجارًا يعمل على روافع وتروس آبار السد الشرقي للمدينة إلى هذا الجنون، ولماذا هاجمت وأتباعك بيت الحكمدارية، وانتهى بكم المطاف إلى أن سلبتم منازل النبلاء وممتلكاتهم، هذا غير التبرص وقتل جند الحامية السلطانية؟ كل هذه الجرائم قد تكون لها دوافع مسببة، وربما تُغفر تحت أي عذر تقدمه، ولكن هل تظن أنك ستفلت مما سيحيق بك لتحطيم النصب الخاص بجدنا الكبير؟ وماذا عن تدنيس ديوان التشريع وحرق لفائف الجاباسكي المقدسة؟

- ما حدث كان مقدرًا، ولم يتم شيء إلا بإرادة ومباركة الخالق المجيد.

انقض الأشيبي عليه وأمسك بتلابيبه بقسوة وحنق:

- ما بك يا رجل؟ أتصدق حقًا بأنك نبي مختار؟ لا أعلم من أين تأتي بكل هذه الغطرسة وأنت في حضرة أمير مرتفعات الصقور وحامل لواء السلطان، انظر جيدًا إلى حالك، مكبل اليدين والقدمين وما يفصل نصل السيف عن رقبتك إلا صبر يكاد ينفد.

- قيذار، أفلته.

نطق بها جاد الصغير، بضع لحظات مرت قبل أن يفلته، تنحى جانبًا وخفض رأسه خضوعًا لأمر الأمير الشاب الذي اعتدل في جلسته وبنبرة عميقة تحدث:

- سيد إينال، أرى أمامي رجلًا مبدعًا بين أتباعه، وأستغرب أنك لم تحثهم على المقاومة على الرغم من علمك بقدمنا، وهذا يعني بالضرورة أنك رجل حكيم راجح العقل، وأنا لا أحب المماطلة والأحاديث التي ليس لها فائدة، فقط أخبرني ما سبب فعلتك، وما ترجو من وراء ذلك، فقط ارو علينا قصتك ودوافعك إن أردت، فلعلنا نصدقك أو نتفهم غضبك.

التحف المكان بالسكون وشبح ابتسامة حرك شارب إينال قبل أن ينفرج ثغره بإجابة الأمير الدمث:

- الغضب! شعور يقود إلى الخسارة وهلاك النفس، وما كان أمرنا بسبب الغضب أو البغض بقدر ما هو امتثال للنقاء والخير، ورفض الظلم، وتقديس الخالق، وطاعة ما يمليه.

- حسنًا، إن لم يكن ما فعلتم بسبب شيء ما أغضبكم، ولكني لم أسمع من قبل أن هناك خالقًا يدعو للخير والنقاء ثم يدفع الناس لحرق ممتلكات الغير وسلب البيوت والأموال.

- إنه المجيد المنزه عن الزلل، العفو على الرغم من قدرته، واهب الخلود.

همهم قيذار:

- بدأت الهرطقات.

رمقه إينال بطرفه وأكمل حديثه:

- نحن لم نسلب شيئًا أيها الأمير، يمكن أن يؤكد رجالك هذا الأمر، لم نحمل السلاح الذي تركه جندكم ولم نأخذ مقدار دينار من الذهب والأموال المقدسة في خزائن تفيض بهما، لم نقتل جنديًا ولم نسفك دمًا، بل كل من ماتوا من إخوتي ورفاقي الذين سبقونا إلى لقاءه، سيبعثهم الخالق من جديد ويمنحهم خلودًا يليق بتضحياتهم...

قاطعه جاد باقتضاب:

- كيف وأين وجدت ربك هذا؟

- حين كانت أزداد تغرق في طوفان غضبه، أظلمت سماء الظهيرة بفعل غيم أسود لا يقطعه إلا برق خاطف، ونهر التاج يموج ويجري بأمره مبتلغًا دور الرذائل القائمة على ضفتيه، الهلع كان جاثمًا فوق الصدور، ارتعشت الأطراف وتيبست أعين الناس في محاجرهما، هزيم الرعد صم الآذان وعصفت الرياح بأبواب ونوافذ البيوت، أزداد تغرق بفعل آثامها. كنت على السد الغربي حينها، مناوبتي كانت شاقة في ذلك اليوم،

علينا فتح آبار التخزين الثماني لاستيعاب الفيضان، وأيضًا كان علينا فتح بوابات السد الشرقي، عملنا بجد واختطفت الريح ثلاثة رفاق كانوا يعملون على إصلاح عطب مفاجئ للتروس المحركة لدفتي السد، وهو ما جعل المدينة تغرق جراء الفيضان، هرب البقية لنجدة أهليهم والفرع يسيطر عليهم، ووسط الخوف لم يبقَ هناك سواي وأزاد كحوض ذي جدران يُملأ على مهل. كان عليّ أن أرفع أبواب خزانات السور لاحتواء فيضان النهر الغاضب، ولكني انزلت إلى داخل البئر الوسطى، هويت إلى عمق ثلاث وثلاثين ذراعًا، ارتطمت بالماء في قاعه فخفف من قوة سقوطي، وحين أدركت ما أنا فيه علمت أنني هالك لا محالة. كنت عالقًا بين تروس عملاقة لبوابات البئر، سأموت غرقًا في غيابة الجب ببطء أو سأموت طحنًا وسحقًا بين التروس الكبيرة إن حاول أحدهم إدارتها، وكل شيء فعلته في حياتي رأيتَه يتجسد على الجدران المظلمة كلما أضاءها قبس برق، السماء ترمي بمطر ثقيل وأسئلة ملحة تضرب رأسي بعد استغاثات لم تتجاوز فوهة البئر وبدد صداها الرعد. سأموت؟ وماذا بعد؟ الموت هو نهاية المطاف إذن، فلماذا جئنا ومن أين أتينا؟ وما الجدوى من وجودنا؟ لعل تلك الأسئلة كانت حاضرة في عقلي من قبل ولكن صداها تردد بداخلي بينما تنزف ساقي المهشمتان وأغرق ببطء.

الماء أخذ يعلو رويدًا رويدًا ويبتلعني، ولم أعد أشعر
بقدمي من أثر ما حاق بهما من كسور وجروح، لم يكن لديّ
أمل في تسلق الجدران الحجرية الملساء، وخيّل إليّ وكأني
أسمع صرخات أهل أزد الفزعة، الأرض والجدران تزلزل أو
هكذا حسبت، بكيت وحثتني نفسي للتضرع لا أعلم لمن،
بكيت الحياة المتسربة من روعي، أكثر من أربعين سنة
قضيتها بين رتابة العمل وخدمة السد، وقضاء الليل مع
طفلي وزوجتي في بيتنا المتواضع، ولدت وكبرت في هذا
العمل المقدس، فعل أبي ما رآه في صالحه، الناس يهبون
أولادهم لرعاية السدين منذ عهد بني شمس، طمعًا في حياة
كريمة مقابل الطعام والملبس وكذلك فعل معي أبي، عشت
خاضعًا لشريعة بني الأزرق وقوانينهم التي يحكمون بها، لم
تمنعهم نصوص الجاباسكي من تعطيل السدود التي كانت
تعمل وفق إرث بني شمس، وفي النهاية جميعهم سواء، وإن
ذهب ملك قوم جاء آخرون بظلم أشد.

كنت قد انتدبت من قبل للذهاب إلى عين الشمس، قضيت
في منجمها ما يقرب السنة، أصنع الروافع وأنحت التروس،
أصبت بحمي شديدة ذات يوم، ولما أفقت رأيت العالم هناك
كما لم أره من قبل، رأيت المستضعفين من الناس والعبيد،
مسلسلين مسخرين تتأكل أرواحهم، يعاملون ببطش ومذلة
ويتفنن الجند في إهانتهم. حين عدت إلى أزد وعيت للظلم

الأكبر الواقع على العامة من قِبَل جباة الضرائب، إن عمالكم وقيمي الخراج يظلمون ويعذبون، ويجمعون المال ويعدون الأنفاس على الناس، إنكم يا بني الأزرق نبع الظلم الذي نعاقب بسببه، رذائلكم وأعيادكم وتلك النذور التي تهدونها لتمائيل جدكم الكبير. أهذا هو ما يجب أن أتضرع إليه وأنادي بصلوات تمجده وتلحقنا به حيث كان؟ أنادي باسمه لأخرج من تلك البئر؟ هل الاستغاثة بميت ستدفع عني ما أنا فيه فيلبي ندائي؟

من السذاجة أن نصدق بأن رجلاً من لحم ودم قد بنى لنا خصيصاً بعد موته نعيماً؛ جنائاً وقصوراً كبيرة من الكهرمان الأزرق والياقوت الأبيض ليجلس أمام مائدة عملاقة ممسكاً مطرقتة منتظراً قدومنا بعد أن نموت! أم أننا سنذهب بعد الموت إلى الضياء الأبدي والنور السرمدي إن كنا صالحين كفاية كما ادعى كهنة ونسك بني شمس؟ عبدوها هي ونجوم وكواكب السماء، ولما حمئت عين شمسهم وانصهر مورد ملكهم، لم تغن عنهم شيئاً على الرغم من تضرعاتهم، أحرقت مدنهم وهدمت وأزالت سلطانهم. من أناجي وأتضرع إذن ليخرجني من البئر؟ من ينجدني لأنقذ ولدي وزوجتي من الطوفان؟ انغمس البشر في ظلمهم وفسادهم، والخالق غاضب ناغم على ما يفعلونه، ألم يعلموا أن هناك مهيمناً قادراً يأبه للمستضعفين والمظلومين؟ إله عادل أحق بالعبادة من

صخر الجبل الأزرق وتماثيل موتى لا ينفعون ولا يضرّون، تلك الحياة ليست عادلة بما يكفي وعلى أحد أن يفصل بين الناس بالعدل، يقول جدكم إن الناس خلقوا من الرمل وأنتم وهدكم يا بني الأزرق خلقتهم من صخر الجبال، فمن صنع جلمود الصخر والرمل الذي جئنا منه؟ وإن كنا من الضياء كما ظل بنو شمس لقرون يعتقدون بذلك فمن أوجد مصدره؟ كل هذا مر بخاطري وجال بعقلي بينما أنتظر الموت داخل الجب وحين فقدت الأمل، تحدث إلي الخالق المجيد.

سأله جاد باهتمام:

- وماذا يريد خالقك؟

- الرشاد والخير لكل البشر، أن يؤمنوا به ويعبدوه، ويصلوا ويتضرعوا إليه قبل أن يصيبهم منه عذاب أليم. يأمرنا أن نسمو بأرواحنا إلى الفضائل، وأن نبتعد عن الرذائل، كما يأمر بالعدل وألا يبخس الناس بعضهم بعضًا، هو الأحق بالعبادة، كيف لا وهو واهب الحياة ومانح الملك، هو المعطي والمدبر، هو من أهلك بني شمس لكفرهم به وتقديسهم لنجوم السماء، ربما لا يعي أحدكم الأمر، ولكنني خضت رحلة عظيمة وشاقة كما أراد، حتى وجدته مرة أخرى وتحدث إلي.

- أيًا كان من أخرجك من البئر وتحدث إليك، فقد دفعك إلى الموت على يد من تمردت عليهم.

كلمات ألقاها قي دار مقاطعًا في سخرية جسدتها جميع حواسه، واستفز فعله أميره الشاب وهمّ بقول شيء ولكن صوت إينال البارد الرخيم هيمن على المكان:

- أنتم زائلون يا بني الأزرق.

اضطربت الأنفاس واختلجت القلوب، ضجت الخيمة الشاسعة بالهمهمات، اصطكت الأغمة واهتزت الرؤوس، كيف يجرؤ متدني النسب هذا على تهديدهم؟ نهض فجأة جاد وتعلقت به الأبصار، وكأن جناحي كرسيه انتفش ريشهما الفضي ذو اللمعة الزرقاء، مقطب الجبين مثبتًا نظره على وجه غريب الأطوار. إنه أمام رجل لا يهذي، بل متحدّ واثق، على الرغم من كونه بالأغلال مقيدًا. نزل بروية درجتّي مصطبته محدثًا أسيره:

- كنت أحسب أنك تمتلك الذكاء الكافي لتفادي موقف كهذا. سيد إينال، تركتك تجدف وتقص علينا حكايتك الغريبة، وأيًا كان ما قصصته فقد أصابني بالملل، خاب ظني مرتين، أولاهما حين أردت سماع الأسباب التي دفعتك لفعل ما فعلت، وثانيتها انفجار غضبك وكلمات التهديد التي تفوهت بها لمجرد أن قاطعك المبجل قي دار.

قاطعه إينال:

- بل قلت ما أخبرني به الخالق المجيد.

- أو أن هذا ما ترنو إليه نفسك؟ أليس كذلك، أم ربما هو كره وبغض لسلالة مقدسة؟

- نحن البشر نضفي القداسة وننزعها حسبما تريد أهواؤنا أيها الأمير، وما بنو شمس عنكم ببعيد.

لم يرق لجاد مقاطعة الرجل له، أطال النظر إلى وجهه ثم حدثه:

- تتحدث كثيرًا عن بني شمس ولا أظن أن دمائك تحمل قليلاً من نبل الغابرين، أنت مجرد رجل بائس قضى عمره يرى المدينة من أعلى سد صخري شاهق، ومن منا لم يسمع قصص الغارقين في آبار أزد المخيفة، ربما بعض الأطياف قد زارتك ومس عقلك منهم جنون، ولعل ما هو مقدس لغيرك لا يعينك بالضرورة، ولكن كيف بك إذ رحت تشيع في الناس أن ما تدعيه هو الصواب ولم تأبه بما يقصدون ويعبدون؟ تتوعد الناس وترهبهم بالعذاب والويل والفناء، لأجل ماذا، لمجرد هواجس تراودك وشيء ما يوسوس بهرطقات داخلك؟

- بل إنه الحق، رحمة الخالق ستطال المؤمنين لينقذهم كما انتشلني من البئر لأرى الحياة كما لم أرها من قبل، سيمنحنا الخلود الأبدي ونعيمًا لا ينفد في سلطان عدله، أما عذابه

فسينصب على رؤوس الظلمة وأعوانهم.

- لماذا لم يغرق إلهك أزيد بغضبه وقوته كما ذكرت؟ كيف يمنح من لا يؤمنون به الحياة؟ لتعذبهم أنت؟ حديثك يفيض بالتناقضات! كان أولى بك أن تدافع عن نفسك وعن أتباعك بحكمة ورؤية صادقة لواقع ما أنتم فيه.

- ما نحن فيه لن يدوم، وما وقفت بين أيديكم إلا امتثالاً لأمر الخالق بأن أرشدكم إلى الحق، فإن آمنتهم فذلك خير لنا ولكم، وإن كفرتم وصددتم فلن يغنيكم ذلك شيئاً.

اقترب جاد بوجه يشع بالتحدي:

- ها أنت تهددنا وتتوعدنا مرة أخرى، ويبدو أنك لا تشعر بتلك الأغلال الحديدية، أو أنك غير واعٍ لما يدور هنا، غير مدرك لوضعك الحالي...

قاطعه إينال:

- سنتحرر ونحظى بالخلود، أما أنتم فسيبقى ملككم.

ضحك جاد ساخرًا:

- حسنًا، ربما نناقش هذا في وقت لاحق، أو قد لا نفعل.

- سنفعل بالتأكيد أيها الأمير...

لم ينتظر جاد الرجل ليتم كلماته، استدار مشيرًا للجند:
- خذوه.

ما إن أمسك الجند بكتفي إينال حتى التفت جاد وهو عائد
إلى كرسيه محدثًا رجاله:

- قداسة التشريع تحتم العدل، امنحوا العفو لأولئك المغرر
بهم وألزموهم حياة السخرة في عين الشمس، وأولئك
المتورطون علقوا رؤوسهم على بوابات أزد، أوكلوا العمال
بإعادة بناء النصب المقدس للعقاب الكبير، ووزعوا حصصًا
من الطعام على الأسرى.

سُحب إينال بغلظة خارج الخيمة، وراح الجمع ينفذ من
حول الأمير بأمره، لم يبقَ معه سوى مساعديه القائدين
ساري ونورين والمبجل قيدار، جلسوا فور استواء جاد على
الكرسي، شرد بعقله الجامح في كل تلك الأمور التي قالها،
بينما كان ثلاثتهم يتحاورون بالنظرات فيما بينهم، لا يعرفون
ما يدور بخلد أميرهم الشاب، وحين طال الصمت تحدث
نورين سيد بستان الجياد:

- مولاي الأمير، هل لي بقول شيء؟

أوماً جاد برأسه فنطق الرجل:

- كانت أوامر السلطان حازمة في أمر أولئك المتمردين،
وجب علينا قتلهم جميعًا ليكونوا عبرة.

- ولكننا لم نلق مقاومة يا نورين، كيف نقتل العزل بلا
محاكمة؟

تدخل قيثار بصوته الأجرس مجيبًا:

- لم يكونوا عزلًا حين تمردوا وسفكوا دماء جندنا، أقسم
بالعقاب الكبير إن ذلك الرجل ينوي شيئًا ما، لا تريحني نبرته
ونظراته، إنه يخفي شيئًا ما، أيضًا ليس هناك أثر لمن يدعون
أنفسهم الحكماء السبعة.

ابتسم جاد وهز رأسه موافقًا:

- نعم هناك شيء ما يحاك، وما ترك هذا الرجل نفسه لقمة
سائغة لنا إلا لشيء في داخله، لا يزال أعوانه طلقاء في مكان
ما، أراد إحراجنا أمام قومه ولئن قتلناه من دون محاكمة تار
علينا الناس في جنبات أرض تلال الشمس، وسينتشر الخبر
بأن بني الأزرق قتلة لا شفقة في قلوبهم، إنه يتحدث بثقة
مفرطة، ويبدو أن أهل أزد جميعهم يدينون بالولاء له، قد
يبدو أننا سيطرنا على الوضع وأعدنا الانضباط والتحكم في
المدينة، ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها أننا داخل مصيدة
عظيمة نصبها ذلك الرجل، ذات يوم أخبرني معلمي الوزير

الأكبر قاسم أصلان: «من يتحدث بثقة المنتصر وهو في الأغلال إما أن يكون مجنونًا أو شخصًا يؤمن بما فعل أو ما يستطيع فعله»، وإني لأراه ذلك الثاني.

قال أمير أوريجا ساري الماجوني:

- إذن لا أرى أي سبب يمنعنا من قتلهم جميعًا، وقد قبض رجالنا على جميع أتباعه.

أضف المجل قيدار بصوته الأجل:

- لا نعلم إن كان أمر ذلك الرجل بلغ العديد من مدن وقرى مستنقع الجميلات وحصن العدل، فدعوته تلك ظهرت في وقت عصيب تمر به سلطنتنا، أؤيد قتله.

تحدث نورين:

- أرى أن نفضله عن أتباعه، ونمارس الوقيعة بينهم، ولا ضرر من قطع بعض الرؤوس لتخويفهم.

لحظات صمت مرت قبل أن يرد عليهم جاد بهدوئه الذي عهدوه:

- أيها السادة، التعامل مع عدو غامض يحتاج لحكمة تسبق السيف، أونسيتم أن جيشنا الكبير في طريقه لإخضاع مملكة الساحل وضمها للتاج الأزرق؟ وأن جيشًا آخر بقيادة

الأمير سليمان ناب يخوض حربًا شرسة في بحر الرمال ضد عصابة الذئاب التي فتكت بالمبجل راجي؟ إننا محاطون من كل جانب بالمتمردين والطامعين في الملك، قواتنا منتشرة في أرجاء تلال الشمس، والولاء يتبدل داخل عقول الرجال أسرع من قلب الليل والنهار، ماذا لو قتلناه ووجدنا عدوًا ثالثًا يريد الثأر لمدعي النبوة هذا؟ هناك شيء مريب في حديث ذلك الرجل وهو بالتأكيد يضر لنا شرًا. يتوجب علينا إبقاءه حيًا، وخاصة لأن لديه أتباعًا كثيرًا ينفذون أوامره بلا تردد أو نقاش، ألم يلحظ أحدكم أن عدد من قبضنا عليهم أقل بكثير من الأعداد المذكورة في الرسائل؟ قالوا إن خلقًا كثيرًا من أهل أزداد يتبعونه في حين أننا لم نقبض سوى على الضعفاء منهم، أين بقية رجاله؟ أين ابن إينال وزوجته؟ أين من يطلق عليهم الحكماء السبعة؟ المدينة تكاد تكون خاوية إلا من قلة، أين بقيتهم؟

لم يعجب قيदार بما قاله الأمير الشاب، ما زال غير واثق في قدراته على القيادة، فتى السلطان المدلل صار أكثر حكمة منهم، أو هكذا يظهر لهم، بقي صامتًا في حين قال ساري:

- نستجوبه بطريقتنا إذن، ننزل به ورجاله أشد العذاب وسيتحدثون بالتأكيد.

- لن يفعلوا، شددوا الحراسة عليه واعزلوه بعيدًا عن بقية الأسرى، غمّموا عينيه وكبلوه جيدًا واطركوه في الظلام يناجي خالقه ولنرّ ما سيفعله. سيد نورين، سأحتاج منك أن تنشر جيات البرق حول المدينة ليرصدوا أي تحرك غريب، أما أنت أيها القائد ساري فسيكون عليك استجواب أهل المدينة من نساء وأطفال وعجائز، أريد معرفة أين ذهب بقية رجاله وأسره.

أوما ساري برأسه:

- بكل لطف بالتأكيد.

وتابع جاد الحديث:

- أيها المبجل قيدار، اجعل جيشنا على أهبة الاستعداد تحسبًا لأي هجوم مضاد، لعلنا ندخل شرًا نصب لنا ونحن لا ندري، أيضًا أريد منك أن تجتمع بكل الموالين لنا من التجار والنبلاء وكذلك حكمدار أزد، استخلص منهم كل معلومة قد تفيدنا في بحثنا عن بقية أتباع الرجل ومن هم المقربون منه.

خرج الرجال الثلاثة من خيمة القيادة كل إلى ما وكّل به، داخل كل منهم شيء من سخرية، الأمير اليافع لم يكن محل ثقتهم، يزعجهم كونه قائدًا للجيش، ولكن لا يجرؤ أحدهم على الاعتراض. بينما فكر ساري في أن مكانة جاد الصغير

كبيرة لدى السلطان غازي وزوجته، الأمور صارت تُدار بشكل غريب في الآونة الأخيرة، وبنو الأزرق يحاربون على عدة جبهات في آنٍ واحد، يؤمن ساري ورفيقاه بما يؤمن به سلطانهم؛ السيف أصدق وأنفع من الحكمة. ولكن بالنسبة لجاد ابن راعي الأيائل الأمر كان مختلفًا تمامًا، جاء ليقضي على هؤلاء المهرطقين ولكن الفضول هو ما يحركه الآن، أثاره حديث ذلك الرجل إينال، سمع عنه وعن حكمائه الكثير، لذا جل ما أرادته هو أن يفهم ما يرنون إليه قبل عقابهم.

ليلة هادئة وأزاد هامة، ابتلعتها الظلال والأسوار العملاقة التي ترتفع إلى السماء كجدار أسود بهيم يحمل سقفًا أزرق داكنًا مرصعًا بنجوم الليل البراقة، المشاعل القليلة تضيء نواصي الطرقات وتقاطعاتها، الأشجار والمباني تغط في الظلام بينما تجوب الدروب دوريات الجند، والمرفأ الشاسع وسط المدينة مكتظ بمراكب وسفن خاوية من بحارتها وأصحابها، النهر يجري بروية وقد أنزلت السدود حواجزها، الأبراج المتباعدة تضيئها قناديل زيت تؤنس وحدة حرس المناوبة، وأتباع إينال يتوسدون أرض الساحة الباردة، لم يُمنحوا أي طعام أو شربة ماء، فقط يكال لهم الضرب بقسوة كلما حاول أحدهم طلب شيء، مكبلين يتعرضون للسخرية

والاستهزاء من فرسان الماجوني الذين يرسلون في طلب واحد تلو الآخر للاستجواب أو ربما الموت، فكل من ذهب مع جلادي بني الأزرق لم يعد، أما نبيهم فلا يعرفون أين هو منذ أن أخرجوه من خيمة الأمير، مضوا به إلى المجهول.

بين الأجساد المكومة كان جبران، مؤمن مثل من حوله بقدرة النبي إينال، اهتدى إلى الحق على يديه، وبينما الإيمان يزيد وينقص في قلوب الرجال الممددين في العراء، لم يتقلب فؤاده، لا يظن إلا خيرًا ولا يستبشر إلا نصرًا، لقد رأى من معجزات صاحبه الكثير، وعلى الرغم من الأغلال والقيود يثق بأنهم سينتصرون، سيمنحهم خالقهم هبة تنجيهم من التنكيل والموت سدى. اقشعر بدنه ببرودة سرت في أوصاله وصوت إينال الرخيم يتكرر في مضارب سمعه:

- العدل واجب، والملك زائل، والإنسان فانٍ، والمجيد باقٍ
ببهاء ضيائه.

جبران بن حاتم الأزادي، قبل سنتين كان قائم مقام مدينة السدين، سيدًا ذا نسل نبيل يتشابك أجداده مع سلالة بني شمس، أسلافه هم بناء تلك المدينة وأول من وضعوا أساس السد الغربي أو السد الأول كما يعرفه الناس، وورث رتبته ومقامه الرفيع عن عائلته المبجلة. رجل يحبه العامة والخاصة، كيف لا وهو قائم مقام الشرطة في المدينة العتيقة،

التي لطالما كانت رائقة هادئة في عهده، لا جرائم إلا ما يرتكب خفية في الميناء وحانات الرهان، ولا حوادث إلا سقوط حمار في بئر ماء أو مركب صغير يحشر في أسنان السد. لم يعكر صفو جريان نهر التاج إلا ظهور ذلك النبي، حين شاعت حكايته أمر رجاله بالتحقيق في الأمر، وكثيرًا ما كانت رسائلهم وتقاريرهم تسخر من إينال عامل السد الضعيف، ذلك المخبول الذي التف حوله الكثير من العبيد والشباب، الأمر لم يكن يقلق كما ادعوا، حتى وصلت دعوة ذلك المدعو إينال إلى داخل منزل القائمقام، ابنته الكبرى مخمرية راحت تهذي فرحة بتلك الهرطقات، وما لبثت أن لوثت عقل أمها بهذا الدجل، لم يهدأ لرفيع المقام بال حيال ما يحدث في أ زاد وبيته.

نزل إلى السوق متخفيًا ليجمع ما يستطيع من أخبار المهرطق، وعجل القدر بلقائهما، كان إينال كحبة طحين تحاول الهروب من الرحي، في البداية هاجمه مشرد يُدعى سياس بن الأهتم، ضربه على رأسه بعصا غليظة، لم يكن أحد يدري السبب، وبدلاً من أن ينشب عراك بين المهرطق والمشرد، وقف الأول ليلقي بركته وشعوذاته على ضاربه ذي الهيئة الرثة، وكانت تلك القشة التي بسببها تلقى النبي الضربات واللكمات، وسط تهليل العامة كبارًا وصغارًا، يقذفونه بالحجارة والخضراوات الفاسدة، يبصقون في

وجهه، يجذب الصبية طرف ثوبه وسط ضحكات النبلاء
وحكمدار بني الأزرق، لم يجد جبران بدءًا من دفع الناس
عنه، فعل مفاجئ جعل الغضب يتطاير من المقل الجاحظة،
سقط غطاء الرأس وانكشف وجهه، توقف الضجيج ولاحقت
النبيل نظرات لائمة مستنكرة، المروءة حتمت عليه أن ينقذ
المغلوب على أمره، حتى إن كان عدوًّا، ولكنه لم يكن كذلك،
لم يبدُ على ملامح إينال الشر، ولم يكن مجذوبًا كما نعتوه،
وعلى الرغم من كل ما حيق به كان الرجل هادئ الطلة طيب
المحيا، أمسك جبران بكتفيه وصاح في الناس:

- كيف تجرؤون على ضرب رجل واحد بهذه القسوة؟
سأعاقبكم جميعًا بحق الجاباسكي.

صيحته أوجمتهم، جمدتهم، لم يقوَ أحد على قول كلمة
واحدة، المجدف الأصلع ذو الشارب الكثيف صار تحت
حماية أقوى رجل في أزد. مشى به جبران بين الجموع،
اندفعا خارج دائرة الأجساد والوجوه الغاضبة، بينما راح
الجند يفسحون الطريق لقائدهم الذي ظهر بغتة بين الناس
يتأبط ذراع إينال المنهك. وفي زاوية من الطريق وقف
الرجلان وسط الجند وانضم إليهما ثلة من أتباع الرجل
والفضوليين، مسح جبران بطرف عباةته الدم عن وجه إينال
الذي ابتسم على الرغم مما يعانيه وقال:

- جبران بن حاتم الأزادي، الخالق رأى صنيعك، وسيرد لك مقداره خلودًا ونعيمًا، جُزيت الخير لتضحيتك، شكرًا لك.

كان هذا أول لقاء بينهما، لم يعرفه من قبل ولم يجمعهما طريق واحد عبر حياتهما، اكتفى جبران بإيماءة على الرغم من عدم فهمه لقول الرجل، ربما يهذي من قسوة ما حاق به، قضى معه النهار بكامله، أراد أن يسمع منه بعدما سمع عنه، اندهش من عفوه عن ضاربه، وظن أن إينال مجرد متصوف بائس، وفي نهاية النهار كانت نفسه تحدثه أنه أمام رجل سيغير مجرى التاريخ على أرض أزد وجزيرة تلال الشمس، كما بدل حال المجذوب سياس بن الأهتم ورفع عنه الجنون.

تلك كانت بدايته ليصير عونًا للنبي، أعجب بالرجل وحديثه وتعددت لقاءاتهما، ولكن ما غير كل شيء كان تلك الليلة التي كاد الموت يخطف زوجته، ولولا وجود إينال لرحلت جميلته بلا رجعة. عقرب نهريّة تسلت إلى مجلسها في الحديقة ولدغتها، ويشاء الخالق أن النبي كان في منزلهم، وبلمسة من يده اختفى أثر اللدغة وزال السم من جسدها بمباركته، بل الأدهى أن نادى العقرب فجاءت إليهم مسرعة، ولدغت نفسها أمام أعينهم امتثالًا لأمر النبي.

آمن به جبران يقينًا وامتثالًا، فما كان من إينال إلا أن اختاره حكيماً مقربًا، صار جبران جزءًا من عقيدة الخالق،

واحدًا من سبعة أشخاص اختارهم القدير ليكونوا عونًا
لمرشدته ورسوله إينال بن أنو، إنهم من يرعون الفضيلة
وينصرون النبي، أقسموا برباط الدم إنهم من الأرض خلقوا
وإليها سيعودون بعدما يكملون الدين ويرث عرش الأرض
المجتبى، هكذا يؤمنون. النبي وحكماؤه ليسوا إلا طليعة
وتمهيدًا للخير الذي سيسود الأرض بعد أن تطهر من رجس
الأوثان والشرائع الضالة، يؤمنون أن جميعهم يسرون وفق
خطة المجيد التي قدرها لمتعبديه ومحبيه والطامحين
لفردوسه، وقبل سنة وفي عيد العرش اكتمل نصاب الحكماء،
وصارت الدعوة إلى ضياء الخالق معلنة، دخلت بيوت أزد
وحوانيتها، وطافت في الشوارع جمهرة المؤمنين يدعون
ويتضرعون، لم تكن هناك طقوس خاصة لتنصيبه حكميًا
ولكن إينال باركه بالصلوات، جرح باطن كف جبران وكذلك
فعل بكفه، ثم تصافحا وتعاهدا وألقى الرجل قسمه: «أحمل
الأمانة إلى أن أموت أو يرى المجيد صنعي». كان ذلك قبل
أن يأتي جيش بني الأزرق، ما زال جبران يحفظ الكلام الندي
المعسول الذي يدفع القلب ويزكي الروح، يصبره على ما
سيأتي ويخبره بدوره حين تسقط المدينة في أيدي جيش
السلطان.

انصاع القائمقام لخطة نبيه، وشعر بتغلغل الإيمان في
كيانه، ترك المناصب وملذات الدنيا ليجد نفسه ملازمًا للرجل

ليسمع منه ما يُوحى إليه، منحه حماية ليدعو بما يؤمن سرًا في البداية، وأجاب النبي عن كل الأسئلة التي فاض بها عقله، وكان من قبل قد أهمل نذوره وقرابينه للعقاب الكبير. راح يعلم الناس قيم العدل والحرية وتبجيل الخالق الحق، من صنع هذه الدنيا وفصل بين السماوات والأرض، القادر الذي خلقهم جميعًا، من يبعثهم بعد الموت ليخلدوا أبدًا بجواره أحق بالاتباع من أوثان وشرائع وضعية من صنع البشر. كان من العسير تقبل البعض لتلك الدعوة الغربية، لأجيال وقرون بعيدة كان الناس يتفاخر كل منهم بخلقه؛ بنو الأزرق المغترون بنيانهم القوي وأسطورة خلقهم من صخر جبل هبط من السماء بفعل قدير ينقل روحه إلى أجساد نسلهم الملكي، من الجد الضارب البعد في التاريخ، أوردو الأزرق أول البشر الذي كان قبره في مكان يُدعى «المرقد»، قبل أن يأتي جاد ذو العين الزرقاء وينقله إلى سفح الجبل الأزرق. لطالما عاش جبران يؤدي الطقوس بل ويحفظ نصوص الجاباسكي عن ظهر قلب، ولكن ضياء الخالق المجيد غمر قلبه ليزيح سواد الوثنية وتبجيل وتأليه موتى لم يعد لهم في الوجود سوى بضعة تماثيل، ترك جبران مهامه كقائم مقام لشرطة أزد وتخلّى عن عبادة بني الأزرق وسيفهم في سبيل الإيمان، وصار أحد قادة ثورة الضياء على ظلام غازي وشريعة أجداده الغابرين.

قضى جبران سنة من السرية وأخرى في ضياء دعوة العلى، وصار دىن إىنال محور أءادىث النبلاء والعامءة، واءءدمء النقاشات وصار الجءال قءالاً بىن الأسر والأبناء، واءءفى النبى ءىن صار مءلوباً ءىاً أو مىئاً من قبل ءكمءار أزاء، أىاماً ءبءء عنه ءورىاء الجنء، ءفءش المنازل والأرءاء بءئاً عنه وعن ءكماءه، ءءى ءاء الیوم الموعوء واءءرق قصر أزاء بفعل معءزة إىنال، إىشارة واءءة من یءه واءءءءء النىران فى القباب والأبواب، وعلى الرءم من السعیر لم ءصب أى روء بأذى، ءءى زهور وأشءار ءءىقة قصر الءكمءارىة لم ءلفءها النار، رآها ءبران وعاین ءءلى العظمة فى قلب أزاء، وءانء ءلك إىشارة ءورة الضیاء، انبءق المؤمنون من كل ءءب وصبوب نءو ساءاء المءىنة، فما كان من الءامیة وءنء السلطان إلا أن هربوا ءلف الءكمءار الءائف.

سقطء أزاء فى أىءى المؤمنین، ولم یبق لبنى الأزرق فى المءىنة رایة أو نصب، ءاءر النبلاء أزاء هرباً من ءءیم المهرءقین ونبىهم المزعوم، ولكن إىنال لم یسلب ءاراً أو ینهب ماءوراً، لم یسءول رءاله على سفن البضائع الراسیة فى المیناء، ولم ینظموا أمور المءىنة ءى یرعاها الءالء، فقط بایعوه وانضم إىهم ءءء ءفیر ممن أراد الءیاء ءوفاً وءمءاً، وصار الأمر والناهى فى أزاء هو النبى إىنال بن أنو،

ساد العدل واستوت كفتا الميزان وحلت البركة، لم يعد أحد من التجار والبحارة يبخس الناس حقوقهم، وصار العبيد بلا أسياد، أما حكماؤه السبعة فكانوا يسيرون كل شيء من دون أن يعرفهم أحد، صاروا رمزًا لسلطته وقدرته، واتخذ النبي راية سوداء تتوسطها نجمة بيضاء سباعية رمزًا لدينهم وجماعته، ووقع على عاتق جبران حينها مهمة تنظيم أمور الحياة في المدينة، ولخبرته السابقة التي استعادها في ظل النبي تأكد للبعض مكانته كأحد الحكماء، أداروا مقاليد الحياة أفضل مما كانت عليه من قبل، ولكن بني الأزرق قادمون لا محالة، وهذا ما قاله إينال، عليهم مواجهة جيش السلطان بالعقل لا بالسيف، وأن غاية رسالته هي دخول الضياء إلى قلوب الناس كافة، فإن آمن غازي آمن بنو الأزرق، وإن لم ينصع فنوا.

ولكن السلطان لم يأت، كان مشغولًا بمحاربة عصابة الذئب في بحر الرمال وكفر البردقوش، وقائد جيشه العظيم قاسم أصلان في طريقه إلى مملكة الساحل لفرض نفوذهم عليها، وما كان اختيار ذلك التوقيت للثورة في أزداد إلا ترتيبًا وتقديرًا من الخالق، ولكن ما جعل الناس من حول جبران ترتعد وتخشى بطش بني الأزرق، هو أنهم لم يجدوا الكثير ممن يعرفونهم بجانبهم حين سيقوا للأسر. وبينما كان عدد المؤمنين غفيرًا قبل أيام كان عدد الأسرى أقل بكثير، وجوه

عدة لم يعد لها أثر، اختفوا من دون أن يعلم أحد أين ذهبوا، يقول البعض إنهم خرجوا هاربين في الليالي المعتمة قبل ولادة الهلال، كانوا يعلمون بقدوم بني الأزرق فهربوا. ولكن إينال أخبرهم أن رفاقهم ومعظم أهالي أزاز في أمان، وأنهم ما رحلوا إلا تنفيذًا لرغبة الخالق، وأن حكماءه سيدبرون الأمر بكل عناية، وبقي السؤال الذي يؤرق جبران حاضرًا طوال تلك الليلة، هل هناك أحد غيره من الحكماء بين الأسرى أم أنهم رحلوا جميعًا؟

مرت ثلاثة أيام منذ ألقى به في تلك الزنزانة الخائقة، بالكاد يدخلها الهواء من نافذة ذات عوارض حديدية متقاربة، هي مصدر الضوء الوحيد في تلك العتمة. قيوده الثقيلة خدرت يديه، لا يستطيع رفع ساعديه وقد نال منه الألم والإنهاك، يتصبب عرقًا ويفقد الكثير من ماء جسده، الإعياء صار رفيقه الدائم، لا يقاوم النوم ولا يدرك كم بقي مستيقظًا، يناجي إلهه ويتحدث إليه، حوار كان هو المتكلم الوحيد فيه، لم ينتظر إجابات بل كان موقنًا بها، فكل شيء يحدث لسبب. وما فعل شيئًا إلا بأمره ووحيه، خروج وهجرة المؤمنين من أزاز كانت واجبة قبل قدوم جيش بني الأزرق، حكماءه سينفذون كل ما قيل لهم، سيرعاهم الخالق ويرشدهم إلى

ضياؤه وفردوسه المرجو، فهو الذي اختارهم ليكونوا عونًا له، سيحصلون على ما أرسلوا للبحث عنه وسينجحون في ذلك، يثق بهم وبما يستطيعون فعله، أما هو فقد خاب أمله حين علم بأن السلطان لم يأت، ولعل هذا خير ولحكمة لا يدركها هو.

جاءًا عطشًا يأسى لما حاق به وبرجاله المكبلين في الساحة، لعلهم يستجوبونهم الآن ويذيقونهم صنوف العذاب، تذكر كيف خاض رحلة لعدة أشهر عبر الجبال والسهول ليصل إلى كهف الذاكرة، حيث التقى هناك وسيط المجيد، ذلك الهرم الأعمى الذي عاش سنوات طويلة داخل عتمة العمى وجوف الكهف، لم يقف عند عجائبه نجاة ذلك الرجل، وهو الذي رأى من معجزات الخالق الكثير، بقي معه عدة أشهر، وتلقى على يديه التعاليم وعلمه فحوى نقوش القدماء، وتحدث إليه الخالق من خلال وسيطه، ما زال صوته ونصوصه يتكرران في ذهنه، ترانيم الإيمان والعدل والفضائل السامية والنفوس الراقية، كل هذا نقله لأتباعه حين عاد لأزاد، ولكن لماذا لا يحدثه الآن؟ لماذا لا يعاونه ويخسف بأولئك الجند وأميرهم الغر الصغير الأرض، آخر ما أوحى إليه أن الطوفان سيأتي حين تتفجر الدماء من المقل، سيفرق جيش بني الأزرق وقادته الدمويون الذين لا يأبهون إلا لأنفسهم، ولكن نهاية الظلم وشيكة وإن طال الأمد في

الظلمة، هكذا وعده الخالق المجيد.

طأطأ رأسه والعرق يقطر من جبهته، زوجته وولده آمان في مكان ما، وكذلك كل حكمائه، إلا اثنين ما زالا معه داخل أسوار أزد، ثرى ما حاق بالحكيم المضحي جبران؟ وكيف تسير أمور حكيم الدم سياس بن الأهتم! أغمض عينيه مستسلماً لظلمة القبو وضربت عقله ومضة من خراب وموت، نيران مشتعلة ورماح تعلوها رؤوس ورايات مختلفة ألوانها، عقاب بني الأزرق كان يحلق في السماء، ثلوج تتساقط فوق مرتفعات الصقور، وكوخ صغير على مشارف غابة بلوط ينفث دخاناً خفيفاً، قطعان الأيائل ترعى في صمت، والكثير من الطيور المهاجرة فوق صحراء شاسعة حارة، وذئب ذو فراء ذهبي يقضم رقبة محارب لم يتبين ملامحه، وفوق عرش من عظام وجماجم كان غازي ضاحكاً يرفع كأساً مملوءة دمًا ليرتشف منها، وعين الشمس تفجرت ويخرج منها ما نذره المجيد لأتباعه، مهد الخالق وسر الخلود الذي لا فناء بعده.

أفاق والضياء يغشى عينيه ويفترش جدران الزنزانة الضيقة، على بابها كان الشاب ذو الدرع الحربية، وقع خطواته الرتيبة مثل دقات قلبه الهادئ الواثق، بدا أن الأمير كمخلص له، والنور يأتي من خلفه ليغشى ظهره، أما ظاهره

فكان متشجًا بالظلال وقليل من ضوء نافذة الجدار خلف
إينال، حدّق كل منهما في عين الآخر، جفل من جمود الأمير،
لا يدري لمّ راوده ذلك الشعور، بدت ملامحه باردة وعيناه
الزرقاوان صافيتين حد العمق، أفاق النبي على صوت جاد
المشحوذ:

- أتعجب من قدرتك على التحمل، ولا أعلم ما الذي يجبرك
على كل هذا!

ابتسم ذو الشارب الكث قبل أن يحرك رأسه لتنعّم صلّته
بنور النهار المنبثق من وراء الأمير:

- النور ينفذ عبر الظلام، وضيء الخالق ينقي القلوب مما
سواه.

- ها أنت تعود مرة أخرى للأحجيات والكلمات غير
المفهومة.

- لا شيء عصي على الفهم إن حاولنا تفسيره.

- التفسيرات كثيرة، وكل منا له تأويل خاص بما يؤمن به،
أليس كذلك سيد إينال؟ أخبرني ماذا ترجو من وراء كل ما
فعلته؟

- لقاء السلطان.

جملة موجزة صريحة، لا تحتاج إلى تأويلات، هذا ما أراده إينال حقًا، إنه صادق فيما قال، أجم جاد لبرهة قبل أن يستدرك ببرود:

- وهل يستحق لقاء السلطان كل هذه الجلبة وما فعلتموه من تمرد؟ لا تراوغني لكسب المزيد من الوقت لصالح ما تفعل، أعلم أنك تدبر شيئًا لنا.

- لو أردت مقارعتكم لعجزتم عن دخول أزيد كما دخلتموها، ولما كان بيننا هذا الحوار الآن.

- لهذا أخرجت الكثير من أتباعك وأسرتك من المدينة قبل قدومنا؟ دعني أقول لك شيئًا ربما غفلت عنه، إن الإنسان قد يكفر بما يؤمن مهما بلغت درجة إيمانه، وإن هناك من تحدث وأخبرنا قسرًا أو خوفًا ورغبة في الحياة.

- ها أنتم تُظهرون معدنكم وتعذبون الأبرياء، لتستخلصوا منهم ما تريدون.

- ربما هم أبرياء في نظرك، لكنكم مخربون متمردون، وفوق كل هذا مهرطقون تفسدون على الناس دنياهم ودينهم.

- أي دين أيها الأمير، إن بني الأزرق لا يقصدون سوى موتاهم من الملوك وكتابهم وتشريعهم الذي يبيح لهم فعل كل شيء دونًا عن غيرهم، تسخرون الناس وتستعبدونهم في

منجم عين الشمس، تجبرونهم على العمل وبناء القلاع في الجبال البعيدة وتبيعون فتيات الجنوب لأمرائكم، تفرضون الضرائب وتجبون الأموال من أجل غرائزكم التي تسوقكم وتحرم علينا ما تفعلونه.

هز جاد رأسه مبتسمًا، كان يعلم أن الرجل يريد استفزازه وإثارة غضبه، فقرر أن يأخذه بعيدًا عن العصبية بسؤال جديد:

- سيد إينال، يقولون إنك خدمت لفترة من الزمن في عين الشمس، ما كان عملك هناك؟

- قضيت سنوات للعمل منتدبًا غصبًا، كنت أصلح الرافعات الخشبية وأشرف على بناء روافع جديدة، بدلًا من تلك التي التهمتها الحرائق، كان ذلك من أكثر من سنتين قبل الآن.

- وكيف وجدت الأمر هناك؟

- جحيم يعج بالمستعبدين من أجل الحصول على ثرواتكم وكنوزكم، رأيت هناك الأسرى والعبيد ومن خطفوا وبيعوا للعمل هناك، أناس كانت لهم أحلام وحياة سلبت منهم ليموتوا ببطء تحت حرارة الشمس الحارقة، والأبخرة السامة وسعيد الحظ منهم من يحصل على موتة سريعة تحت المعادن المصهورة، إن عين الشمس سجن كبير يحوي آلاف

المستضعفين المجبرين على السخرة، لا رأي لهم ولا أمل في الخروج، رأيت من يولدون هناك أيها الأمير؟ أتعلم عدد الموتى من النساء والصغار وكم العذاب الذي يذيقه رجالكم للضعفاء؟ ما هكذا عامل بنو شمس الناس حين حكموا، لقد منحوا للناس الحق في اختيار أعمالهم والتنقيب في عين الشمس كما يحلو لهم، فقط كانوا يكتفون بالحراسة والوزن وإدارة الأمور.

- ولكننا لم نضطهد أحدًا، الجميع لهم حرية ما يعتقدون، ومن هم هناك مجرمون حكم عليهم بقضاء مدة سجنهم في العمل هناك.

بنبرة هادئة رصينة يشوبها الحزن أجاب إينال:

- ليس هناك سوى الموت، وقد صدقت أيها الأمير، نعم لهم ما يعتقدون ولكم ما تفعلون. هكذا تجري الأمور، لا تجبرونهم على الانحناء لتماثيل وأصنام أجدادكم ولكنكم في المقابل تستعبدونهم بموجب تشريع الجاباسكي.

اقترب جاد خطوة للأمام وجال بعينه في وجه أسيره:

- ألم تقسم على ذلك الكتاب يومًا حين أوكلت لك مهام العمل في السد؟

- كذلك فعل والدك قاتل الأيّل المصاب.

برقت عينا إينال، وصعق جاد مما سمع، ارتجف جسده داخل درعه المعدنية بفعل برودة كلمات الرجل، وكأن المكان حولهما تبدل، ندف الثلج تتساقط والظلام يسود المكان خارج الكوخ، الأيّل ينظر بعين حزينّة إلى والده الواقف أمامه حائرًا، ينفث البخار وبيده السكين، دماء لوّثت الثلوج البيضاء، والنصل يسلخ فخذ ذكر الأيّل المذبوح، عيناه السوداوان الخاويتان من الحياة تعكسان صورة الأب المنهمك في قطع اللحم وفصله عن العظم، هذا ما حدث ولكن إينال لم يكن هناك، كيف علم بهذا الأمر؟ تردد السؤال داخله وجاءت إجابة الرجل بصوته الرخيم المخيف:

- انتهكتما الجاباسكي فكان جزاؤك أن قربت من السلطان، فلماذا تنكر عليّ ما أفعل؟

- من أنت بحق ذي العين الزرقاء؟

- هذا السؤال يجب أن تسأله لنفسك يا أمير مرتفعات الصقور، أنت ذلك الفتى التائه في ذكرى موت أمه وأخته، أما زلت تلوم أباك على ما اقترفه في حقهما؟ كان اسمها جولين، أليس كذلك؟ يبدو أنك نسيتها يا راعي الأيائل، أم عليّ أن أناديك أمير مرتفعات الصقور، المنعم بدفء السلطان وشمس الجنوب الساطعة؟

- اخرس أيها المهرطق.

- لست بمهرطق ولا مشعوز كما تدعون، أنا إينال بن أنو وتلك مدينتي، أما أنت فمجرد راعٍ منحه المجيد فرصة ليبدل ناموس الدنيا، جاء بك عبر الجبال والثلوج إلى جدران المدينة الزرقاء لتنعم بحياة هائلة وفق مشيئته ولم يكن سلطانك القاتل سوى سبب لأن تأتي إلى هنا.

خمس سنوات مرت بخاطر جاد، رؤيته للزرقاء في الأفق واقترابه منها على سهوة موكب السلطان وصحبه، جان الصقار قال له حينها مشيرًا إلى العقاب المحلق على مسافة قريبة من رؤوسهم:

- لن يحظى أحد في مملكة بني الأزرق بما ستحصل عليه يا فتى.

كان سعيدًا وراجي صائد الذئب يبتسم أخيرًا، لم يكن يدري حينها أكانت تلك البسمة لعودتهم إلى ديارهم أم لأنهم حظوا بوقت ممتع أم أنها ترحيب به لبداية دنيا وعالم جديد. أما الفارس المتجهم سليمان ناب فقد حدثه بصرامة:

- كن عند حسن ظننا بك يا جاد الصغير.

رافقه إينال داخل ذكراه، منذ اللحظة التي عبر فيها بوابات عش العقاب، محل إقامة السلطان، صار اسمه «جاد الصغير»،

يعده الكثيرون ابنًا مُتبنيًّا للسلطان غازي الذي أولاه عناية ورعاية وتعليمًا مكثفًا وكأنه يعده لشيء ما. نضج كثيرًا وتعلم فنون إدارة المعارك والحرب على يد القائد الفذ المبجل قاسم أصلان، واعتنى راجي صائد الذئاب به ودربه على المبارزة والقتال ورافقه في رحلات الصيد، كان مجرد صبي يبتهجون بوجوده بينهم، وكانت الأكثر سعادة هي صاحبة القصر وسيدة بني الأزرق شمس شמוש الدنيا السلطانة نوران، تلك الجميلة الهادئة صاحبة الصوت العذب. صوت داخله حدثه: «تذكرها، أليس كذلك يا جاد؟ تفتقد دفء حضنها وعبير عطرها، زوجة السلطان التي اتخذتك ابنًا، منحتك المرأة الكثير أيها الصغير، رأيت فيها الجمال والكمال من بني جنسها، قصصها عن موطنها في جزيرة الكستناء ما زالت تسكن وجدانك، وبهو طيورها المغردة الفريدة كان ملاذك حين يجتاحك التفكير. ولكنك لم تكن سوى فرخ طير بالنسبة لهم جميعًا، عاملوكم كما يعامل الصقار طيره ذا الزغب، كبرت كما يشاءون ودرّبت كما أرادوا، صنعوك لتكون حارسهم وجلادهم، ولم تكن يومًا واحدًا منهم أيها الصغير، مثلك كمثل العقاب الذهبي الذي يحمله جان نيابة عن السلطان، وما إن ينتهي دورك فلا أسف عليك».

انتفض الشاب ليخرج من الذكرى، عينا إينال لا تزالان تبرقان محمقتين إليه وهو يقول:

- ما بك أيها الأمير، أليس هذا ما حدث حقاً؟

- بالتأكيد وشى إليك أحدهم بهذه الأمور، جواسيسك سيقعون في قبضتنا لينالوا عقابهم، لن يفلت أحد منا.

- واهم أنت يا فتى، أعني أن الأمر أكبر من قدرتك على التخيل والتفكير، ربما نسيت أن الفرسان الثلاثة أقسموا أمام السلطان على عدم ذكر أصلك، ونسبت إلى سلالة بني جاد ذي العين الزرقاء التي لم يبق منها ذكور سوى غازي وحده، أتخشى أن يعلم الناس أن أباك خالف قسم الجاباسكي وقتل وأطعم السلطان مما سرقه؟

توتر جاد وصارت كلماته ثقيلة:

- لم يسرق أبي أيها المهرطق، لقد فعل الصواب.

صوت إينال العميق كان يسري في وجدان جاد وهو يحدثه:

- نعم، وأنا كذلك فعلت الصواب واتبعت ضياء الخالق وتخلصت من كل آثامي. ولكني لست مثلك، لم أترك أحداً يعاني باختياري، كما فعلت أنت مع والدك عندما تركته في الجبال القاسية ورحلت عنه. أين كان قلبك وأنت تمضي دون أن تلتفت لتودعه؟

- احرص.

- استبدلته بقيادة جيش لا يعرفون الرحمة، يفرحون بالدماء ويتباهون بعدد قتلاهم، ولكن ما مصيرهم؟ راجي الذي ذبح كالنعجة في بحر الرمال، وسليمان ناب الذي نهشته المخالب والأنياب، وقاسم أصلان الذي...

رددت الجدران صوت الصفعة، أحرصه بها جاد قبل أن يمسك به بكل قسوة من رقبتة خانقًا إياه:

- إياك أن تلفظ تلك الترهات مرة أخرى أيها المشعود، لم يصبهم سوء كما تدعي أو تتمنى.

أجاب إينال بصوت متحشرج:

- ألم يُقتل راجي حقًا منذ عدة أشهر في بحر الرمال؟

قاطعه جاد بغلظة وعصبية وهو يضغط على رقبتة أكثر:

- سأقتلك إن نطقت، أنت نكرة، لن يفقد العالم شيئًا إن فصلت حلقك عن رقبتك الآن، إن كنت تتباهى بقدرة جواسيسك على معرفة أسرار السلطنة فأنت واهم، وإن كنت تحسب أنك في معزل عن العقاب بفعل تهريبك لأهلك ومن تدعوهم حكماءك السبعة فأنت غبي.

أفلته جاد ولم ينزل نظره عنه وهو يتابع:

- سيتابع الماجوني استجوابه وتعذيبه لرجال ونساء أزد، ولنر مدى تحملك وغيرتك أيها الأثاني، كيف لك أن تختار الصمت والإصرار على مخططك بينما قومك يعذبون وينكل بهم؟

أغمض إينال عينيه:

- سيحظى الضعفاء بالمجد والسعادة والخلود بما صبروا، والخزي نصيب الجبناء.

- حسناً، يبدو أنك اخترت، وحتى يحل هذا اليوم حاول أن ترجو من ربك الغفران لمن سيموتون ويعذبون بسببك.

تركه جاد واتجه ليخرج من الزنزانة، فجاءه صوت إينال الرخيم ليوقفه:

- أيها الأمير، حتى يأتي ذلك اليوم اختر جانبك فلم يتبق سوى القليل، سيسود الغيم قريباً، ولن تتحمل المطر يا جندي مملكة النمل المتهالكة.

لم يجبه جاد، غادر وأغلق الحرس الباب فور خروجه. مضى جاد يجر وراءه جبال خوف، الرجل يعرف الكثير من التفاصيل عن حياته وكأنه كان حاضراً في كل تلك المواقف، حاول أن ينفذ عن عقله كل تلك الأمور عن جواسيس الرجل في بلاط السلطان، إنه مجرد مشعوذ بالتأكيد، ساحر

يقرأ النجوم ويسلك دروب الشياطين، نعم هو كذلك.

كان جاد في طريقه إلى مخدعه حين قابل المبجل قيذار،
تصافحا والكهل يسأله:

- ما بك؟ تلك المرة الأولى التي أرى فيه تجهمك هذا.

تجاوزه جاد وراح يراقب من تبقى من الأسرى في الساحة:

- لا شيء، أريد إنهاء تلك المهمة واللحاق بجيش المبجل
قاسم أصلان كما أمرنا السلطان، هل هناك جديد لدى الأسرى
من أتباع ذلك المهرطق؟

زم القائد قيذار شفتيه وجاء ليقف بجوار أميره الشاب
محدثًا إياه:

- معظمهم لا يعرفون شيئًا، تفنن ساري الماجوني في
ترهيبهم بلا جدوى، يقولون إنهم أصبحوا ولم يجدوا عائلات
بأكملها من المؤمنين في المدينة، اختفوا وتبخروا بلا أدنى
أثر، منازلهم خاوية ولم يأخذوا شيئًا معهم.

- والحكماء السبعة؟

- لا أثر لهم ولا يعرفهم أحد، حتى النبلاء والحكماء
يشككون في وجودهم. ربما اختلقهم هذا الرجل ليجعلنا
ندور حول أنفسنا.

بدا القلق على قسّمات جاد:

- هل عادت جياّد البرق ممن كلفتهم باقتفاء الآثار حول المدينة؟

- ما زلنا في انتظارهم. سيدي، هناك شيء يشغل عقلك.

بدا وجه جاد باهتًا وقد خلا من الدماء، حاول ألا يبدو خائفًا ولكن كلماته حملت رجفة تسربت إلى قلب المبجل قيّدار وهو ينصت للأمير القائل:

- إن ذلك المهرطق يعلم بأمر موت الأمير راجي.

قال قيّدار:

- الجميع يعلم ما حدث في بحر الرمال مع عصابة الذئب...

قاطعه جاد ليكمل:

- لقد تحدث عن مقتل أمير الجبل الأزرق سليمان ناب، قال إن الأنياب والمخالب مزقته.

جحظت مقلتا قيّدار وساد الصمت إلا من حثيث تلاعب الريح بالأغصان القريبة من الشرفة قبل أن يتابع جاد:

- لم أتحمّل سماع قوله عن قاسم أصلان، ذلك الوغد قال إنه يريد مقابلة السلطان، وربما كان ينتظر قدومه ليغتاله.

- جاد، دعنا نقتله وننهي الأمر.

- أرى أن نرسله ذليلاً تحت حراسة مشددة إلى السلطان لينظر في أمره، وحده بلا رجاله أو أي فرد من أتباعه.

- أخشى أن يكون هذا من تدبيره.

عقد جاد حاجبيه وهو يدور في أرجاء المكان ببصره:

- سنباغتهم ونفشل ما يدبرون، فهو متحير الآن ولا يعرف خطوتنا التالية، يظن أننا سنظل نبحث عن أتباعه ونستجوب من تحت أيدينا منهم وننشغل بأمرهم عنه. ولكن دعنا نفاجئه بما سنصنع فيه، ولنر ما يستطيعون فعله وما يضمرون.

أخذ جاد يقص على مسامع قي دار خطته، قلب المبجل ابتهج وعيناه تغدقان على الأمير الشاب الإعجاب، نضج تلميذ قاسم أصلان حقًا، شرب من كأس الحنكة والدهاء ذاتها التي ارتوى منها القائد العظيم.

مع غروب اليوم الثالث اقتاد الحرس جبران إلى قبو الاستجواب، سار معهم عبر الأروقة والممرات التي كان يسير فيها ذات يوم، ولكن الحال تبدل، قائمقام الأمس صار أسير اليوم. فتح باب القبو ودفعوا به إلى الداخل حيث

ينتظره رجل طويل القامة نحيل الجسد على الرغم من درعه الفاخرة، كان يوليه ظهره ونيران المشعل الوحيد تتوهج على الدرع البراقة، لم يلبث ساري الماجوني أن التفت وعلى وجهه ابتسامة مقبلة، في يمناه قنينة راح يرتشف منها، وما إن أبعدا عن فمه حتى راح يمسح لحيته السوداء من أثر القطرات المنسابة عليها، تطلع إليه جبران بجمود وبرود لم يرق للماجوني الذي اقترب منه بضع خطوات وحدثه ساخرًا:

- تساءلت كثيرًا ما الذي يدفع رفيع النسب ذا المقام النبيل لاعتناق تلك الأفكار الغريبة، ولكني لم أجد إجابة، لهذا تركتك لتكون آخر من يُستجوبون. سيد جبران بن حاتم الأزادي، لطالما كنت وفيًا مخلصًا للتاج والسلطان، مؤمنًا بنصوص وتشريعات الجاباسكي وتقوم بتنفيذها، أي جنون أصابك؟ أسقيت سحرًا يا رجل؟

- بل وجدت سبيل الرشاد.

دار الماجوني حوله متفحصًا إياه:

- أي رشاد هذا الذي يجعلك في هذه الهيئة، انظر إلى حالك وتلك الأسماك البالية التي ترتديها، أسعيد وهذه الأغلال تقيد يديك خلف ظهرك؟ أهذا ما كنت تبغي من بعد العزة، ذلة ومهانة؟ أهكذا يأمركم خالقكم؟

أجاب جبران بهدوء يسود ملامحه:

- يبدو أنك لا تعي ما نحن فيه أيها القائد، لقد اتبعنا ضياء الخالق، وأن ما قمنا به لم يكن سوى البداية.

- ها قد وجدت من يتحدث أخيرًا، كنت قد سئمت من تعذيب أناس لا يعلمون شيئًا، كانوا صادقين ولكنهم لم يتحملوا الألم على الرغم من ذلك، ولكنك لست مثلهم، ما زال في داخلك شيء من رفعة الماضي وأنفة العز.

- هل ستتلذذ بتعذيبي أيضًا؟

- لا، أيها الحكيم.

ارتبك جبران، حاول إخفاء توتره بابتسامة باهتة، فما كان من ساري الماجوني إلا أن اقترب منه ونظر إلى عينيه مستطرًا:

- بالنسبة لمدعي النبوة هذا، أنت شخص ذو قيمة لمكانتك السابقة وأموالك الطائلة، ربما السؤال الوحيد الذي شغل عقلي خلال محادثاتي مع رفاقك المهرطقين كان لماذا بقيتم في حين هرب الكثير منكم؟ أين عائلتك يا سيد جبران؟ هل أمنت عليهم المجهول؟ كيف هذا وأنت أدري الناس بالمهربين من تجار العبيد وصائدي الرؤوس عند مصب نهر التاج وخليج القراصنة؟ أتظن حقًا أنهم سيحظون بالأمان وأنا

لن نجدهم؟ ربما أنساك ذلك المشعوذ أن كل أرض جزيرة
تلال الشمس تخضع لسلطاننا المعظم غازي، وأن يده تطال
المخربين والمتمردين أينما كانوا. لا أنكر أن أمر الحكماء
السبعة أرق ليالي الماضي، ولكن هأنذا أمام أحدهم.

تعرق وجه جبران، وكلمات النبي تتردد في جنبات عقله:
«سيكون عليك تحمل الكثير يا جبران، اختارك الخالق لتكون
حكيمه الثالث، أنت المضحى من أجل العقيدة، لن يبلغ الأمر
تمامه حتى يسيل الدم من المقل وتبكي السماء لمصاب
المؤمنين، ستبقى معي داخل أزد ولن تغادرها حتى يشاء
القدير وتهطل رحماته علينا بينما يغرق أعداؤه خائفين». رد
جبران بخفوت:

- أقسم أن أحمل الأمانة إلى أن أموت أو يرى القدير
صنعي.

انتشله صوت ساري من ذكراه:

- سيد جبران، أتقول شيئاً؟ أرجو أن يكون لديك ما يكفي
من العقل لتخبرنا بأمر رفاقك ممن تدعونهم الحكماء السبعة.
ضحك الرجل فجأة، أخذ يقهقه، لم يفهم مستجوبه فعله،
سال الدمع من مقلتيه ولم يتوقف حتى أمسك ساري رأسه
بعنف، وأخذ يكتهم فم جبران الذي لم يتوقف حتى بعد

لكلمات سجانة الذي أخذ يكيّل الضربات لوجهه وبطنه صائحا فيه:

- كنت أعلم أن الجنون هو ما أصابكم، اللعنة عليكم جميعا. أتعرف يا جبران؟ سأجعلك تتمنى الموت، لن ينجيك مني سوى أن تنطق بأسماء الحكماء السبعة، وتخبرني إلى أين ذهب بقية رفاقك وأسرتك.

تحامل جبران على آلامه وصاح:

- ستفنون يا بني الأزرق، ستنهش الجوارح جيفكم النتنة بعد أن تلفظكم الأرض، لستم سوى وثنيين تنكرون فضل الخالق عليكم، لستم سوى موتى مؤجل النظر في أمرهم، الكبر خطيئتكم وستدفعون الثمن.

أخرسه ساري الماجوني بلكمة قوية وهو يصرخ فيه:

- الآن تنطق بالتهديد أيها الوغد؟

ختم كلماته بسيل من الضربات واللكمات القاسية، وبقي على هذه الحالة حتى طرق بابه أحد الجنود، ترك جبران يسقط أرضا مكومًا على نفسه وأذن للجندي بالدخول، بينما كان يحرك أصابع يديه من الألم الذي حاق بها من كثرة ضربه للرجل، بدل الجندي بصره بين الصريع وقائده قبل أن يقول:

- سيدي القائد، الأمير جاد يطلب حضورك.

- ألم يخبروك لماذا يريدني؟

- لا، فقط المبجل قي دار طلب أن أخبرك القدوم على وجه السرعة.

أوما ساري برأسه وأشار إلى الجندي بالرحيل، وما إن أغلق الباب حتى عاد إلى حيث جبران، انحنى متأملاً إياه وقد أطال النظر فيه:

- لا تحسب أننا انتهينا أيها الحقيير، سأعود إليك، ولتدع إلهك أن يرحمك مما سيحقيق بك حالما أعود.

بصق عليه وقام عنه مانحاً إياه ركلة قوية قبل أن يأخذ عباءته ليثبتها على كتفيه ويخرج.

ما إن أوصد الباب حتى بكى جبران كما لم يبك من قبل، انتحب للمرة الأولى في حياته، كان يعلم أن حياته على المحك وأنه لن يرى زوجته وأولاده وجميع أفراد عائلته مرة أخرى، ولكنه سيصبر لعل للقدير خططا أخرى. أخذ عقله وألقى به في تيه الذكرى إلى تلك الليلة التي اختير فيها حكيمًا، أخذ يتمتم:

- ما أنا إلا عبد مطيع لأمر الخالق، ما أنا إلا وضيع أراد أن

يتطهر من الآثام.

في داخله كان صوت إينال يسري: «سينجو أهلك وجميع المؤمنين بفضل تضحيتك».

سأل نبيه: «لماذا اختارني الخالق؟ لماذا عليّ أن أبقى بينما يرحل بقية الحكماء والناس؟».

أجابه إينال بصوته الرخيم: «لأنك من اخترته في البداية يا جبران بن حاتم، أنت من ضحيت بالجاه والمال والمقام الرفيع وزهدت في الدنيا. أنتم حكماء الخالق، من ستمنحون الحياة للبقية من مؤمنينا، كل منكم له دوره وخلق لغاية، وحين يأتي سلطان بني الأزرق مع جيشه سيدخل المدينة متبختراً منتصراً وما بيننا وبينه إلا الدماء. ما إن تراق حتى ينزل الخالق عقابه عليه وجنده، وحينها ستدرك معنى اختياره لك».

أعيد الأسرى جميعاً إلى الساحة إلا جبران والنبي، اغرورقت الأعين وجفت الألسنة، لم يصدقوا أنهم أحياء بعد كل التهديد والتعذيب، ها هم يرى بعضهم بعضاً مرة أخرى، الكل سواسية، من لم يتحمل العذاب ومن صبر، جميعهم تحدثوا بما يعرفون، إجابات لم تكن وافية لرجال ساري

الماجوني، ولكن الأخير كان قد أخذ عهدًا أمام الأمير جاد بأن يتلطف بالأسرى. لم يكن القادة على وفاق مع أميرهم الشاب، ما زالوا لا يثقون بقراراته، كانت أوامر السلطان حازمة: «اقضوا على الفتنة وأرسلوا إليّ رؤوس المتمردين»، ولكن جاد أعمل عقله، ربما لم يفهم قاداته فعله ولكن الشاب كان أكثرهم حرصًا على إنهاء الأمر بالشكل الذي يليق، فما زال أتباع ذلك النبي مختلفين، ولذلك أمر نورين البستاني بمداهمة البيوت والحوانيت ومستودعات المرفأ، كان على الأخير البحث عن كل ما يفيدهم في العثور على حكماء إينال السبعة، أو ينكشف أمر مخططه وخدعته، فالرجل يضمّر شيئًا. وهذا ما أكده الماجوني بعد أن أعياه استجواب أناس بالكاد ينطقون على الرغم من تعذيبه، أشار عليه قي دار وفق رأي الأمير أن يمنح الأسرى قليلًا من الرأفة، لذلك أعادهم مرة أخرى إلى حيث كانوا.

داخل خيمة القيادة جلس جاد على كرسيه بديع الصنع، وأمامه وقف قاداته، كلٌ يدلي بدلوه، والجميع وإن اختلفت طرقهم وخططهم كانوا يريدون اللحاق بجيش قاسم أصلان في الجنوب، لم يروا أي تهديد في ثلة من الأسرى، ثمة من يقول اقتلوهم، وآخر يريد استعبادهم في مدن بعيدة عن تلك الأرض، وبقي الجدل دائرًا محتدمًا حتى دلف نورين مبتسمًا إلى الخيمة، انحنى للأمير ثم قال مبتهجًا:

- سيدي، لقد وجدنا ما يسرك، كنت محققًا بدعوتك لتفتيش الدور والحوانيت الخاصة بهؤلاء المهرطقين. هدمنا الكثير من الجدران حتى إننا قمنا بحفر أراضي المنازل.

بدا على نورين الفخر وهو يتحدث مشيرًا إلى أحد الحرس على باب الخيمة، فما كان إلا أن دلف إلى المكان مجموعة من الجند يحملون صناديق خشبية صغيرة وبعض اللقائف من الورق والأقمشة السوداء، حملت الوجوه من حولهم أثرًا من دهشة وقفزت التساؤلات من الأعين، وضعت الأغراض المغبرة أسفل قدمي نورين الذي ابتسم محدثًا أميره:

- هذه الأغراض وجدناها في منزل سهيل الأزادي صهر جبران، ساعدنا بعض رجاله في إيجاد هذا الكنز، خلف جدار سري بداخل منزله الفخم قادنا باب مخفي عن الأنظار إلى قبو صغير حيث عثرنا على كل تلك الأشياء.

تدخل الماجوني وقاطع صاحبه بغلظة:

- سيد نورين، جميعنا يعرف أن سهيل الأزادي صهر جبران مات منذ عدة أشهر وهذا ما يقوله الجميع.

- نعم يا ساري، قالوا إنه انتحر ملقيًا نفسه من فوق السد الغربي، ولكن الحقيقة أن الرجل قُتل ضمن طقوس أقيمت فوق الجدار، يجزم كثير من الناس أن سهيل هذا لم يكن

ضمن هؤلاء المجدفين، على الرغم من كون زوجته مخمرية وأبيها أشد الناس إيمانًا بنبيهم، وأن الرجل كان قريبًا لإلههم المزعوم، وربما كان قتله بهذه الطريقة البشعة بسبب إخفائه تلك الأغراض.

بسط نورين أمام الحضور، راية سوداء ذات نجمة سباعية بيضاء، زخرفت حوافها برموز غريبة. وبينما الأعين تطالع ما بين يدي الرجل أخذ يستطرد:

- لا أحد يعلم سر ومعنى تلك الكتابة، أهي مجرد زخارف أم لغة لا نفهمها؟ ولكن ليست هذه هي المعضلة الوحيدة التي واجهتنا، تلك رايتهم ويبدو أنهم كانوا مستعدين لقدومنا، نزعوها قبل يوم من مجيئنا بعد أن كان زعيمهم يحكم المدينة لأكثر من شهرين، الناس ممن استجوبناهم يقولون إن إينال رفع نفسه إلى منصب حاكم أزد وسيدها وإن الكل امتثل لأمره، حتى من لم يؤمنوا به رضخوا لتلك الفئة المتمردة التي استطاعت فرض سيطرتها على مدينة السدين.

أعطى نورين الراية إلى قي دار الواقف بقربه وعاد إلى الصندوق الموضوع أرضًا، التقط منه بروية رقعة جلدية مهترئة عتيقة وفتحها أمام عيني الأمير:

- في هذه الرقعة المكتوبة باللغة الغربية ذاتها سبعة أسطر،

يمكنكم رؤية أن هناك كلمات ذات خط ثقيل وكأنها أسماء بينما الكلمات ذات الخطوط الرفيعة ربما وصف أو تكليف، ولكن ليس هذا الأعجب، بل تلك اللقافة من الورق.

التقطها ورفعها أمام أعينهم جميعًا، كانت رسمة غريبة كدائرة داخلها دوائر أصغر، والنقوش الغربية ذاتها تحيط بإطارها، صعد نورين الدرج إلى حيث كرسي الأمير، ناولها إياه وهو ينحني قائلاً:

- هذه ليست سوى تميمة، أو رسم لشيء موجود في الواقع، لا أعلم ماهيته، ولكنها بدت كدرع أو قلادة كبيرة، ربما مفتاح، لم نعثر عليه، ولكن سيدي إن نظرت في الزاوية الأعلى للرسم فستجد اسمًا صغيرًا كُتب بلغتنا لشخص يُدعى الحكيم نرغال، وهناك رسم لسلاح يشبه الرمح له نصل عجيب، كذلك تلك الأوراق بها خرائط لسرايب وسلالم، وبمطابقتها مع خرائط المدينة اكتشفت أنها للسور الجنوبي والسد الغربي القديم أو كما يسمونه «السد الأول»، أيضًا هناك رسوم هندسية للرافعات الكبيرة عليه التي تقوم بغلق وفتح البوابات وتوازن المياه داخل بحيرة التخزين وآبار السد.

سرت الهمهمات ونورين يتابعه بفخر:

- إن هذه الطلاسم والأغراض التي وجدناها هي مفتاحنا،

وبالفعل قادنا البحث واستجواب العامة والنبلاء ممن لم ينخرطوا في أمر ذلك المهرطق، أن تلك المرأة - مخمرية - وأباها لم يدخرا شيئًا في سبيل تعريف الناس بدينهم الجديد، وللمفارقة زوجها سهيل هو أحد ملاك دار صناعة السفن وقوارب الصيد في آزاد، بل إن نفوذه يجري مع تيار نهر التاج بتفرعاته الثلاثة، والأعجب أن قواربه وسفنه اختفت تمامًا من ميناء آزاد، هل ابتلعها نهر التاج؟

قال قي دار بصوته الأجه:

- إذن كنا نبحت في المكان الخاطيء، إن صدق قولك يا نورين فقد أضع جياذ البرق الكثير من الوقت هباءً، لعل هذه السفن غادرت قبل مجيئنا، ولكن إلى أين؟

أوما نورين برأسه موافقًا متابعًا حديثه:

- نعم، مرت ستة أيام علينا في هذه الأرض، أضعنا وقتنا في استجواب أناس لا يمنحوننا إلا القليل، إن هؤلاء القوم لن ينطقوا إلا بالقليل مهما فعلنا بهم، فما تركت تلك الة من الناس إلا لمعرفة نبيهم بقدرتهم على السكوت والصمت والكذب.

مرة أخرى تدخل الماجوني بصفاعة:

- تقصد أننا لم نستطع استخلاص شيء منهم؟

- بل إنهم كانوا يعرفون طرق استجوابنا، أونسيت أن جبران كان قائمقام المدينة، وقد تلقى تدريبه بين صفوفنا في الجبل الأزرق؟ إن الرجل يخفي أكثر مما قد باح إليك به يا ساري، إنهم يخططون لشيء جلل.

أدار نورين بصره إلى حيث يجلس أميرهم الشاب واستطرد محدثًا إياه بتبجيل لم يرق للماجوني:

- سيدي الأمير، إنهم كانوا يماطلون ويستنفدون وقتنا لغاية يرقبوننا، وما استخلصته من كل هذا البحث أنهم كانوا ينتظرون السلطان للإيقاع به داخل فخ، ثم وقعنا نحن فيه. نظن أننا قد بسطنا سيطرتنا واحتوينا الأمر داخل أزد، ولكن الحقيقة أننا داخل شرك محكم، ولا نعلم متى سيدبحوننا أو ماذا يضمرون لنا.

هيمن الصمت بعد كلمات نورين ذات الوقع المخيف، وكان أول من كسر حاجز السكون هو الأمير جاد الصغير، الذي سأل نورين:

- هل وجدتم من يستطيع قراءة تلك النصوص والرموز؟
- لا، لم يستطع أحد الجزم بماهيتها، ولكن رجالي ما زالوا يحققون في الأمر.

هز جاد رأسه متفهمًا وسأل مرة أخرى:

- ما الذي دفع سهيل هذا لإخفاء كل هذه الأشياء وراءه؟
وإن كان هو الفاعل حقًا فلماذا لم نجد شرحًا لهذه الكتابات،
علينا إيجاد زوجته بأي ثمن، نورين أخبرني، هل وجدتم شيئًا
شبيهًا بكل تلك الأغراض في مكان آخر؟

انحنى نورين وأخذ يخرج بعض الرقع من صندوق صغير:

- نعم، وجدنا بعض الأوراق التي تحمل النقوش والرموز
ذاتها، في منزل طبيب وقور يدعى ذاكي، وبالسؤال عنه قيل
إنه معلم مبجل بين الناس ولا يعلم أحد متى التحق بإينال،
وإن كان كل الناس قد شهدوا بأنه كان يؤدي النذور حتى
بعد خراب وهدم مشهد القربان الخاص بالعقاب الكبير، بيته
يحوي مكتبة كبيرة يعكف بعض رجالي على فحصها لعلنا
نجد إجابة، ولكن هناك رسومًا كهذه تشير إلى عين الشمس.

أخذ الرجال يحملون متفحصين الرقعة التي رفعها أمامهم
نورين، كانت تشبه خريطة لتلال الشمس وعينها، ولكن في
داخلها كانت هناك رسمة لوجه يبرز من بين السنة لهب.

سأل الأمير:

- أين ذلك الرجل؟

- لم نعثر له على أثر أيضًا، ومنزله على حاله كأنما خرج للتسوق ولكنه لم يعد، كحال الكثير من أهل تلك المدينة.

نهض جاد عن كرسيه غاضبًا ونزل الدرج بخطى لها دبيب، نظر إلى وجوه رجاله أجمعين ثم تحدث إليهم:

- أريد أن يُسلسل كل الأسرى بأغلال ثقيلة تمنع حركتهم، سنتابع ترهيبهم حتى نعرف منهم أدق المعلومات، سيكونون نقطة ضعف من يتربص بنا، وسنفشل بهم مخططهم الذي يدبرونه لنا. أيها القائد ساري أريد منك استفزاز ذلك المدعو جبران والكذب عليه إن استلزم الأمر، فلا شيء يجعل الرجال تتحدث إلا خوفهم على أبنائهم، اقلبوا الأرض حتى تجدوا المدعوة مخمربة والطبيب وكل أعوان هذا الدجال، أريدهم مهما كلف الأمر، أحياءً أو أمواتًا.

سأله نورين:

- وما بال أمر زعيمهم؟

- دعوا أمر ذلك المجدف لي.

قالها جاد بحزم أثار الحماسة في قلوب قاداته ومقاتليه، لم يكن من السهل عليه إقناعهم بخطته وقدراته، ولكنه سيفعل ما يحلو له وسيطيعون أمره، فالقيادة تؤخذ ولا تمنح، هكذا تعلم، وللمضي في درب الحياة عليه أن يثق بما يستطيع

* * *

شمس بكرّ ولدت من رحم ليلة مطيرة، وتدثرت بمهد من غيم رمادي له حواف ذات وهج ذهبي، رفرفت العصافير محلقة بين ضفتي المدينة على الرغم من برودة الصباح، غردت وتنقلت فوق المنازل والأشجار، ومقل المكديسين بالساحة تتوق إلى الحرية فتفيض بدمع الكمد والحزن، الخوف والبرد يجثمان فوق صدورهم، قضاوا مساءهم في العراء تحت المطر وصقيع الليل، وأصبحوا وقد نالت الرجفة من أجسادهم، ينتحب بعضهم وتكوم آخرون على أنفسهم، الأسنان تصطك والدماء في عروقهم تكاد تتجمد، جل ما تمنوه هو الرحمة أو قليل من الدفء، الكثير منهم لم يتبع إينال ولكن حين أتى جيش السلطان جعلهم سواء، من آمن ومن لم يؤمن جميعهم تعرضوا للاستجواب. وخلال أيام قضاها تناقص عددهم بفضل حكمدار أزد والنبلاء الذين شهدوا للبعض بالصلاح، ومن لم يجد له سندًا كان جزاؤه البقاء في الأسر إلى جانب من تبقى من أتباع النبي، وهؤلاء كانوا أكثر هدوءًا وصبرًا، اختارهم الرجل ليكونوا طعامًا للسلطان الدموي ولكنه لم يأت. عزل نبيهم وصاحبه جبران عن بقية الجموع منذ أيام، كانوا حيارى على الرغم من

الإيمان، خائفين على الرغم من تطمين إينال لهم، كلماته ما زالت تسري في وجدانهم: «من يعجزوا عن التضحية لا ينالوا شيئًا».

ارتضوا البقاء داخل مدينتهم تمامًا كالأمل الباقي في نفوسهم، وعدهم بالنعيم ولقاء الخالق الذي سيمحو عنهم عناء ومشقة الحياة، كل ما سيبذل في سبيله سيعوض بالخير والخلود إلى جوار الحكماء السبعة. ولكن أين هم، ومن هم؟ لعلمهم تركوهم ورحلوا، فالناجون لا يأبهون بمن وراءهم، هم من قبلوا التضحية في سبيل نجاتهم، وبينما كانوا غارقين في آلامهم وآمالهم، كان جند بني الأزرق ينعمون بالدفء حول حلقات النيران وفي الدور الخالية من أصحابها، ضحكوا وغنوا وتسامروا، ومع مرور الوقت بدأت طوابيرهم العسكرية في التجمع حول الساحة، جيء بالخيل وأعدت السروج الفخمة، وما لبث أن جاء الفرسان ذوو الرماح والرايات، تجهيزات الجيش لم تتوقف بينما تتراص الصفوف أمام خيمة الأمير، وما إن اكتمل النصاب حتى سكن الوجود إلا من تمايل الرايات والبيارق، رياح شمالية سرت بالوادي، وصفحة نهر التاج تترقرق بموج خفيف، وسرب طير مهاجر يعبر الأفق فوق الأسوار الشاهقة ليشهد بداية فصل جديد. نوذي في أهل أزد للخروج من منازلهم والحضور للساحة، وما لبثوا أن لبوا نداء سعاة الأمير، وما إن اجتمعوا

حتى خرج عليهم العقاب الصغير من خيمته.

سرى ما بين السدين دوي دك الجند للأرض بأقدامهم اليسرى، أتبعته قرقة قبضاتهم اليمنى على موضع القلب من صدورهم، ورددت جنبات المدينة صدى حناجرهم الهادرة: «المجد للسلطان... العز للسلطان... الأرض للسلطان».

هيمن السكون مرة أخرى.

أمام فيالق الجند وقف جاد منتصبًا بقامته القصيرة نسبيًا، عاقداً شعره إلى الخلف كذئب الوشق، أخذ يتطلع إلى الصفوف الممتدة أمامه والرايات الخافقات، أخذ نفسًا عميقًا من الهواء البارد الذي داعب ذاكرته وملاً صدره، لم يعد ذلك الراعي لقطعان الأيائل، بل قائدًا لأناس يتوقعون منه الكثير، لكل من هؤلاء أحلام وطموحات وأهل يريدون العودة إليهم مكليين بالنصر، سينعمون بالعطايا والهبات والغنائم إن أفلحت خطته. سرعان ما نفض عن رأسه تلك التخيلات وراح يمشي بخطى واثقة إلى المنصة المرتفعة بجوار خيمته، ما إن استوى عليها حتى نادى بصوت جهوري رده الصدى:

- أيها الرجال، إنه اليوم التاسع لنا في تلك المدينة، وقد آن لأزاد أن تعود إلى سابق عهدها، بفضل همتمكم وسواعدكم ونبالة موقفكم، استرددنا المدينة من تلك الشرذمة الخبيثة،

قبضنا على صاحبهم والكثير من أعوانه، وأما من لاذ بالفرار منهم فسنلاحقه، ولن يهدأ لنا بال حتى ننحر أعناقهم ونعلق رؤوسهم على بوابات المدينة، لتكون عبرة للقاصي والداني، أما من استسلم طواعية لنا فسينال رحمة وعفوًا منا، هذا إن أنكروا ما قدمت أيديهم من تجديف وهرطقة بحق مقدساتنا. صمت الأمير وجال بعينيه في الحشود بين يديه، ثم استطرد:

- اليوم هو عهد جديد لأزاد بعد أن تطهرت من آثامها وهلك دجالها.

توقف جاد فجأة عن الحديث إثر سقوط أحد الفرسان عن صهوة جواده، فزعت الخيل وراكبوها حول الصريع، ترجل عدد من القريبين منه ليروا مصاب صاحبهم، جسده كان ينتفض ويرتج ويصدر همهمات أشبه بصرخات مكتومة، ساد الذعر بين الصفوف، وما لبث أن أوقفوه وقد أحاطوا به، حملوه حملًا ليمتطي حصانه مرة أخرى، كان يحاول التملص منهم بكل قوته، وصار محط أنظار الجميع، هنا تدخل جاد متابعًا حديثه ليصرف أنظارهم عما يحدث:

- لقد حان الوقت لتستعيد أزاد مكانتها وبهاءها، لهذا قررنا نحن جاد بن راجي أمير مرتفعات الصقور ونائب السلطان بتولية السيد نورين البستاني حكامًا عسكريًا على مدينة

أزاد، وكلفنا الأمير ساري الماجوني بمحاكمة المتمردين وفق شريعة الجاباسكي، وكذلك سيكون له حق قيادة جياد البرق للإسراع في القبض على الهاريين، أما بقية الفيالق فستمضي معي إلى جوار المبجل قيدار إلى المجد والعلياء، سنذهب لنكمل ما أمرنا به من أجل بلادنا وأرضنا. لتتحرك الجحافل إلى مبتغاهما، ولتأمن أزاد من بعد خوف.

«المجد للسلطان... العز للسلطان... وأزاد للسلطان».

دمدمت الطبول لتعلن عن بدء خروج كتائب بني الأزرق من المدينة، تحرك موكب الفرسان يتقدمه المبجل قيدار وأولاده وحرسه المقربون ومن خلفهم العربات المحملة بالزاد والغنائم والمتاع، تبعهم المشاة، وفي خيمة القيادة اجتمع نورين والماجوني مع أميرهم الذي اعتمر خوذة العقاب محدثًا إياهم:

- لنرَ ماذا سيفعلون الآن.

غمغم الماجوني سائلًا إياه:

- سيدي، ماذا لو لم يحدث شيء؟

- أتمنى أن يخيب ظني، ولكن دعنا نرَ ما يمكنهم فعله حيال هلاك صاحبهم، عليكم فقط تنفيذ ما أوكل إليكم حتى إشعار آخر.

ختم كلماته مرتبًا على كتف نورين ثم خرج من الخيمة، تبعاه إلى الخارج حيث امتطى جواده الحربي الضخم وانطلق ليلحق بجيشه، تبعاه حتى خرج بفرسانه من بوابة المدينة الشمالية، وجلس الرجلان يتبادلان الحديث لوقت طويل، أحب نورين الفتى الذي منحه لقبًا جديدًا ومدينة عتيقة ليكون حاكمها، وتمنى أن يسير المخطط كما اتفقوا عليه، أما الماجوني فكان ناقدًا على الأمير الشاب، كيف لهذا الصغير أن يأمره بمطاردة الصعاليك بينما يسعى هو للمجد واللقاق بركب الحرب في مملكة الساحل؟ انتشلها من جمودهما صوت أحد الجند من خلفهما، التفتا إليه ليجداه ممتقع الوجه، سأله ساري:

- ماذا هناك؟

تلعثم الجندي قبل أن يتمالك نفسه قائلاً:

- سيدي، لقد انتحر السجين جبران.

- ماذا؟

- وجدناه منفجر العينين والدم يسيل من مقلتيه، مكسور العنق وقد خنق رقبتة بالأغلال.

ومع آخر حروفه، دوى في أرجاء المدينة صوت كالهزيم

صم الآذان، ارتجت الأرض وفزعت الخيل وصهلت، واهتزت القلوب كما ارتعدت الجدران، والسماء من فوقهم اسودت وقد طمست ما كان من ضوء شمس النهار، وفاض النهر فجأة وانفتحت صهاريج وآبار السدود، وبكت السماء على ما نال مؤمني أزد من عذاب، قطرات المطر كانت ثقيلة كبيرة كحجارة تتساقط فتهدم وتحطم وتسقط الرجال. الأسرى في الساحة بكوا فرحًا وهم يرددون: «تحققت نبوءة النبي، لقد صدق إبنال».

شمس الشموس

أغدقت شمس الصباح بضياؤها ودفئها على عش العقاب،
أو كما يعرفها الناس باسم «الزرقاء» عاصمة بني الأزرق
ومستقر ملكهم، عظمة البنيان والشأن، تتجلى على ربوة
مرتفعة كهرم مدرّج يرتفع فوق أرض السهل المنبسط،
بنيت على الهضبة التي بدأ منها جاد الكبير حلمه، هنا كانت
البداية حيث وُحِد القبائل من أبناء عمومته، هنا على الربوة
المقدسة المحاطة بمروج الأقحوان والخزامى البنفسجية،
وضع الرجل حجر أساس ملكه، وعلى سفحها بنيت منازل
القادة والمقربين منه، وخلال مائة سنة راحت الزرقاء تنمو
وتزدهر، وكلما جاء سلطان من أبناء ذي العين الزرقاء كان
يضيف جزءًا جديدًا، حتى صارت المدينة أكبر مدن جزيرة
تلال الشمس، يحيط بها سور دائري شاهق منيع من الجلمود
الأزرق، أما طبقات الحياة والسكن فيها كمثل درجات
السلم، في الأسفل العامة بمنازلهم البسيطة تتخللها الأسواق
والحوانيت، دروبها وطرقها الممهدة صاعدة مزينة بأشجار
السرو والصنوبر، تتباين بيوتها وتزداد بهاء كلما اقتربت أكثر
من القمة، دور النبلاء وقصور الأمراء ظليت بالأبيض الناصع،
لتبدو كطبقة فاصلة بين بيوت العامة في الأسفل وحصن

السلطان وقصره في القمة.

عش العقاب حصن منيع له ثلاثة أبراج دائرية تعلوها قباب من زجاج أزرق، يعكس أشعة الشمس حتى في الأيام الغائمة، القصر من ثلاثة طوابق تنتهي بقبة ضخمة من حجر التركواز المعشق بالبلور، ويستقر فوقها تمثال كبير من الفضة لعقاب باسط جناحيه، وفي الجهة الشرقية البوابة الوحيدة للقصر ومدخل ساحة العقاب وصخرة الميثاق، التي جلس عليها جاد ذو العين الزرقاء يوم بايعه أتباعه، وفي تلك البقعة التي تعاهد فيها قادة قبائل بني الأزرق بالولاء للرجل ودعمه ينتصب له تمثال من الفضة، أما في الجهة الغربية فتقع غابة الطير؛ حديقة غناء عتيقة ضاربة في القدم بها كوخ قديم محاط بسياح، يقولون إن في هذا المكان حدث جاد ربه وأتم له نصوص الجاباسكي، وعلى طرف غابة الطير تقع القبة الزجاجية أو كما يسميها الخدم «كشك الشمس»؛ بهو شاسع ذو قبة زجاجية عجيبة، تعمل على تدفئة المكان وحفظ ما فيه من نباتات وأشجار نادرة، تتوسطه بركة ماء صغيرة وأحواض ورود غريبة، النوافذ عالية تحدها أغصان اللبلاب المتسلق، تطل على المدينة أسفل منها وعلى سهول الخزامى المنبسطة والممتدة إلى الأفق، كما يستطيع الرائي مشاهدة البحر المسحور والشمس الغاربة.

داخل كشك الشمس طاف عصفور نممة ضئيل حول
شجرة جاكرندا عملاقة، كان يبحث عن شيء ما بين
الأغصان ذات الأوراق البنفسجية، يحط بقوائمه الصغيرة
فوق الفروع ويقفز هنا وهناك، يحلق ليغني بعدوبة وشجن
أغنية مطولة، يعيدها مرارًا وتكرارًا، وما لبثت أن ردت عليه
خليته بلحن صافٍ بديع، تنقلت بخفة بين أغصان شجر
الكرز الوردي المزهر وأشجار اللوز ذات الوريقات البيضاء،
قاده الغناء إلى حيث تتوارى خجلة منه، حط بقربها فتمنعت
عنه وأدارت ظهرها له، دار حولها وتبدل غناؤه العذب إلى
لحن قوي، رده وهو ينفذ ريشه متباهيًا أمامها، بادلته
الغناء الذي أطرب سمع شمس الشموس. لقب خصص
لزوجات ملوك بني شمس الغابرين، ولكنها أول من تلقبت
به من ملكات بني الأزرق، شمس الشموس سلطانة الدنيا
وأميرة جزيرة الكستناء، نوران بنت زين الكستنائي، محبوبة
السلطان ومفضلته، بنى لها ذلك المجلس خصيصًا في غابة
الطير المقدسة، وجاء لها بأندر وأعجب النباتات والزهور،
غرس لها الكثير من أشجار اللوز والكرز والجاكرندا، كما
جلب صنوفًا شتى من الطيور المغردة لتؤنسها، والكثير من
الجواري الحسنات يقمن على خدمتها وتلبية أوامرها،
رقيقة هي ممشوقة القوام فارعة الطول كأقحوانة برية
تغالب الريح، حسناء ذات أرداف ممتلئة، جميلة المحيا

بهية الطلة بيضاء الوجه تميل إلى صفرة تسر النفس، لها
أنف نحيل مرفوع المقدمة زادها أنفة وعزة، حوراء واسعة
العينين، حدقتها بلون اللوز، ذات حاجبين كثيفين مقوسين
منحاهما جمالاً على الرغم من الحدة البادية على ملامحها،
شعرها كثيف طويل منسدل، ذهبي صافٍ له بريق مشع كلما
لامسه ضياء الشمس، وثغرها الباسم يضيء بأسنان بيضاء
مرسومة تحدها شفاه وردية دقيقة رطبة، الحرير ملبسها
والذهب زينتها، وعلى الرغم من كل ما لديها إلا أن ملامحها
تحمل مسحة حزن.

مر على قدومها إلى تلك المدينة ثماني سنوات، زوجت
إلى سلطان بني الأزرق الجديد حينها، كانت قد مضت سنة
على تنصيبه، وقد سمعت عنه الكثير من الحكايات والقصص
التي جعلتها تخشاه، ولكن أباه طمأنها فالملك بحاجة إلى
ملكة لتجلس جوار عرشه وتدعم ملكه بذرية لم ترزق بها، لا
لعيب فيها ولا شيء يشوب رجولته وفحولته، بل كان القدر
ما فرض عليهما هذا، بهتت حين رأته أول مرة وتلك الندوب
الزرقاء على وجهه، ولكنه كان فارساً وسيماً على الرغم من
كل شيء، لم يعاملها يوماً بوحشية كما يقولون عنه، فقد
كانت ملاذه حين تضيق رحاب الدنيا عليه، أحبته وأغرمت
به وبتفاصيله، فروسيته ومهابته عند الناس، حكمته ونظرته
للأمور، وعلى الرغم مما يتناهى إلى مسامعها من همسات

قيلت عنه وعن جبروته وطغيانه، وطريقة صعوده إلى العرش بعد قتل كل أبناء عمومته، لم تشغل بالها بما يقولون، بل صدقت ما كتب في سيرته وما يردده قادته بأنه كان يصطاد في جبال مرتفعات الصقور حين قتل أمراء وشباب بني الأزرق، فذلك الحنون الشغوف بها لم يكن ليقتل وإن فعل فلعل ذلك كان حتمًا محتومًا، فأمر الحكيم تفرض على الرجال أن يقوموا بالكثير من الأشياء للحفاظ على مكانتهم وبلادهم، لا يهمها إن كان قاتلاً أو سفاكاً أو كما يقول العامة يحكم تلال الشمس بالنار والحديد، وعلى كل حال كان يكفيها حنانه والأمان الذي حظيت به، لا تشتت شيئا إلا ويأتي به قبل أن تبوح، يغدق عليها بالهدايا ويجلب لها أغرب وأندر ما تجود به أرض تلال الشمس، سيّر لها التجار والمغامرين يجوبون الأقطار بحثًا عن كل نفيس، إلا أن شيئًا كان ينقصها؛ أرادت ولدًا قرّة عين لها وله، ذلك ما كانت ترنو إليه، تشتاق إلى حمل ولي عهده بين يديها، جيء لها بالحكماء والمطبيين من العطارين والعرافات، لكن بلا جدوى. وحين نال اليأس منها رضيت بما يفعله زوجها مع الجواري والغانيات، اختارتهن له بعناية بل كانت تشرف على تزيينهن له، أملت أن ينجب هو وتكتفي هي بتربية صغار ليسوا من رحمها، وحتى هذا لم يفلح، هناك من يقول إن زوجها قد لعن لقتله بني قومه، ولكنها لم تصدق كل تلك الخرافات

والترهات.

وبعد خمس سنوات من زواجها، جاء بذلك الفتى الشاحب من مرتفعات الصقور ليكون عونًا له، في البدء لم يرق لها فعل زوجها، كيف يأتي برويعي الأيائل هذا إلى قصره؟! لم يعجبها اهتمام غازي به، ونالت الغيرة من فؤادها، ربما هو ابنه وكان يخفي الأمر عنها، ولكنهطمأنها وقال إنه ما اتخذ ذلك الولد رفيقًا إلا لفظنته وذكائه، يتوسم فيه خيرًا بأن يكون له عونًا وسندًا، كانت تتلاشى الاحتكاك به وتتغاضى عن وجوده، ولم يكن جاد يرفع عينيه تجاهها كلما حلت بمكان هو فيه، دمت الخلق، يبجلها، سريع البديهة، يسعى بكل جهده للفت انتباه القادة والأمراء إليه، أشاع السلطان بأن الشاب من نسل جدهم الكبير، وبذلك حظي الفتى بمكانته بين الناس وسكان القصر، وكلما مرت الأيام ازداد الفتى مكانة، يلازم راجي صائد الذئاب ويصاحب جان الصقار، وأحبه قاسم أصلان الذي كان قاسيًا عليه في التدريبات، وأعدده سليمان ناب فارسًا تدين له الخيل وتطيع لجامه، وغازي يتابع تقدم الفتى باهتمام، يصحبه في جولاته ورحلاته، يجالسه ويتسامر معه بالساعات، وفي ليالي الأانس والحفلات الصاخبة كان يجلسه بالقرب منه. ذات يوم مُنح الفتى جارية حسناء تُدعى ساليينا، كانت تعرف تلك الفتاة ذات القوام النحيل والصدر والردفين المنتفخين، دفع بها

السلطان إلى جاد لترعى أموره وتؤنس لياليه وتبهج قلبه وتمحو عنه تعب التدريبات الشاقة التي يخوضها، مرت أشهر ويبدو أن جاد أحبها ونالت المليحة من قلبه، وذلك لم يعجب زوجها.

ذات ليلة استيقظت ولم تجده بجوارها، الفراش ما زال دافئًا ولا أثر له في الغرفة الملكية، قلقت على غير عاداتها وهي التي اعتادت مجيئه إليها بعد سهراته ونزواته، شيء ما دفعها للنهوض، سحبت ثوبها ووضعت إياه على كتفها وخرجت تتحسس طريقها عبر الأروقة بحثًا عنه، وعلى ضوء القمر المتسلل عبر النوافذ أخذت تطوف في الممرات والشرفات، الأجواء هادئة باردة كعادة الليل في المدينة الزرقاء، ولكنها أكثر برودة على الرغم من صفاء السماء وكثرة نجومها، قلبها المقبوض قاده القدر إلى مخدع جاد الصغير، الباب الموارب لغرفته وضوء القنديل المتسلل إلى الخارج أثارا حفيظتها، سبقها الفضول عبر الرواق إلى الغرفة، وحين اقتربت وهمت بالدخول فُتح الباب لتجده واقفًا أمامها، السلطان، زوجها، متفاجئًا بوجودها، ولكن الدهشة والمفاجأة الأكبر كانت من نصيبها، كان يمسك بخنجر يقطر دمًا، وخلفه وعلى ضوء القنديل، كان الشاب مذهولًا جاحظ العينين، فاغرًا فاه، وجهه الأبيض مخضب بحمرة الدماء، وبين يديه كان هناك جسد عارٍ لا حياة فيه. في تلك اللحظة

وعلى الرغم من خوفها وفزعها مما فعله غازي، أشفقت على الفتى الذي بات ليلته غارقًا في الدماء مع جثة هامدة، وتلك كانت البداية ليصنع زوجها من الشاب قاتلاً لا يعرف الرحمة ولا تهز فؤاده الشفقة.

ضباب صباحي كثيف غلف قمة الزرقاء، أخفى أبراجها وقباب قصورها، ولا أثر لشمس الشروق وكأنها قد اعتذرت عن المجيء بعد انبلاج الصباح، حتى العصافير وطيور السلطانة لم تغرد كعادتها، السكون هيمن على كل شيء حتى الأنفس، جند الحراسة أخذتهم سنة من نوم بعد ليلة باردة مملة، والخدم وإن استيقظوا ليمارسوا أشغالهم إلا أن الكسل كان يسيطر على حركاتهم، وفي الجناح السلطاني لم يتبق من الشموع إلا ما ذاب منها ورماد الخيوط المحترقة، الظلال تهيمن على الأركان بفعل ستائر النوافذ المنسدلة عليها إلا واحدة، تلك التي في الجهة التي ترقد فيها السلطانة من الفراش المخملي الوثير، ضوء النهار بالكاد يضيء تلك الزاوية وكأنه يستمد نوره من الجميلة النائمة، شعرها الذهبي منثور على الوسادة وملامحها الدقيقة أنست عينيه الزرقاوين، حين فتحت عينيها بتناقل لمحته مستيقظًا معلقًا بصره عليها، ابتسمت وتثاءبت قبل أن تسأله والنوم يغالبها:

- يبدو أن هناك من لم ينم جيدًا، ما الذي يؤرق سلطاني؟
داعب خصلات شعرها برقة وحدثها بنبرته الرخيمة التي
تغلغت إلى روحها:

- استيقظت قبل قليل، ولكن يبدو أن جميلتي هي من
تأخرت في الاستيقاظ.

وجهت بصرها إلى النافذة:

- بالكاد الفجر انبلج.

- لا، بل ضباب شمالي محا أثر الإشراق وأخفى شمس
الصباح، سيكون نهارًا حارًا على غير عادة بلادنا.

ابتسمت وهي تلامس بأناملها قسماات وجهه:

- صرت متنبئًا بحال الطقس والجو.

- أولست سلطان الدنيا؟

- بلى.

قبلها بين عينيها وأنفاسه الدافئة تغمر مسام وجهها،
احتضنت وجهه بكفيها وحدثته:

- كم أحب رقتك وحنانك يا سلطاني.

بقي صامتًا، مغمض العينين بينما تجوب هي تفاصيله

ببصرها، لم تره قلقًا هكذا من قبل، تحسست بأناملها الرقيقة الندوب الزرقاء، أثر مخالب نمر الثلوج يجعله مهيبًا، لا تصدق أن ذلك الوديع المطمئن بين يديها، هو ذلك المخيف الذي يخشاه الناس، يقولون إنه قاتل سفاك للدماء نال من أبناء عمومته ليبقى هو الذكر الوحيد المهيمن، أراد أن يكون له سلالة خاصة من نسل بني الأزرق، ولكنه حتى اللحظة لم يحظ بولي عهده، وعلى الرغم من كل ذلك ما زال يعاملها بلين ورفق وحب، رآته منذ سنوات على عتبة غرفة جاد الصغير، قتل الجارية ولم يطرف له جفن، صدمتها كانت عظيمة، فتلك المرة الأولى التي تراه يقتل شخصًا أمامها، ما ذنب الجارية إن هواها جاد وتعلق بها؟ أخبرها غازي حينها أنه أراد صنع رجل محارب قاسي القلب، وليس مجرد أمير يشتهي النساء ويتعلق قلبه بهن، أرادته جلقًا لا رحمة في قلبه ولا شفقة. ولكن حتى هو وعلى الرغم مما يقال عنه وما رآته ما زال في قلبه شيء من تلك العواطف، ها هو بين يديها كصغير آمن بين يدي أمه، وهو الذي تدين له الأرض والبحار تعلم أنه قلق هذه الفترة منذ بدأت التمردات والثورات تجتاح مملكته، صار هناك خارجون عن طوعه وسلطانه، نثر جيوشه شرقًا وجنوبًا لبسط الهيمنة وفرض القوة والنفوذ، ولكنه قلق، ينتظر كل ليلة وصول جياد البرق بأخبار جديدة من أطراف أرضه.

غفت، وحين فتحت عينيها لم تجده، انسل خارجًا من دون أن تشعر به، على الرغم من سنوات عمرها معه فإنه ما زال يحتفظ بغموض يليق بهيبته ومكانته.

* * *

ارتفعت شمس النهار فوق عش العقاب، لا سحب في زرقة سمائه، انعكس نور الشمس يضيء على جسد تمثال العقاب الفضي أعلى قبة القصر، وفي غابة الطير الظليلة وعلى ضفة بركة الماء فيها، جلس السلطان غازي مسترخيًا ينعم ببرودة النبع ومياهه الزرقاء الداكنة، طقس يحبه ويقوم به معظم شهور السنة. اليوم مناسب للراحة والاستجمام، من النادر أن يحظى بهذه الأجواء الصيفية الحارة هنا، الزرقاء بنيت لتلائم الثلوج والبرد، مغمض العينين يستمتع بالسكينة وغناء ببغاوات وطيور زوجته الساكنة في كشك الشمس، جميلة هي وتحب كل جميل، يليق بها لقب سلطانة بني الأزرق، تناسبه تمامًا ويلائهما مكانها بجواره على العرش، حين ترتدي ثوبها الملكي الأبيض ذا السلاسل الفضية وتاج الملك يعلو رأسها، اقتبس من تاجه العظيم تصميم تاجها الأصغر والأرق، جناح عقاب ريشه مقسم بين ريشة من فضة وريشة من ذهب، يليق بشقرة شعرها وحمرة وجنتيها وبياضها المضيء، ليتها تنجب له وريثًا لعرشه، تمنى لو وشم ظهر مولود من

صلبه بختم العقاب الأزرق، سيكون أول من يحمل دمًا ملكيًا من بعده، ولا شريك له في الملك والسلطان، لذلك قضى هو على كل الذكور من أبناء عمومته ليحظى بسلالة جديدة نقية تسود الدنيا وتخلد اسمه. يؤلمه كونه عقيمًا ولا يقوى على تصديق أن العيب فيه، يتباهى بفحولته ويضاجع من يحلو له من النساء، ولكن لم تحمل إحداهن قَطُّ. تصل إلى مسامعه همسات العامة على الرغم مما يبذله رجاله في ترهيبهم، يقولون إنه لعن يوم سفك دماء أقربائه، وإن قسوته وغضبه سحرَّ أصابه وجعله يحب الدم، في قاع المدينة تتشكل أساطير عدة وقصص مرعبة عنه، ولكن وعلى الرغم من ذلك يحبه الكثير منهم، تُقام تماثيله إلى جوار تماثيل جده العملاقة، وتحفه التبريكات والدعوات كلما مر موكبه صاعدًا إلى عشه، يتمنون له الانتصار على المتمردين وأعداء السلطنة، ينثرون الورود في طريقه آمليين النصر ليعود ذووهم. لا أحد يستطيع منع الألسنة عن الحديث، وتشريعات الجاباسكي جاهزة لحساب كل مدنس للسيرة الملكية المقدسة، ولم يكن ليتخيل أن بعد تسع سنوات من صعوده إلى عرش السلطنة ستفتح عليه عدة جبهات، الأعداء يحيطون بمملكته من كل مكان وجيوشه تنتشر في كل مكان. يثق في قدرة قاداته على دحر المتمردين أينما كانوا، وسيكتمل حلمه بضم مملكة الساحل إلى سلطانه، لعل قاسم

أصلان هناك الآن يرفع راية بني الأزرق فوق أبراج وحصون
ممالك عائلات الساحل.

فتح عينيه حين صمت الكون من حوله، المكان خاوٍ وما
أسكت عصافير وطيور ملكته في كشك الشمس موجود هنا
بالتأكيد، دار ببصره باحثًا بين أغصان شجر غابة الطير ومن
ثمَّ أطلق صفييرًا سريعًا لم يكرره، ما ناداه كان يضرب الهواء
بجناحيه العظيمين وما لبث أن بسطهما وحلق فوق البركة
على ارتفاع منخفض لفتين وخط بعدهما على حافتها، ومن
بين الأشجار برز جان الصقار بوجهه الممتلئ ولحيته الثقيلة،
اقترب من سيده الذي كان يمسح على منقار عقابه بظهر يده،
انحنى أمام سلطانه قائلاً بدمائة:

- عذرًا مولاي السلطان، سبقني ذو العرف إليك.

- يعرف أين يجد أباه.

رَبَّت على رأس العقاب الذي أغمض عينيه ويد السلطان
تمسح ريشه وعرفه، بينما ابتسم جان وقال:

- بالطبع سيدي، إنك أول من أطعمته وأول من رآته عيناه
الصفراوان، الجارح لا ينسى.

- يليق بكونه شعار عائلتنا، هل جئت لأجل شيء ما؟

- نعم، تجار النوادر والتحف وصلوا إلى ساحة صخرة الميثاق، وأذنت لهم الملكة بالدخول عليها.

- هل كان هذا سبب مجيئك حقًا؟

- قبل دخولهم استجوبناهم عما يحدث في البر الآخر، جلهم قدم عبر مدينة البوغانز، وهناك منهم من يحمل أخبارًا.

خرج غازي من الماء بجسده المفتول، فأسرع جان بوضع عباءة زرقاء على كتفي سلطانه، الذي تجاوزه أمرًا إياه بلهجة قوية:

- حالما ينتهون من عرض تحفهم وبضاعتهم ائني بهم إلى قاعة العرش.

تبع جان سيده الماضي فوق العشب بسروال قصير يقطر ماءً بينما يجفف شعره الأسود الثقيل بالمنشفة وهو يتابع حديثه:

- وأخرج ذا العرف من غابة الطير، لا أريد أن يستقر الفرع في طيور السلطنة.

دلف السلطان إلى القصر تاركًا خادمه واقفًا في منتصف الحديقة الكبيرة، ويبدو أن الجارح فهم قول السيد العظيم، فرد جناحيه وأطلق نقيضًا طويلًا ثم خفق بهما ضاربًا الهواء

مثيرًا تموجًا على سطح البركة، وارتفع عن الأرض وانزلق
بنعومة محلقة إلى حيث يقف مدربه ومطعمه، حط على
ذراعه فألقمه جان قطعة لحم صغيرة من جراب على خصره،
ثم مسح ريش ظهره وجناحيه محدثًا إياه:

- تعلم جيدًا أن هذا المكان ليس لك، ربما كان في زمن
سحيق مرتعًا لك ولأبناء جنسك، ولكن كما ترى، أنت تفرع
عصافير وبيغاوات السلطانة، طر وحلق ولا تبتعد عن سماء
الزرقاء، فهي عشك ومقام أسلافك، فيها عزك وعلاء شأنك يا
ذا العرف.

بهو سلطاني شاسع، جدرانه من رخام أبيض معشق
بزخرفات من بلور أزرق، نقوش لورود وطيور وأيائل،
وأعمدة زرقاء مذهبة التيجان تحد نوافذ كبيرة متقابلة
على الجانبين يدلف منها نور النهار، وستائر مخملية رمادية
اللون تتدلى على جانبيها تحمل شعار السلطنة، في وسط
البهو نافورة صغيرة مليئة بالورود العطرة، خريرها يبعث
في النفس راحة ويزيد المكان بهاء، في الناحية الشمالية من
البهو كان مجلس شمس الشموس، كرسي بسيط التفاصيل
صغير الحجم يعلو عن القاعة بأربع درجات، صنع خصيصًا
بهذه البساطة لجعلها مقصد العين ومحور التركيز، تبدو

كإلهة الجمال القديمة التي تعبد في ديارها بجزيرة الكستناء،
تجلس بسمو ورفعة وعلى رأسها ذلك التاج الخلاب، عن
يمينها وشمالها اصطفت وصيفاتها الجميلات. الحرس اكتفوا
بالوقوف قرب المدخل الكبير وأمام النافورة، وتحت كرسي
السلطانة افترش تسعة تجار بضاعتهم، فتحت صناديقهم
لتكشف عن محتوياتها النفيسة، أحدهم أخذ يعرض الأقمشة
من الحرير والكتان والقطيفة، ووصيفاتها يتناولن اللفائف
ويتفحصنها قبل عرضها عليها، تاجر آخر تفاخر بكونه أشهر
صانع حلي في البوغان، استعرض مصوغاته متباهيًا بحرفته
وصنعته الدقيقة في صنع بتلات ورود الذهب المعلقة في
الأساور والقلائد، ومثله تفنن جميع أقرانه من التجار في
عرض بضاعتهم والإفراط في وصف مدى إتقان صنعتها، هذا
تاجر عطور وطيب لديه مزيج رائع من نسيم غابة الورد،
والدهن العطري الذي لا يصنع إلا في مملكة الساحل، وذلك
لديه أقفاص صغيرة تحوي عصافير نادرة تعيش في غابات
الظلال البعيدة، تبادلوا عرض مقتنياتهم من دون أن تتحدث،
مراوح ريش وفاكهة عجيبة مجففة وأوانٍ من خزف وفضة،
جلود نمور وتحف فريدة من العاج. أجزلت لهم العطاء
وأخذت ما أرادت فقط، لم تنطق بكلمة منذ دخلوا عليها،
كانت تكتفي بإيماءات موافقة أو رفض، وما كان منهم إلا أن
يتضرعوا لها لأن تقبل منهم البقية كهدية تليق بسمو

مقامها، وجاء الدور على آخرهم، بدت هيئته متواضعة عنهم، يقف في المؤخرة وحيدًا، لم يكن لديه مساعدون يحملون الصناديق ويتبارون لعرض المتاع، طويل القامة ليس معه سوى صندوق واحد يحمله على ظهره كحقيبة كبيرة، شاب له حظ من حسن الوجه، أقلهم شأنًا، لذا كان عليه البقاء حتى ينتهي الكبار من مبتغاهم، سألته إحدى الوصيفات:

- هل لديك شيء لتعرضه؟

- بالطبع، لدي ما يرضي شغف شمس الشموس.

قالها من دون أن يبالي بنظرات من حوله من التجار، تقدم خطوتين إلى الأمام وأنزل الصندوق عن ظهره، فتحه وهو يستطرد:

- لعل صغر حجمه يثير التساؤلات في النفس عن محتوياته، ولكن ما بداخل هذا الصندوق الجلدي أثمن بكثير من كل ما جادت به صناديق السادة.

أخرج شيئًا بين يديه، لفافة من جلد غزال، راح يفكها رافعًا إياها أمام نظر السلطانة جامدة الملامح حتى رأت ما في يديه، عقدت حاجبيها الجميلين وهي تحديق أكثر في تلك الكتلة الصفراء، قبل أن تتساءل عن ماهيتها، أجاب هو مستعرضًا:

- عنبر حجري، قطعة فريدة لا مثيل لها على تلك المعمورة،
يكفي أن نمسحها براحة اليد هكذا... لتفوح رائحة العنبر في
المكان.

بفعل لمستته صار الهواء معبقًا بشذى عطري بديع، الأمر كان
مبهراً وقد تسلت الرائحة لتقترن بأنفاس الحضور وتختلج
بها الصدور، مقلتا السلطانة اتسعنا انبهارًا والطيب يتغلغل
في أنفها، تقدم الشاب خطوتين إلى الأمام وانحنى مقدمًا
ما في يده للوصيفة التي ما إن تلقفتها عنه حتى صعدت
إلى حيث تجلس ملكتها، وبينما كانت تتفحص تلك الكتلة
الحجرية العجيبة قال أحد التجار:

- ما هذا إلا سحر، من أين أتيت به؟

ابتسم الشاب محدثًا إياه:

- هذا سر مهنتي، كيف أفشيه إليك؟

وما كادت الهمهمات تكثر حتى أشارت السلطانة لإحدى
وصيفاتها، فأسرعت الأخيرة تطلب من التجار الخروج وأن
يبقى الشاب، وما إن خرجوا وأغلق الباب خلفهم، حتى
انحنى التاجر الأخير ليخرج شيئًا آخر من جعبته:

- هذه نبتة زهر البردقوش، لا تزرع إلا في منطقة تسمى

نسبة إليها، وحين سمعت بكشك الشمس خاصتكم، وجدت

أنها قد تكون إضافة مميزة لغابتكم الجميلة أيتها السلطانة العظيمة، كما أن لها الكثير من المزايا الشفائية والعطرية، كنت أرهاها طوال رحلتي إلى هنا وأسقيها وأعرضها للشمس والهواء بين الحين والآخر.

حملتها بين يديها وأخذت تتأمل البتلات والبراعم الصغيرة، ونطقت بعدوبة:

- هناك المزيد في جعبتك، أليس كذلك؟

انشرح صدر التاجر وتهللت أساريره:

- أنا باحث عن العجائب ونفائس الكنوز، ارتحلت عبر غابات الظلال وجبل الحيتان، مرورًا ببحر الرمال ووادي النهر الكبير، وفتشت في أطلال القدماء بتل الرخ، والقرى المهجورة منذ مئات السنين، خضت الكثير من المغامرات في كل ربوع أرض تلال الشمس، من بستان الجياد وحتى المروج الخضراء على الساحل الجنوبي، طفت الأرض أبيع وأشتري، ونلت نصيبًا من بذخ ملوك الساحل الذين أغدقوا عليّ الكثير من العطايا مقابل بضاعتي، ولكنني احتفظت بأثمن وأندر الأشياء لجلالتكم.

أنهى كلماته بإخراج قارورة صفراء فاقع لونها، راح يستعرضها أمام الأعين المتشوقة لمعرفة ماهيتها، وأمام

نظراتهن بدأ الحديث:

- هذه القنينة تحوي ماء، ولكنه ليس كأي ماء، إنه من بحيرة العسل حيث يصب أحد روافد نهر التاج هناك، قَطَّر بماء الورد وعود وعود بأيدي أمهر العشابين والعطارين في قرية بحرية صغيرة على الساحل الشرقي تُسمى القرشية.

وقالت أخرى:

- وما يدرينا أنه ليس بسحر أو شيء تريد به شرًا للسلطانة؟

سألته إحدى الوصيفات:

- وما فائدة هذا الماء؟

- أنا أعرض بضاعتي وللسلطانة حق الرفض أو الشراء، هذا الماء له قوة خاصة تجعل الحمل ممكنًا إذا وُضعت منه قطرتان في شراب الرجل وزوجه قبيل الجماع.

كلماته راودت عقل السلطانة، بدا ذلك جليًا على ملامحها المهمة وعينيها المستقرتين على القارورة بيده، ران صمت طويل على القاعة حتى تحدث هو مرة أخرى:

- يبدو أن هذا لم يعجب جلالتك، ما زال لديّ أشياء أخرى

و...

قاطعته بإشارة من سبابتها وقالت بصوتها العذب:

- سنأخذ تلك القارورة، ولكن عليك أن تتجرع قدرًا منها الآن.

- ولكن مولاتي، إنها باهظة الثمن.

وبخته إحدى الوصيفات عاقدة حاجبيها:

- ما بالك أيها الوضيع تقاطع شمس الشموس بينما تتحدث؟ أما لك أن تتأدب؟ هيا اشرب من هذه القنينة قدر الشبع.

بدا لهن أن الشاب في موضع صعب، كان يرمقهن ويبدل بصره بينهن، قبل أن تستقر عيناه على ذات العزة والسمو، أوامات له بلطف شديد فابتسم قائلاً:

- هل لي بطلب قبل أن أرتشف من ماء العسل هذا؟

مرة أخرى تدخلت الوصيفة ذاتها:

- هل ستتمنى آخر أمنية قبل الموت؟

رماها بطرفه وقال بنبرة ساخرة:

- في الحقيقة، أريد ألا تضيع قطرة من هذا الماء هباء، لذا أتمنى من سلطانتنا أن تمنحني إحدى وصيفاتها لقضاء الليلة.

جحظت أعينهن وانفرج ثغر شمس الشموس بابتسامة
عجب وموافقة وهو يضيف:

- ولو أن لي أن أختار، فستكون تلك الثرثارة.

صاحت الوصيفة:

- ويحك أيها الحقير.

ونادتها السلطانة وهي ترميها بنظرة غاضبة:

- نادينا.

أخفضت الوصيفة رأسها مغممة بأسف:

- أعتذر سلطانتنا، سامحيني على فعلي المشين.

تجاهلتها ملكتها وعادت يبصرها إلى التاجر:

- ما اسمك؟

نزل على ركبتيه وخفض رأسه بتبجيل:

- خادمك، نيار بن أيبك العنبري الأزرق، جدي البعيد كان

رفيق المعظم جاد ذي العين الزرقاء، ولدت وترعرعت في

ميناء العنبرية حيث يعمل أبي في صيد الحيتان كحال أهل

بلدتنا. لست شريراً ولا أريد بكم سوءاً أو شرّاً، صدقيني.

بهدهوء قالت له:

- اشرب.

هز رأسه موافقًا وبدأ بفتح القنينة ببطء، أحاطت به نظراتهن وهو يرفعها إلى شفثيه، ارتشف منها رشفتين وقبل أن ينزلها عن فمه تجرع الثالثة، ابتسم بعد أن مسح فاه بظهر يده، دام الصمت والسكون لبرهة لا يقطعها إلا خرير النافورة بوسط البهو، انتظروا حتى يحدث شيء له، ونزلت الوصيفة نادينا إليه لتأخذ القارورة من يده، همّ بقول شيء إلا أن السلطانة حدثته:

- والآن اذهب وجد لك ما خورًا تشبع فيه رغباتك، وصيفاتي لسن عاهرات للجائلين.

- سيدتي، ما زال لديّ شيء آخر.

- لا نريد منك بضاعة بعد الآن.

- إنها أثنى ما لديّ، وأرجو أن تتقبلها بقبول حسن.

مد يده إلى جعبته وأخذ يعبت فيها قبل أن يخرج لفافة دائرية من حرير أبيض مصفر، أزاحه بروية ليبرز ما فيه؛ لامع ذو بريق خلاب، برونزي اللون، يشبه الدرع أو طبقًا كبير الحجم، ألقى بالمنديل الحريري أرضًا وراح يستعرض ما في يده رافعًا إياه، وضوء النهار يلمع على سطحه المصقول، يعج

بنقوش غريبة وكأنها كتابات بلغة غير مفهومة وزخرفات يرونها للمرة الأولى، نقش على الطبق الكبير سبع دوائر أصغر حول الحواف، داخل كل منها رموز مكشوفة كأنها لم تكتمل، بريقه الخلاب أسر عيونهن، وأثيرت عواصف الفضول داخل قلوبهن، كان يعلم أنها لحظته المناسبة ليزيد من جرعة الإثارة لديهن، فقال:

- إن ماهية هذا المعدن غير معروفة لدى جميع الحدادين وصاهري المعادن، طفت به على ورش وحوانيت البوغاز وأوريجا وقلعة النار، بل ذهبت به إلى الصقارة وسد الملك وغابة الورود، بحثت عن صانعه وكيفية صنعه في مملكة الساحل وحصونها المعروفة بتصنيع الأسلحة العجيبة، لكن من دون جدوى، إنه متين سميك وما يدهشني أنه خفيف الوزن على الرغم من كتلته، لا يخدش ولا ينبعج حتى وإن سقط عليه جبل، إنه معجزة القدماء.

أردف وهو يقترب بضع خطوات من درجات العرش:

- معدن غير معلوم ماهيته، لا مثيل له بين المعادن المستخرجة من عين الشمس.

مده يده وناوله لإحدى الوصيفات التي تفاجأت بمدى خفة الشيء بين يديها، شهقت وفغرت فمها وما لبثت أن ابتسمت وهي تصعد الدرج إلى مولاتها تتبعها أعين رفيقاتها، كان

خفيًا بارد الملمس، شعرت بنشوة وقشعريرة تغزو جسدها،
أما سيدتها فكانت تتفحصه باهتمام وقربت أناملها منه،
لمسته وسرى شيء من نبض غريب فيها، ارتدت يدها للخلف
بسرعة، جفلت الخادمة من سلطانتها التي انفرج ثغرها
لتحدثه بنبرة هادئة مستعجبة:

- ما هذا الشيء؟

أجاب نيار ضاحكًا:

- لا أعلم! ولكنه أعجب ما وجدته من النوادر والتحف.

أشارت السلطانة للخادمة فوضعت الطبق بين يديها، كان
خفيًا بالفعل، بوزن ريشة وأخف كأنها لا تحمل شيئًا، ولكنها
شعرت أيضًا بمدى صلابته، أمدها بإحساس غريب لم تعرف
ماهيته وهي ترى انعكاس صورتها على سطحه المزخرف،
فسألته:

- كيف حصلت عليه؟ أهو من إرث بني شمس؟

- أعتقد أنه أقدم بكثير من عمر إمبراطوريتهم، في العادة
يصحبني شخصان في رحلاتي ونرتحل بالإبل لجلدها
وصبرها ولأنها قد تحمل أكثر مما يحمله الحصان، ولكن في
هذه المرة كنت وحدي في رحلة إلى مملكة الساحل قاصدًا
بحيرة هايدن، عبرت طريق الوادي القديم إلى شاطئ بحر

الرمال الجنوبي حيث أطلال الرخ المخيفة، أرض جدباء قليل زرعها، لا ينبت فيها إلا صبار الشوك والحنظل، هناك كانت تتغذى وتتزاوج طيور العنقاء التي لها تلال قريبة من المكان ذاته تحمل الاسم نفسه، أرض موحشة وجبال سوداء حجارتها، تعج وديانها السحيقة بأنواع شتى من العظام، لقد رأيت بعيني جماجم لطيور عملاقة وحيوانات رعي كالأبقار والجواميس والخيل والبشر. نعم هياكل عظمية لأناس لا أعلم كيف انتهى بهم المطاف في تلك المنطقة، وما كان ينقصني إلا أن ترفض ناقتي الدخول إلى السهل بين أطلال الرخ وتلال العنقاء، حل الليل واضطرت للتخيم على حافة الوادي، ليلة غبراء باردة اشتد ريحها قبيل الفجر، لم أستطع إرخاء جفني، ولا أنكر أنني كنت مرتعبًا وكل الأساطير التي سمعتها عن تلك المنطقة راحت تتجسد أمامي داخل نيران التخيم المتراقصة وسط الظلام.

يقولون إن في سالف الزمان وفي تلك البقعة من جزيرة الشمس، كان يعيش طير عظيم يُسمى طائر الرخ، وربما تلك الجماجم والعظام التي رأيتها هي لذلك النوع المنقرض. لا أحد يعلم متى اختفى ولكن آثاره ما زالت موجودة هناك، الأعشاش الضخمة وقشور البيض السميقة، آثار فضلاتهم المتحجرة على الصخور الصلدة السوداء، كنت أحدث نفسي ما الذي يدفع برجل مثلي من بني الأزرق للذهاب

إلى المناطق الغربية؟ الإجابة الوحيدة كانت تتمثل في ذلك الكنز الذي عثرت عليه، هناك سبب وشيء قادني بالفعل إلى التسلق أعلى أحد الجبال الصغيرة، حيث بقايا عش قديم مهدم بدا أنه محترق، تتناثر حوله أكوام من البقايا البشرية؛ عظام مكسوة بالحديد والمعادن المصهورة، سيوف ودروع وأسلحة ضُهرت حتى أكلت اللحم وكست العظام، وجمجمة طائر عملاقة غُرس فيها رمح عالق بالعظام على الرغم من مرور مئات وربما آلاف السنين، تمنيت لو أن باستطاعتي نقل جمجمة الطائر هذه معي، ولكن شريعتنا والجاباسكي ينصان على ألا ندنس قبرًا وألا نسرق عظمًا، وكل تلك النصوص عن حرمة الموتى حتى وإن كان حيوانًا أو طيرًا. في مدينة الصقارة يقولون إن العقبان والصقور من نسل الرخ ولعلها كذلك، تحسست عظامها وتأملت محاجرها الفارغة، كان لديها روح ولحم وريش وربما صفار، البيض المهشم ما زال حوله بقايا طيور صغيرة، تساءلت ما الذي حدث هنا، ومن هم هؤلاء الصرعى على المنحدر، فرسان انصهرت دروعهم عليهم، أناس كانت لهم غاية وحياة، ما الذي كانوا يرجونه هنا؟ ربما كان هذا الشيء هو سبب مجيئهم إلى عش الرخ. فتشت أرجاء المكان بحثًا عن أي شيء ثمين حتى وجدته، كان ملقى تحت كومة من التراب والحجارة والأخشاب، فقط جزء صغير منه يظهر على استحياء، كأنه ينتظرني لأزيح

عنه الغبار وحمل السنين، حفرت الردم من حوله وأخرجته. وبينما كانت كل المعادن مصهورة كان ذلك القرص سليماً تماماً.

كان نيار العنبري يحكي قصة عثوره على الكنز الثمين بحماسة، يتحرك ويصف جبلاً وودياناً كأنه يراها رأي العين، مغامر حقيقي أثار فضول السلطانة وخدمها، أنساهم ما كان من أمر صفاقته وتجربته، ظل يحكي عن الأهوال التي رآها في رحلته، وكيف وجد العنبر الصخري في مقبرة الحيتان في قلب بحر الرمال، قص على مسامعها الكثير من الحكايات عن المدن والمقاطعات التي زارها، وزادها شغفاً حين ذكر اسم أزد، كانت تتوق لمعرفة ما يحدث هناك، ولكن جان الصقار قطع حديث نيار حين جاء طالباً إياه لمقابلة السلطان. أجزلت للشاب العطاء ووعدتها أن يعود إليها بكل جديد وغريب في المرة القادمة، رحل عن القاعة تاركاً إياها وسط وصيفاتها وبين يديها ذلك القرص المعدني العجيب.

مع بدء رحلة الشمس إلى مغيبها جاءت نسيمات من هواء بارد، وكعادتها في تلك الساعة كانت تجلس في كشك الشمس تتطلع إلى الأفق البرتقالي والبحر الرائق من تحته، تشتاق إلى جزيرة أبيها وزيارة أخواتها وأبنائهم، تسع سنوات

منذ قدومها إلى هنا لم تبحر إلى هناك سوى ثلاث مرات،
آخرها كان قبيل ما جد من حروب. ذهب زوجها وحاشيته
وجميع قاداته، قضوا وقتًا ممتعًا هناك، تذكر كيف كان أبوها
معجبًا بمرافق السلطان ذلك الشاب جاد الصغير، أشار في
أكثر من مرة لنباهته وفطنته، بل جعله يشارك مع فرسان
جزيرة الكستناء في مبارزاتهم وألعاب الفروسية والرمي،
وفي حديث بين أب محب لابنته المدللة أخبرها كم يتمنى
أن يحظى بحفيد ليس كمثل أحفاده جميعًا، أراد أن تنجب
لغازي ولدًا ليرث الملك وعرش بني الأزرق. في تلك الليلة
أفصح الرجل عن الكثير مما يخشاه ويخفيه بين أضلعه،
يخاف أن يصاب السلطان بأذى أو يغدر به، وحينها ستكون
هي في مهب الريح، لن يكون بجوارها إن حدث مكروه لها
ولزوجها، والأكثر من هذا أن العرش سيرثه أغيار ليسوا من
نسل غازي سليل المعظم جاد الكبير. حديث أبيها كان مجرد
بذرة رواها التمني والرغبة في الحصول على ولد لها، أرادت
هذا بشدة والقدر لم يكن على هواها، قدمت النذور والقرايين
في معبد العقاب، ألقت بالورود والملح تحت قدمي تمثال
الجد الكبير، قرأت كل نصوص الجاباسكي بحثًا عن دعاء أو
سبيل للحصول على مولود، ولكن زوجها ملعون بقطع النسل،
هكذا يتردد في أرجاء مملكته الشاسعة، ويبدو أنه يؤهل ذلك
اللقيط الذي أتى به من مرتفعات الصقور ليرث العرش،

راودها ذلك الشعور كثيرًا، الغيرة منه كان لها نصيب من قلبها أيضًا حتى جاءت اللحظة التي أشفقت عليه، يوم ذبح زوجها تلك الجارية وهي تضاجع الفتى، قتلها أمام عينيه وهو الذي كان يهواها، لم تنس انكساره والحزن في عينيه، حتى وجدت نفسها تواسيه وتمنحه بعض الحكم وكلمات أرادت بها إزاحة الأسى عن محياه، وتبدل الحال وصار جاد جليسا للسلطانة يزور مجلسها ويتبرك بدعائها، أغدقت عليه العطايا وعاملته بنبل، وكان السلطان راضيًا تمامًا عن فعلها إلى أن جاء اليوم الذي بعث به إلى الحرب، ومرت الأيام والقلق عليه يعتريها حتى جاء ذلك التاجر على ذكر أزد، لا تدري لم ارتجف قلبها حينها.

مع حلول الليل عادت إلى غرفتها المضاءة بالشموع وقناديل الزيت، أزال كل حليها وأخذت تبدل ملابسها، تعطرت ومسحت كامل جسدها بالعنبر والطيب، اختارت ثوبًا من حرير يكشف أكثر مما يخفي، وأمام المرأة جلست تمشط شعرها، وأمامها قارورة ماء العسل الذي منحه إياها ذلك التاجر، أخذتها وتحسست زجاجها المحبب وبهدوء فتحت غطاءها، قربتها من أنفها وداخلها صوت يحثها على الشرب منها، عقلها أعاد عليها مشاهد من حكي التاجر ووصف تأثير ذلك الدواء، كانت هائمة في تلك العوالم التي تحدث عنها، ولم تعد إلى واقعها إلا حين جاء زوجها. جاءها حيث

تجلس فنهضت موارد القنينة بين قوارير عطورها وزينتها، احتضنها فوضعت رأسها على كتفه، وفي المرأة كان يراها على صدره، شعرها الكثيف منسدل على ظهرها، رائحة العنبر الهادئة تسلك إلى صدره، قبّل رأسها وهو يتطلع إلى نفسه في المرأة، كان ما يظهر منه نصف وجهه ذا الندوب الزرقاء، وتاج العقاب الفريد على رأسه، مر بخلده فيض جارف من ذكريات عدة، وطال الصمت بينهما حتى قطعتة هي بقبلة ناعمة على شفثيه، ولكنه أزاحها فجأة جانبًا وعقد حاجبيه وهو يحدق في المرأة، شيء براق أخذ بصره.

نحاهها جانبًا واستدار ليرى ذلك القرص الموضوع في زاوية الغرفة، لم يسألها بل خطا باتجاهه فتبعته، صناديق البضائع وما اشترته مكدسة في الزاوية، ولكن هذا الشيء كان يلمع بفعل ضوء الشموع والقناديل، اقترب منه فحدثته:

- تلك الأشياء التي اشتريتها من التجار.

بأطراف أنامله لمس السطح المصقول، فارتدت يداها إلى الخلف وكأن عقربًا لدغته، وضعت كفها على ظهره وسألته بتوجس:

- سلطاني، ما بك؟

- ما هذا الشيء؟

- لا أعلم ماهيته، ولكن أحد التجار من العنبرية أهداني إياه.
يقول إنه كنز عجيب وجده في تلال العنقاء أو أطلال الرخ،
شيء من هذا القبيل.

مرة أخرى مد غازي يديه إلى الدرع الغريبة، أمسكها بكلتا
يديه، شعر بتلك القوة تسري في جسده، خفيفة الوزن بعثت
في نفسه قشعريرة تملكت من عروقه وكيانه، وعلى الرغم
من ذلك أحكم قبضته عليها، أخذ يتفحصها وعيناه تدوران
على تفاصيلها ونقوشها، ولوهلة خيل إليه أنه يرى في تلك
الدوائر المحفورة وجوهًا، أبعد بصره عنها ثم عاد إليها مرة
أخرى مغمغمًا:

- أي لعنة وضعت في هذا الشيء؟

- جميلة، أليس كذلك؟

«بل مخيفة»، هكذا حدثته نفسه، لم ينطق حرفًا بل
وضع ذلك الشيء من يده واستدار إليها، كانت تحمق في
قساماته المتبدلة، المرة الأولى التي ترى على وجه زوجها
تلك المسحة من ريبة أو خوف، اقتربت منه ولمست بأناملها
الرقيقة لحيته المصفرة وما لبثت أن احتوت وجهه بين
كفيها:

- ما بك يا سلطاني؟

- لا أريد هذا الشيء في غرفتي.

أفلت منها متجهاً إلى الباب ففتحه ونادى الحرس، فجاءوه
مهرولين فأمرهم:

- خذوا تلك الأشياء من هنا، ضعوها في خزانة السلطانة.

راقبتهم وهم يحملون الصناديق والأغراض، لم تقوَ على
سؤاله حتى رحلوا وأغلق الباب، خلع تاجه الثقيل ووضع
على تمثاله النصفي الحجري، كذلك عباءة الديباج المرصعة
بالزبرجد والذهب والياقوت الأزرق، ساعدته على فك إزاره
وتبديل ملابسه، مسدت مسامه بالطيب والدهن قبل أن
تلبسه قميصاً من كتان أبيض ناعم، أرادت إخباره بأمر ماء
العسل ولكنها خشيت أن يغضب، وبعد فعله من إخراج
كل مشترياتها إلى خارج الغرفة قررت الاحتفاظ بالقارورة
لنفسها، سألته بلطف وتودد:

- حبيبي، هل تشرب شيئاً؟ لديّ هنا نبيذ الفاكهة المحلى
بالعسل الذي تحبه.

أوماً برأسه وسبقها إلى الفراش بينما راحت تصب كأسَي
النبيذ، تطلعت إليه عبر المرآة وحدثته:

- ما بال مزاجك غير رائق هذه الليلة؟

- لا شيء هام، يوم حار على غير العادة، بالإضافة لأمر
الحكم والحرب التي ترهق النفس.

أخذت القارورة وعيناها لا تنفكان تبعدان عن انعكاس
صورته، كان مسترخياً مغمض العينين، وضعت قطرتين من
ماء العسل في كل من كأسيهما، حملتهما عائداً إلى الفراش،
ناولته إياه:

- هل هناك أخبار جديدة عن جاد أو القائد قاسم أصلان؟

- لا قلق على قاسم وجاد، يعرفان كيف تدار الأمور،
وسينتصران، اليوم استخلصت من التجار بعض المعلومات،
وجلها تؤكد أن رجالي يخوضون حرباً شرسة في بحر الرمال
وغابة الظلال، أحد التجار جاءني برسالة من كفر البردقوش.

- نيار؟

- كيف علمت؟

- لقد جاءني بهدية لكشك الشمس، نبتة زهر البردقوش،
وهو من أهداني تلك الدرع.

اعتدل السلطان في جلسته وقرب كأس النبيذ من شفتيه،
ارتشف ثم حدثها:

- ذلك الشاب مغامر يبحث عن الكنوز، جان الصقار يعرف

والده وعشيرته في مدينة العنبرية، يقول إنه شاهد موكب عودة قائمقام كفر البردقوش من جنوب خندق السراب محملاً بالغنائم والأسرى، والرسالة التي حملها كانت تزف خبر نصرنا من حكمدار الكفر شاهين بن عز الدين الشمسي، تطمئننا إلى أن كل الأمور تسير على خير وجه وأن العدو مُني بهزيمة نكراء.

- أهو من بني شمس؟

- نعم هو كذلك، آخر سليل لهم في تلك المعمورة، ولاؤه لنا ويتفنن جاهداً في الحصول على رضاي، لقد استضاف الرجل جيشي ورحب بقاسم أصلان وسليمان ناب ومن قبلهم صاحبي راجي، ربما سيكون عليّ منح الرجل وساماً رفيعاً وبعض الهبات بعد أن تنتهي الحملة في بحر الرمال.

ارتشفت نوران من النبيذ وسألته:

- ما الذي يحدث؟ ولم يخرج كل هؤلاء المتمردين في ذلك الوقت؟ شخص يدّعي النبوة في أزداد ويضرم النار في معابدها ودواوينها، وعصابة يقولون إنها تمتطي الذئاب تجوب بحر الرمال وتسلب القوافل وتهاجم جندنا!

- هذا ما سيدركه جيش قاسم أصلان، أشك أن مملكة الساحل وملوكها الأربعة وراء كل هذا.

- ولكنك قلت لي من قبل إن الوزير قاسم أصلان ذهب لإخضاع مملكة الساحل وضمها لسلطاننا...

قاطعها:

- إنهم رأس الشرور كلها، والمنطقة الوحيدة الباقية خارج سيطرتي على أرض تلال الشمس، كان عليّ تدبر أمرهم، سواء كانوا هم المدبرين لنهب قوافلي، ودعم البدو وهمج الصحراء والغابات البعيدة، تلك المرة الأولى التي يهبط فيها جيش شمالي إلى ما وراء خندق السراب، وددت لو ذهبت معهم لرؤية حدود سلطاني ومدته إلى ما لم يصل إليه أحد من قبلي.

- لماذا لم تذهب؟

شرد في سؤالاتها المباغت العفوي قبل أن يجيب متنهّدًا:

- ابن العوالي ذو التاج لا ينزل عن عرشه لملاقة الرعاع، سوطي يصل مداه إلى أطراف الأرض من حولي، لي رجال نحتت نصوص الجاباسكي المقدسة داخل صدورهم، سيقاتلون في سبيل فناء أعدائي.

رفع الكأس إلى شفتيه وعيناها تفيضان بفرح لم يكتمل، ثم أنزل الكأس من دون أن يمسه ما فيها وحدثها بنبرة ساخرة:

- ذئب في بحر الرمال، ونبي في أزد، وخونة في مملكة الساحل، الأول سيمحقه سليمان ناب والثاني سيأتيني جاد برأسه قريبًا هو وأعوانه وإلهه المزعوم، أما مملكة الساحل فسيمحو أثرهم من الوجود القائد العظيم قاسم أصلان، هذه الأرض ليس عليها سوى إله واحد يحكم بشريعة بني الأزرق، هذه الأرض لي وحدي ولن يكون هناك شركاء لي عليها.

أنهى حديثه ووضع الكأس جانبًا، كادت أن تترجاهه ليشرب ولكن الكلمات جفت على طرف لسانها، تمدد في الفراش وأغمض عينيه تاركًا إياها للحسرة والحيرة والخوف من القادم. عقله كان هائمًا في رجاله وحروبه ومصير مملكته. لم يعبأ بها وبخيبة أملها في ليلة كانت تظنها مناسبة لتجربة ذلك الدواء. الرجال مُملون حين يشغل عقولهم أمر ما، غازي لا يختلف كثيرًا عن أبيها وإخوتها في جزيرة الكستناء، الذكور تفعل ما يحلو لها وقتما تريد، تقدره وتبجله، وكل ما تتمناه هو أن تقر عينه بمولود، لا يهم إن كان ذكرًا أم أنثى، يليق بهذا السلطان أن يبتهج ويفرح، رأته في كل حالاته منتشياً وفرحًا وعميقًا ومخيفًا، ولكن هناك شيئًا ينقصه، تمت له غبطة دائمة ونصرة وعزة. قبلت جبينه واحتضنته واطمأن رأسها على صدره وأغمضت عينيه، أملت أن تسير كل الأمور بخير، غفت.

وفي عتمة نومها رأت وجه جاد الصغير ملطخًا بالدماء،
كان جريحًا وعلى الرغم من ذلك يقاتل رافعًا سيفه ملوحًا به
في الهواء، ثم سقط على وجهه.

استيقظت فزعة مما رأت، شهقتها جعلت غازي يفيق هو
الآخر من سباته، سألها عن سبب ذعرها ولكنها لم تجبه، ناولها
كأس ماء ولكنها لم ترتشف إلا القليل، وحين هدأ روعها قالت
بصوت يتخلله القلق:

- لقد رأيت جاد... قتيلاً.

العُقَاب

في أزد، زُلزلت الأرض، ومادت بالخيل والجند، هزيم الرعد
اقترن بقرقة صمّت الآذان وارتجفت منها القلوب، ارتفعت
الأبصار إلى السماء المسودة، والمطر ثقيل كحجارة تضرب
الرؤوس والبيوت، وأظلمت المدينة وكأن شمس الظهيرة
ماتت ولم يعد لنورها وجود، غرقت أزد في الظلمة، وجيش
بني الأزرق في الداخل يتخبط، قبضت قلوب الرجال وقد
تمكن منها الخوف، راحوا يركضون في كل مكان، ظنوا أن
يوم الدمدمة قد حل، تخبطوا في بحثهم عن سبيل للهرب
من محل الهلاك، البرق يومض والمطر يهطل وقرقات
تتعالى من بطن الأسوار، ومجرى النهر يفيض بطوفان راح
يندفع في الأزقة والشوارع، يضرب جدران البيوت ويجرف
الناس في خضم موجه الهادر. حالة الفزع لم تمنع الماجوني
من النداء في رجاله، حثهم على التماسك وعدم الفرار، ولكن
صياحه ضاع وسط الهياج والهروب الكبير، كانوا يحاولون
النجاة بحياتهم، تخبطوا وسقطوا والماء يعلو رويدًا رويدًا،
ساحة سقف النهر لم يعد لها أثر، والأسرى المكبلون لم
يحاولوا الهرب. حين ومض البرق مرة أخرى رأهم نورين
يبتهلون ويضحكون مستبشرين، لم يدر ما عليه

فعله حيالهم، أراد تحريرهم ولكن إنقاذ نفسه أولى من هؤلاء
المجدفين، ركض إلى أحد المنازل باحثًا عن سبيل للصعود
أعلاه، خاض في الماء الواصل إلى فخذه بصعوبة، كان
سميئًا بعض الشيء ودرعه الحربية تثقله أكثر، أخذ يتحرر
من دروع معصميه وصديريته، وبصعوبة راح يرتقي سلمًا
خشبيًا بالكاد يرى درجاته، تعثر وصدم ساقه، أخذ يسب
ويلعن ذلك الساحر وما تسبب فيه بينما يحاول مجددًا
الصعود إلى أعلى البيت، وحين استقرت قدماه فوق السطح
كانت القرقة التي ترددها جدران أزداد قد توقفت، ظلال
الأسوار الشاهقة ثرى بوضوح، الغيم الأسود صار محمرًا
مضيئًا، وفي الأسفل رجاله ينادي بعضهم بعضًا وقد وجد
الكثير منهم فوق أسطح المباني. الماء ما زال يعلو والأمل
بالنجاة يخفت في صدره وقلوب جنده.

مر الوقت ببطء وراح الرجال يساعد بعضهم بعضًا، تكوموا
فوق الأسطح والخيل ما زالت تسبح مقاومة الانجراف،
الغرقى في كل مكان، وبينما كان نورين يتابع إنقاذ رجاله
توقف المطر ولكن القرقة المخيفة بدأت من جديد تدوي
في الآذان، راحت العيون تدور في محاجرهما، بحثوا في
الأرجاء عن مصدرها وما لبثت عينا نورين أن ثبتت باتجاه
السور الغربي، تحولت الأبصار أيضًا إلى حيث ينظر قائدهم،
ف فوق السد الأول راحت تبرز مشاعل كثيرة، وما لبثت أسوار

أزاد أن أحيطت بتاج من المشاعل تطوق المدينة، وحل
السكون.

كانوا محاصرين، فوق الأسوار الشاهقة للمدينة برز أتباع
إينال، عشرات ينتشرون رافعين المشاعل، الغيوم السوداء
صارت رمادية ولكنها لم تبرح السماء، المطر توقف وكأنها
فرغت وقد أقلت ما بها، والطوفان توقف بعدما وصل
منسوبه إلى ارتفاع ثلاثة أمتار، صار رجال بني الأزرق
معزولين فوق أسطح المباني التي بدت كجزر يحاوطها
الماء ويفصل بعضها عن بعض، السفن الراسية بمجرى النهر
كانت محطمة أيضًا فوق المنازل وقد جرف الفيضان معظمها
إلى أسفل الأسوار، وبضع دجاجات تحاول الصعود فوق
الأخشاب الطافية قرب نورين الذي أخذ يبحث بين الجند
عن صاحبه، وما لبث أن وجدته على بعد ثلاثة منازل فناداه:

- ساري، هل تستطيع القدوم؟

لم يجبه طويل القامة ذو الهيبة على الرغم من البلل الذي
أصابه، أخذ يتحرر من درعه الثقيلة واكتفى بحزام يحوي
غمدي خنجره وسيفه، نزل إلى الماء وسبح حتى وصل إلى
جزيرة صاحبه، ساعده نورين والرجال على الصعود، وما لبثا
أن وقفا متواجهين، وتعلقت بهما أعين جيش بائس منهمك
ومحاصر، لم يدم صمتهما طويلًا، كان نورين أول من تحدث:

- لقد صدق جاد.

- بل ورتنا ذلك الصغير، لا أعلم ما حدث هنا ولا أدري أي سحر هذا الذي سلط علينا. ولكن ما أعياه وأدرکه هو أننا تركنا للهلاك بينما رحل هو وقيدار ومعهم ذلك الساحر الوغد.

- ماذا دهاك يا ساري؟! اخفض صوتك يا رجل، ستفزح الرجال هكذا، أين جلدك وحكمتك؟

تلقت الماجوني بعصبية وهو يحدثه:

- انظر حولك أيها الرجل، لقد تركنا كطعم، والآن أين هو أميرك؟ أخبرني بحق الجاباسكي أين هو بينما الموت يحاصرنا؟ أما سمعت تلك الأصوات المخيفة؟ أما ترى الطوفان الذي توقف فور ظهور هؤلاء الرماة فوق الأسوار؟ سنهلك داخل تلك الأسوار، من لم يغرق فستحصده السهام.

ضاقت حدقتا نورين وتجاوز صاحبه متأملاً الأسوار ناحية مجرى النهر، تسلق مستوى أعلى من سطح المبنى، تعجب الماجوني من فعله وعلى الرغم من ذلك تبعه سائلاً إياه بضيق:

- ما الذي تفعله؟

وقف نورين يدير بصره في أنحاء المدينة ثم توقف مشيراً

إلى بوابات السد الغربي:

- انظر، أبواب وضف السد الأول مفتوحة، أما الغربية فمغلقة تمامًا، تلك كانت خدعتهم، تلك القرقة والأصوات الغربية كانت من أثر فتح وغلق بوابات السد وآبار التخزين، أرادوا إيها منا بأن الطوفان جراء غضب إلههم.

- ماذا عن المطر والسماء المظلمة من بعد إشراق؟

- ربما هي خدعة أخرى لا أعلم ماهيتها، ولكننا سنكتشف هذا لاحقًا.

لم يعجب الماجوني بهدوء صاحبه، حاول ألا يلفت الانتباه إليهما وهو يحدثه بخفوت:

- واهم أنت يا نورين، لن نخرج من هنا أحياء، لقد ألقى علينا ذلك المهرطق لعنته وسنموت هنا.

- سنخرج من هنا فقط عليك أن تهدأ يا ساري، كل ما علينا هو أن ننتظر.

صاح الماجوني:

- ننتظر ماذا يا رجل، أصابت عقلك لوثة؟ ألا ترى من هم على الأسوار؟ حتمًا إنهم الملاعين الذين يسمون أنفسهم حكماء الخالق...

بترت كلماته ونورين يقاطعه بعصية:

- أنسيت أن لدينا زعيمهم؟

- أولم يشع أميرك الغر أمر وفاته؟ سيقتلوننا جراء ذلك، إنهم لا يهابون الموت بل يسعون إليه، ألم ينتحر جبران ثم بدأ كل شيء؟ ذلك الوضع هو من فجر تلك اللعنة، لطالما ردد أن العذاب واقع حين تنزف المقل.

حاول نورين استيعاب ما يقوله الماجوني، يبدو أن الأخير قد فقد عقله، صار مؤمناً بتلك الترهات والشعوذات، تركه يقول ما يريد وذهب بعقله إلى حيث الواقفون فوق الأسوار، إنهم يتحكمون في مجرى النهر وآبار السد وبحيرة التخزين، سيغرقونهم وقتما يريدون، المخرج الوحيد هو فتح بوابات السد الشرقي، إنهم بحاجة إلى معجزة لبلوغ الأسوار، تمنى في قرارة نفسه أن يعود جاد، صوت أزيز خدش شروده، تبعه صوت ارتطام سهم بعمود خشبي بجواره فصمت الماجوني، استقر بصرهما على السهم وما غلق به، لفافة ورق صغيرة، تبادل النظرات قبل أن يمد الماجوني يده آخذاً إياها، فتحها وبدأ يقرأ ما فيها بعينيه اللتين اتسعتا ذهولاً:

اخلعوا ملابسكم وألقوا بما تبقى من أسلحة تغنموا الحياة.

حكيم الدم، سياس بن الأهتم.

حكيم الدم، تلك كنيته التي منحه إياها نبيه، شحاذ متلعتهم
قصير القامة أجدع الأنف فقد كل أسنانه الأمامية، وكان قبل
ذلك إسكافيًا يصنع الأحذية ويخيط النعال، جار عليه الزمن
ودهسته عجلة الأيام، لطالما سخر الناس منه وجعلوا منه
أضحوكة، مجذوب فقد عقله وحياته، جل ما أراد من هذه
الحياة هو العدل، انتظره طويلًا ولم يأت حتى رد إليه النبي
عقله وأزاح عن صدره قَسَمًا كاد يؤدي به إلى التهلكة، بكى
يوم اختياره حكمًا. شعر بالأمان والألفة والأذرع تحتضنه
والأسنة تباركه، وغمرت محبة الخالق قلبه، عهد إليه تجهيز
المؤمنين للقتال، كان لديه دوافعه لينتقم ممن سخرُوا منه
وأهانوه، لذا اختار رجاله بعناية بعد أن رأى صنيعهم في
تدريبات شاقة خضعوا لها فوق الأسوار، نفذوا خطة نبيهم
بإتقان بالغ، كمنوا لأيام في آبار التخزين الجافة، ولما جاءت
الإشارة بهطول الأمطار، علموا أن دماء الحكيم المضحى قد
سالت وأن الدم تفجر من المقل، الخطة كانت تقتضي قتل
السلطان، وفتح حكيم الدم خزانات وبوابات السد الغربي
ليغرق جيش بني الأزرق داخل أزد.

خشي أن يكون نبيه قد أصيب بسوء، لذا أمر ثلة من رجاله
بتتبع الجيش الذي خرج قبل أن ينزل عليهم العذاب،

وإن وعد رسوله حقٌّ، هطل المطر بغزارة وارتجت الدنيا بدوي الهزيم، ونفذ هو جزءه من الخطة، سيطر على السور وقتل جميع حراسه، وانطلق مع رجاله المختبئين في الآبار يفتحون البوابات الحديدية للسد وخزاناته، أغرق المدينة. والآن كل ما عليه هو إنهاء الأمر، أمهل المحاصرين حتى الشروق التالي للاستسلام أو الموت، لم يكن يعرف إن كان السلطان قد هلك بالطوفان، ولا يدري هل كان غازي هو من اقتحم المدينة وتُصبت له في منتصفها خيمة عظيمة أم لا، ولكنه على يقين بأن جبران قد مات. الغضب أكل قلبه، والفقد يذكي الانتقام داخله، سينهي مهمته هنا وينطلق ليلحق بالحكيم الطبيب زاكي.

انتصف الليل وهطلت الأمطار مرة أخرى، الجوع والخوف والبرد داهموا الرجال المحاصرين فوق أسطح المنازل، أمهلهم محاصروهم حتى الشروق، سيمطرونهم بالسهام وربما يلقون عليهم لعنة جديدة، راودتهم أسوأ مخاوفهم، محاطون بالماء وعدو متربص فوق الأسوار، والموت يحوم حولهم في أنحاء المدينة الغارقة، ظل الماجوني صامئًا إلى جوار نورين، لم يكن لديهم أي حلول، منسوب الماء مرتفع للغاية من حولهم، أبواب المدينة مغلقة تمامًا، والبيوت اجتاحتها المياه، لا مكان للاختباء أو المناورة، ساعات وتنتهي المهلة المقررة للاستسلام. وبينما كان سياس يتمم

على جاهزية رجاله عادت فرقة استطلاعها، تلك التي أرسلها لتعقب فرسان بني الأزرق. رمى بصره من فوق الجدار، تسعة أحصنة ترجل عنها فرسانها ودلفوا إلى بوابة البرج، البرق يضوي ليخلق ظلالاً وجيزة، وضوء المشاعل يقاوم الريح وقطرات المطر الناعم الخفيف، انتظر صعود الفرقة ليرفعوا إليه خبر جيش بني الأزرق، بقي طويلاً في مكانه، ينتظر وينتظر. الوقت يمر ببطء والهواء فوق تلك الحافة عليل.

في الأسفل كانت المدينة التي تربي بها، لا يذكر أنه خرج من بواباتها يوماً، شب وكبر في ورشة حدادة يصنع الحراب والسيوف، ينفخ في الكير ويلفح وجهه شهد الحريق، يعيش مع زوجته وابنتيه، يداوم في ورشته من الشروق وحتى المغيب، وأزاد سوق ومقر رزق وفير. كل شيء في حياته تبدل يوم عاد إلى منزله قرب درب النهر بضفة المدينة الشرقية، في ذلك النهار أدرك أن سنوات عمره التي انشغل فيها بعمله لم يكن لها جدوى، كيف لرجل أفنى حياته من أجل أسرته أن يحظى بتلك اللحظة التعيسة؟ هربت زوجته مع عشيقها وأخذت البنيتين معها، جن وبحث عنهن كثيراً، أقسم أن يقتلها ويستعيد ابنتيه، جاب الدروب وبقي قرب الميناء يلتمس أي خبر عنهن، أخذته السنون وغلبه الجنون، الانتقام تحول إلى استجداء، صار متسولاً يجوب شوارع المدينة التي لا يعرف سواها، ينام تحت الجدران

ويستلقي على جانب الدروب، أضحى نحيلاً، أخذته السنون
وغلبته نفسه، استسلم للحياة حتى رآهن مرة أخرى، لم
يصدق عينيه، حينها اخترق صفوف الناس ليصل إليهن،
كبرتاً وتبدلت ملامحهما، وأمهما تقف إلى جوار عشيقها.
ما هذا الجمع وإلى ماذا ينصتون؟ ما الذي أتى بابنتيه إلى
هنا؟ والتقت عيناه بعيني الخائنة الهاربة، جفلت وارتعدت
أوصالها، ارتعشت وجنتاها، نعم هي... تدفقت الذكريات
والآمال والخيبات وقسم دم يجب أن يسال، رفع عصاه
ودفع الناس في طريقه إليها، هي وعشيقها من جعل حياته
بأئسة، سلبه ذلك اللعين أسرته التي نسي نفسه من أجلها.
القسم سيبر والدماء ستسيل، وبرز أمامه من العدم إينال
الرسول، تلقى الضربة على رأسه وتفجرت الدماء، شهقت
الحناجر وجحظت المقل، تعدى المجدوب على المهرطق،
هكذا بدا الأمر للعامة من حولهم، والعجيب أن النبي لم
يسقط، سالت دماؤه ولم يسقط أرضاً، وسياس يتطلع إليه
بدهشة، غمغم متلعثماً بكلمات مبهمة، وتعال الصيحات
من حول الرجلين، أرادوا أن ينشب قتال بينهما أو يسقط
المجدف إينال، ولكن الأخير حدث ضاربه بنبرة رخيمة باردة:
- سالت الدماء كما أقسمت يا سياس بن الأهتم، أعيد لك
عقلك وأحلك من قسمك باسم الخالق المجيد.

المرّة الأولى التي يتقابلان فيها، لم يرَ أحدهما الآخر من قبل، فكيف عرف اسمه وأمر قسمه؟ وما لبث أن أفاق على الناس ترشقهما بالحجارة والخضراوات الفاسدة، وظهر القائم مقام جبران لينقذهما من العامة الغاضبين، واختفت زوجته وابنتاه بين الحشود مرة أخرى، ولكنه خرج من تيه الدنيا الزائلة إلى رحاب الخالق المجيد، صار حكيم الدم، خادم القدير وسيفه المسلط على الطغاة.

طال انتظاره ونال الملل منه، ألقى الذكريات عن عقله ودار بعينه في أنحاء السور العظيم محدثًا أحد الرجال بالقرب منه:

- انظر وأخبرني، ما الذي أخر فرقة الاستطلاع في الصعود إلى هنا؟

وقبل أن يتحرك الجندي لتنفيذ أمر الحكيم، دوى في المكان صوت يصيح:

- بنو الأزرق هنا.

«ما زلت ليئنا يا فتى».

جملة علقت بوجدانه، تداهمه كلما تأزمت الأمور من حوله،

يذكر تلك الليلة التي بات فيها وعلى صدره جثة باردة وقد فرغت عروقها من الدماء، كان السلطان قد نصحه بعدم مجاراة شهواته، ألا ينقاد قلبه إلى الوهن وحب النساء، لم يكن يريد عطفًا رقيق القلب، ما جاء به من مرتفعات الصقور إلى عش العقاب ليكون مدللًا، بل ليصير محاربًا لا يخضع إلا للواجب.

قُتلت من هواها فؤاده، دُبحت بينما كانت تمتطي قضيبه، هطلت الدماء على وجهه وصدره قبل أن تهوي الجميلة فوقه، انتفضت وارتعش جسدها وعيناها جامدتان تحديقان فيه، دماؤها اللزجة الساخنة أغرقته، حاول النهوض فزغًا خائفًا ولكن وجه السلطان ثبتته، كان قاتلها.

لم يكن عليه أن يهوى، أن يترك قلبه لتتلاعب به جارية كما قال السلطان، ظن منذ زمن أنه توقف عن ملاحقة الماضي، ليس هربًا، ولكن مضيًا إلى الأمام، أدرك أن ما انتهى لا يعود مجددًا، لم تعد نظرتة للحياة كما كانت، فرغ غضبه في تدريباته ودروسه القاسية، تفنن في إبهار معلميه، واستطاع أن يهزم سليمان ناب في مبارزة أشرف عليها قاسم أصلان وراجي صائد الذئاب، وفي وقت خلوته كان يركن إلى جان الصقار، الذي علمه الكثير عن العقبان والصقور وجوارح السماء، وصار يعي جيدًا الحكمة من قدومه إلى هنا، وضع

في طريقه الكثير من العقبات والاختبارات، وكان تلميذًا نجيبًا، لا يحظى الكثيرون بمثل فرصته، جاد ابن راعي الأيائل صار مرافقًا للسلطان وزمرته، يظن العامة أنه ابن غير شرعي لغازي، ويحسده الفرسان على موقعه وما يحظى به من نفوذ، أطلقوا عليه لقب «جاد الصغير» سخرية منه، ولكن العامة والخاصة وجدوا فيه تيمناً بالعقاب المعظم. حامل لواء وراية سلطان بني الأزرق، أمير مرتفعات الصقور الذي لا يهاب شيئًا، قاتل لا رحمة في قلبه، ينفذ ما يوكل إليه، صنعه السلطان لنفسه وتفنن في صقله ودعمه. ولكن ما ظنه الناس قاتلاً بلا عقل ولا قلب، كان شخصًا يفكر ويتأمل كل شيء، مدرغًا لما يدور حوله، ينشد الوصول إلى حقيقة الناس ودوافعهم، مؤمنًا بمنح فرصة للمذنبين قبل الحكم عليهم، مخالفًا ما علمه سلطانه.

قتل سيده حبيبته، ولكن شمس الشموس نجحت في مواساته، طلبته في كشك الشمس خاصتها أكثر من مرة، تحدثت عن طيورها ونباتاتها الفريدة، ومنحته حكمتها البسيطة في الحياة، إن ما نفقده وما فاتنا يصنع ما نحن عليه، وكلما مضينا في درب الحياة كما اخترنا، لا نستطيع أن نعود لسيرتنا الأولى. أوصته بأن يبقى دومًا إلى جوار السلطان وأن يطيعه وينفذ كل ما يأمره به، ولكن عليه أن يجعل لعقله ولقلبه سبيلًا للحقيقة قبل فعل أي شيء، وهذا

ما فعله حين قرر مغادرة أزد.

أيامه التي قضاها داخل أسوار المدينة كانت زاخرة بالمفاجآت، إفادات الأسرى ومحاولات فهم ما وجدته نورين في قبو سهيل الأزادي، راجع أيضًا كل تلك الأوراق والمخطوطات من بيت المدعو ذاك، استمع إلى ما قالتها النسوة عن أبنائهن الذين أغواهم المجدف إينال، أولئك الذين رحلوا عن المدينة من دون أن يعرف أحد وجهتهم، كان عليه إيجادهم، وفوق كل هذا كان يعلم علم اليقين أنه داخل فخ نُصب بإحكام، وحين راجع الأوراق من بيت سهيل كان بها العديد من الرسوم عن جدران وسدود وآبار المدينة.

لقد ضُمت أزد لتكون هويًّا، حوز تنتقل فيه السفن من منسوب مرتفع إلى آخر منخفض، حيث تقع في منخفض بين هضبتين يجري بينهما نهر التاج مندفعًا، عاين تلك الرسوم جيدًا وتذكر كل كلمة قالها إينال، كان يکید لهم هو ورجاله، لذا أرسله إلى السلطان لينظر في أمره، أشاع أمر موته في المدينة وبين الأسرى، أحكم وثاقه وتكميم فمه وألبسه درعًا كبقية الفرسان، الخوذة أخفت وجهه عن أتباعه وبقية الناس، وبين زحام الخيل والفرسان ثبت إينال المكمم على ظهر جواد حربي، وكاد المهرطق يفشل خطته حين ألقى بنفسه عن صهوة دابته، لم يكن أحد يعرف ما يحدث إلا قلة

من القادة، وحسب الجند والأسرى أن فارسًا من بني الأزرق أصابه صرع، وسرى بين الجموع أن تلك لعنة النبي على أعدائه، وبينما كانت كتيبة قي دار تمضي إلى الشمال حاملة معها الأسير الثمين، وكما توقع جاد تعقبهم رهط من أتباع النبي، وكان العقاب في انتظارهم.

كمن لهم فوق أعلى ربوة رملية، وهبط عليهم رفقة رجاله، فتكوا بهم سريعًا إلا واحدًا منهم، كان ثمن حياته هو أن ينطق بما يعرف.

الناس تخشى الموت، أما جاد فيصاحبه، يأتي معه أينما حل، وفارس بني الأزرق الصغير صار له تشريع خاص به، يقضي بالمنية ويؤجلها بل ويمنح سبلاً للعفو، إن أراد من يجابهه ذلك. ذكاؤه ينعكس في مرآة عينيه الزرقاوين الواسعتين، وملامحه الباردة لا تشي بأي مشاعر، الغموض الذي يعتري كيانه كافٍ لبث الخوف في أعدائه، كانوا ينوون إغراق جيش السلطان، عمال الأسوار والسدود لم يكونوا سوى أتباع إينال، وإشارتهم كانت هطول المطر وليس موت نبيهم. حتى إن مات فهناك من سيدبرون الأمر من بعده، حكماؤه السبعة. اللعنة على هؤلاء المجدفين، ماذا يريدون من كل هذا؟ سؤال سابق لأوانه بالتأكيد، الآن كل ما عليه هو إنقاذ رجاله وسمعة جيش بني الأزرق قبل أن يغرقها

نخبة مقاتلي بني الأزرق حضروا مع صيحة الإنذار الأولى، وقبل أن يكررها الصدى برز تسعة رجال، يرقص على نصالهم الدم وضي المشاعل، حدق سياس ذاهلاً في الرهط الذين أمامه، كانوا يرتدون ثياب رجاله ودروعهم الخفيفة، يتقدمهم شاب يافع مغتر، ابتسامته الساخرة ونظرة عينيه كانتا إعلان نصر، بهذه البساطة هُزم الإسكافي ابن الأهتم في أولى معاركه، وعده إينال بالنصر ولكن لبني الأزرق وأميرهم الشاب رأياً آخر، استطاع جاد الصغير أن يوقع بفرقة الاستطلاع التي تبعت جيش قيدار، وبدلاً من أن يرجع رجال سياس جاءه العقاب الصغير بنخبته المكونة من تسعة مقاتلين لا مثيل لهم، دلفوا إلى السور وقتلوا كل من صادفهم في صمت حتى كشف أمرهم، وها هم يقفون أمامه شاهرين الموت.

- ألق سيفك، واستسلم أنت ومن معك.

قالها جاد بحزم يليق بهيئته الدامية، الهواء يلعب بالراية السوداء ونجمتها البيضاء، ابتسم سياس ساخرًا وهز رأسه قائلاً:

- ملككم زائل يا بني الأزرق.

سحب سيفه وطرق رقبته يمينًا ويسارًا:

- هلم يا فتى لمعانقة سيف حكيم الدم.

- وقع ألقابكم مضحك يا هذا، ما زال أمامك فرصة للبقاء على قيد الحياة، نحن منصورون أينما حللنا.

- أتفن عليّ بحياة ذل ومهانة تحت رايتكم؟ لا أريدها، أنا من يفر الموت من أمامه، أنا حكيم كل ما يُراق على هذه الأرض من دم، وهبت روعي للخالق المجيد مانح الخلود، هيا أيها الوثني الصغير تعال لأريق دماءك وأبر بقسمي، واجهني رجلًا لرجل.

أرادها سياس مبارزة فردية على الرغم من أن من يتبعه من الرجال يمثل ضعفي من يتبع جاد، وكان الأخير مستجيبيًا، انتظر حتى أتم الرجل كلماته، وأظهر للعيان كم هو ماهر في رمي السيف، لم يستغرق الأمر سوى لحظة وانتقل الحسام من يد الشاب مخترقًا صدر الحكيم، وتفجرت الدماء، هوى أرضًا والنصل مستقر في صدره، وبهدوء الواثق سار الأمير نحو صريعه الغارق في دمائه، مشهد لم يكن يخطر ببال تابعيه الذين ثبتوا محاجرهم على قاتل حكيمهم، اقترب منه وانحنى متفحصًا إياه، لم يقوَ الرجل على النطق

والدماء تسيل من بين شفتيه، خانه لسانه وعجزت عيناه عن حجب دمع الروح المفارق للجسد، تألم وجاد يمسك بمقبض سيفه ويبدأ في سحبه بهدوء محدثًا إياه ببرود:

- منحتك فرصة للتراجع والاستسلام، والآن مت على مهل، وخذ كفايتك من أنفاس الحياة، وأخبر إلهك إن وجدته أن عقاب بني الأزرق سيلاحقه أينما كان، استمتع بالموت ففي الصباح ستكون جيفتك وليمة للنسور والغربان.

رَبَّت على صدر سياس المحتضر بلطف وابتسم، ونهض تاركًا إياه يلفظ آخر أنفاسه، والتفت مواجهًا ببصره بقية رجال ابن الأهم المحتضر تحت قدميه، فزع المؤمنون وأرهبهم الأمير الشاب بفعله، إنه رجل لا يخشى شيئًا، اكتفى بإلقاء نظرة خاوية عليهم فألقوا أسلحتهم أرضًا، امتثلوا إلى قوات بني الأزرق التي راحت تظهر فوق الأسوار وضج بهم المكان، وحين استتب الأمر للأمير وجنده أشار لهم بالبدء، فما كان منهم إلا أن راحوا يلقون أتباع إينال من فوق الأسوار بغتة. لم يتوقع المؤمنون هذا المصير، لم تفلح توسلاتهم واستجداء العفو والرحمة، لم يلاقوا إلا الوحشية والموت، صرخاتهم رددتها الجدران وتناهت إلى مسامع المحاصرين بالأسفل، بينما يقف فوق السور منقذهم الأمير جاد الصغير، عشرة أجساد هوت من فوق الأسوار قبل أن

يتوقف الأمر. أبقى الأمير على عدد من الأسرى شريطة أن يتحدثوا وينطقوا بكل ما يعرفونه، وجثا الرجال راكعين أمامه ينشدون العفو.

طرب قلبه بانتصاره الثاني على المهرطقين، كان يعلم ما يفعل، نجح في فك الحصار عن رجاله بل وصار تحت قدميه جزء كبير من خطط الدجال وأتباعه، بادر الجند بفتح السد الشرقي، ودوّى صرير البوابات العملاقة، انفتحت ببطء وانسابت المياه بروية، وما لبثت أن اندفعت فيضاً إلى مجرى النهر الضحل، تجرف معها حطاماً وجثث الناس والحيوانات النافقة، وأخذ الجند ينتشلون القتلى وما خف حمله من مقتنيات، خاضوا في الوحل والحطام والرائحة النتنة، ساعدهم بعض من أهل المدينة المكلومة، وحملوا أجساد ذويهم وأناساً كانوا يعرفونهم من قبل. تابع بنفسه إجماع الجند والناجين من العامة إلى خارج أزد، وحين التقى بفرسانه من جديد، انحنى له الماجوني واحتضنه نورين.

أقام الأمير بجيشه خارج أسوار أزد، أيام مرت أشرف فيها على سير العمل في المدينة الخربة، جاب دروبها ودلف إلى منازل المطاردين، ساعده نورين بهذه المهمة بينما كان لدى الماجوني فرصة لاستجواب رجال سياس بن الأهتم، وفي خيمة القيادة وأمام خريطة ملك بني الأزرق وقف جاد يتأمل

الرسوم، مر على تلالها ودروبها، مواقع المدن والحصون،
وعين الشمس، أخذ يفك عقد الخيوط المتشابكة في رأسه
مغمغماً:

- المهرطق في طريقه إلى عش العقاب تحت حراسة قياد
المشددة، وأزاد صارت آمنة بعد مقتل اثنين من حكمائه،
تبقى خمسة، وأنا أعرف أسماء ثلاثة منهم؛ مخمرية بنت
جبران، والطبيب ذاكي، وبدر بن حمدون، جميع الأسرى
أجمعوا على تلك الأسماء، هناك اثنان لا يعرفهما أحد.

تواترت الأخبار من جيات البرق على مدار يومين، اقتفوا
آثارًا لمجموعات من الناس قرب طريق المهدي، خيموا قبل
ليلة في كهوف تلال الشمس، ومجموعة أخرى بينها أطفال
ونساء اتجهوا شرقًا، وقف أمام النصب المعاد رفعه، حيا
العقاب الكبير بنصف انحناءة، سُمِّي تيمناً به، ونال حظه من
اسمه، لعل معظم جاد ذا العين الزرقاء يجلس في نعيم
الإله مشاهدًا لما يحدث على الأرض، يمدده بعونه وبركاته،
من يعلم ربما يأتي زمان وتنصب له تماثيل كهذه. ما زال لغز
اختفاء سفن سهيل الأزادي يحيره، وجب عليه أن يفكر في
خطوته التالية جيدًا وسريعًا، ما زال هناك جموع من أتباع
الرجل طلقاء، تداهمه بين الحين والآخر الرغبة في اللحاق
بقاسم أصلان، ولكن مهمته في أزاد لم تنته، أرسل الماجوني

على رأس ثلاثمائة فارس، يجوبون الشرق بحثًا عن أولئك الفارين، ونورين سيبقى مع حامية أزد لتأمين المدينة وإعادة إعمارها، أما هو فكان ينوي الذهاب إلى تلال الشمس لملاحقة البقية.

طراً أمر جلد؛ أمسك رجاله بأحد المهرطقين، كان يراقب المدينة من جهة السد الشرقي، تمنى جاد لو كان الماجوني هنا ليستجوب الرجل العنيد، وكان على الأمير استخلاص كل كلمة من الرجل، الذي فقد كل أصابع يديه إلا إبهام يسراه، قطعها جاد واحدة تلو الأخرى، حتى نطق الرجل وقد أراقوا عليه دلو ماء بارد:

- عقلت سفننا في النهر قرب المصب في خليج القراصنة، كان عليّ العودة لطلب العون ورؤية ما حل بأزد.

سأله جاد:

- من أمرك بالعودة؟ وإلى أين كنتم ذاهبين؟

غمغم الرجل والإعياء ينال منه:

- الحكيم مرجان التاجي، والحكيم بدر بن حمدون ألواندي، كان علينا بلوغ البحر كما أرشدنا نبينا. إينال أين أنت؟ أين وعد الخالق المج...

لم يتم الرجل كلماته، غاب عن الوعي وفشلت كل محاولات إفاقته. ما قاله كان كافيًا لينطلق العقاب الشاب إلى صيده.

ثلاثتهم

كفر البردقوش.

بهتت شمس الزوال، خف ضياؤها وبدت أكثر شحوبًا، حزن مس قلبها الملتهب ففتر، انفضت السحب بعيدًا، واختنقت الأجواء ولم يعد لتيار الهواء أن يتدفق، الرايات ارتخت على الصواري، وفوق برج الحصن وقف ساكنٌ جداره يلتهم صيده، عصفورًا بئسًا قاده القدر إلى تلك البقعة التي يطوف بها الموت، نقر الصقر بمنقاره المعقوف صدر العصفور، فانتفض الأخير والروح تفارق جسده الضئيل، ثقب صدره وتناثر الريش، والجراح يستطعم قلب فريسته، أكل الأحشاء على مهل متلذذًا من دون أن يبالي بذلك العراك الدائر في ساحة الحصن، لم يؤرقه صليل الأسلحة المصطكة وأخذ ينهي وجبته، تبقى من النغير رأس مغمض العينين وريش مخضب بالدماء وبقايا عظم ولحم، تمطى فاتحًا جناحيه مستعرضًا بهما، وما لبث أن خفق بهما ليرتفع إلى الفضاء الرحب، جاب السماء مبصرًا البيوت الضئيلة والحقول الشاسعة، انزلق مع الهواء تاركًا جسده الخفيف يمضي مع التيار، يرقب بعينين ثاقبتين سحابة من غبار كانت تعلو

مسير حشود قادمة من الجنوب، دار في الهواء بضع دورات قبل أن يتجه نحوهم، مر فوق الرؤوس والرماح والرايات الملونة، يسيرون بانتظام على الرغم من تفرقهم، رفر ضاربًا الهواء ليعبر من كثافة الأتربة والغبار، ارتفع وطار ليسبقهم عائدًا إلى جدار النخيل، حلق فوق هاماتها الباسقات وهو يرى البوابات تغلق والجند يندفعون إلى الأسوار، حط فوق سعف نخلة قريبة من السوق، طار الحمام فزغًا منه، لم يأبه له وأخذ يراقب ما يحدث على الدرب المؤدي إلى بيت الحكمدارية والسوق؛ الناس يهرعون إلى بيوتهم والجند يحثونهم على الابتعاد عن الأسوار، الهياج والهلع عمًا الكفر وما لبث أن خفت الضجيج وختل الطرقات، أخذ يلحق ويمشط ريشه بمنقاره المخضب بالدم قبل أن يطير مرة أخرى باسطًا جناحيه البنيين نحو الحصن الكبير، عبر فوق البحيرة الراكدة وبين أعمدة القنطرة ثم ارتفع حين اقترب من التلة، لف حول البرجين العظيمين وما لبث أن هبط بقائمتيه الصغيرتين فوق حافة عشه الذي لم يكتمل بعد، حرك رأسه في شتى الاتجاهات قبل أن يستقر بصره على ساحة السكون والوجوم. حين غادر المكان قبل قليل كان القتال محتدمًا بين رجلين، والآن شخص واحد يقف ممسكًا نصلين يقطران دمًا، وتحت قدميه جثة هامة وقد زفر صاحبها آخر أنفاسه، خوار عميق كان آخر ما سمع بعد

أن سقط على وجهه، ومن حوله تمدد ببطء لون أحمر قانٍ راح يتوسع رويدًا رويدًا، دماء ساخنة لم يتوقف تدفقها من جرحين في جانبيه، الحاضرون كانوا كتماثيل جامدة الملامح، ثقلت مقل بالدمع وخفتت نبضات القلوب زهولًا، وسكنت الجوارح حدادًا وتأبينًا لمن كان عفوه حاضرًا على الرغم من مقدرته على الانتقام، نبيلاً على الرغم من انتصاره الذي لم يتم، وما يحسبه البعض نبلاً يراه آخرون سذاجة وحماسة، وعلى المرء أن يدفع ثمنًا لكل اختياراته سواء كانت من المروءة أو الخسة، نال البرغوث من القرش، قَتَلَ بياض.

تخطاه قاتله باصقًا الدماء وبقايا ناب مكسور، لم ينظر باتجاهه وواصل المسير بخطوات واهنة ثقيلة من أثر ما حاق به، حاول تجاهل آلام جسده المسجى وألا يظهر أمام رجاله ضعيفًا، مشى يعرج بينما يمسح نصليه، واحدًا على فخذة والثاني على صديريته، وبوجه دامٍ وعين نصف مغلقة وقف مراقبًا توافد فيالق جيش الأعداء الذي راح يستقر خارج سور النخيل، اختلجت أنفاسه بآلام تغزو صدره، خر أرضًا، مادت به الدنيا، إلا أنه ملك ما تبقى من قوة، أبى أن يشهد أحد سقوطه حتى وإن كان رغبًا عنه، وكانت روزاليندا أول الواصلين إليه بعد هرولة واسعة تخطت فيها جسد بياض الصريع وهي تمسك بأطراف ثوبها حتى لا يتلوث بالدماء، وما إن جاءت حتى احتضنته باكية، استند على

كتفيتها بعد أن أعاد خنجره إلى غمديهما، كان بحاجة لمثل هذا العناق، تعلق بها كي لا يسقط وراح يتطلع إلى وجهها الجميل المرتاع، وبيد مغطاة بالدماء مسح الدمع عن وجنتها ملطخًا إياها، تأملت حاله بأسى وقد تورمت إحدى عينيه وامتلأت جنبات وجهه بالكدمات والجروح النازفة، سألته:

- أنت بخير؟

لم يجبها وهو يدور ببصره في أرجاء المكان حتى استقر عند الحكمدارة وخادمها الأسود رشوان، يتهامسان فيما بينهما، وفي الجانب الآخر كان الأسرى غارقين في بئر حزن يغلفهم صمت ران، سيرين فزعة مرتاعة، وكونوا تحاول أن تدفع بالدمع بعيدًا عن مقلتيها وفشلت، انزلت قطرة وتبعها سيل دافئ لامع على وجنتيها. مات بياض القرش غدرا في سبيل حياتهم وحريرتهم، رحل مخلصهم الذي كانوا يأملون، ومن دون خوف وجدت لسانها ينطق متممة بأنشودة قديمة حفظتها بمشاهدة الجدات، ولكن الكلمات كانت مختلفة هذه المرة وصوتها يعلو رويدًا رويدًا ليهيمن على المكان:

محارب جبار، قاهر الظلام

للخير عاش بياض

ناصر الضعفاء

والشر أسود القلب

غادرًا لا يعرف الأصحاب

لن ننسى من مات من أجلنا

لن ننسى أبدًا بياض

سرت الهمهمات بين جموع الأسرى، الأمر الذي جعل سعد يصيح في رجاله منادياً بغضب:

- اجعلوهم يصمتون، أعيدوهم إلى غياهب السجن مرة أخرى، حتى تفرغ مما نحن بصدده.

راح الجند يضربون بسياطهم الهواء وظهور الأسرى، ساقوهم إلى محبسهم أمام بصر رقية التي كانت تتابع ما يدور في الساحة أمامها، وما لبثت أن التقت مقلتها مع القائمقام المتأبط ذات الشعر الأحمر، تدرك أن الواقع لا مفر منه، وأنها حين قررت الانقلاب والإطاحة بزوجها لن تعود الأمور لما كانت عليه، عليها أن تمضي قدمًا كحكمة وأميرة لحقبة جديدة، قامت عن كرسيها وتجلى أمام بصرها ذلك الجيش الضخم المحتشد في الأفق خلف جدار النخيل، نال منها الوجوم وشيء من رهبة، وما زالت أعدادهم تتزايد، ها هي على مشارف حرب حقيقية عليها أن تخوضها كحاكمة لكفر البردقوش، وبينما كان سعد يقف بين رجاله مع غانيتها

يعطيهم الأوامر، مالت هي محدثة رشوان:

- قم بتجميع فرقة من حملة البنادق حولي أينما ذهبت،
وادعم البوابة الجنوبية بكل رجالك، علينا أن ننتصر مهما
كلف الأمر.

أوما مساعدتها الأمين برأسه وهي تتابع:

- رشوان، اسحب كل من يستطيع القتال إلى الجبهة
الأمامية، على أهل الكفر أن يذودوا عن ممتلكاتهم وحياتهم.
- سيدتي، ماذا عن القائمقام؟ أليس من الأفضل أن نشاركه
خططنا؟

- نفذ ما أقوله لك يا رشوان، ودع البرغوث يصنع ما يشاء
بعد ذلك.

لم تكذ تتم كلماتها حتى جاءها سعد رفقة محظيته، هزت
رقية رأسها ورسمت على شفاها بسمه لم تخل من القلق
وهي تحدثه:

- أبلت حسناً.

أوما برأسه مبتسماً على الرغم من حالته الرثة:

- سيكون عليك البقاء في الحصن حتى نرى ما سيحدث.

- هل هؤلاء أتباع الذئب؟

- سنعرف من يكونون حالما نواجههم، ولكن حتى تلك اللحظة سنبقى داخل أسوار الكفر، لن نستطيع هؤلاء الهمج البرابرة الولوج إلينا.

حدثه رشوان بنبرة يعتربها التوتر:

- كيف عبرت كل تلك الحشود خندق السراب والجسر كما ذكرت تحت قبضة جيش بني الأزرق. كيف جاءوا إلى هنا؟
أعرض سعد عن إجابة سؤال رشوان وأكمل حديثه لرقية:

- لدينا ما يكفي داخل الكفر من مؤن وزاد، وهؤلاء الرعاع جاءوا عبر صحراء قاحلة ويحتاجون للراحة قبل أي معركة.
رفعت حاجبها وتبدلت تعابير وجهها:

- ستتركهم يرتاحون ويحكمون حصارنا؟ هكذا ستدير الأمور؟

- ماذا عليّ أن أفعل؟

- تخرج وتقاتلهم وتجليهم عن أرضنا.

ضحك سعد متغلبًا على ألمه وأفلت ذراع رفيقته الصهباء، واقترب خطوتين منها ولم ينزل عينيه عن وجهها وهو

يحدثها:

- لا تقلقي أيتها الحكمدارة، رجالي سيقومون بفعل اللازم، وإن طال بقاؤهم في الخارج فسيهلكون لا محالة، ما زال لدينا جيش قاسم أصلان في الجنوب، ربما يعود ويمحو أثرهم قبل أن نخرج إليهم نحن، كل ما عليك هو أن تبقي بأمان، واتركي أمر محاربتهم وإجلائهم لي. إن كنتِ تودين البقاء هنا فلا بأس بذلك، وإن رغبتِ في النزول إلى بيت الحكمدارية فلكِ ذلك، الأمر عائد إليك، وآخر ما يقلقك هو أمر هؤلاء المحتشدين خارج أسوارنا.

بدل وجهه إلى رشوان وأردف:

- أما أنت، فسيكون عليك البقاء قربي دومًا. فأنت أعلم أهل الكفر به.

لم يرق لرشوان تلك الطريقة التي حدثه بها سعد، ولكنه أوما برأسه موافقًا، أما رقية فكانت شاردة تحاول استشراف المستقبل القريب، لهجة البرغوث لها كانت تحمل الكثير من التأويل، لن تأمن وجودها بالأسفل بيت الحكمدارية، الحصن أكثر أمنًا، ستبقى هنا، هذا كان قرارها، أفاقت من سباتها حين مضى سعد وروزاليندا بعيدًا عنهما، تركاها إلى جوار خادمها الحائر هو الآخر ومن حولهما راح الجند يتحركون في صفوف باتجاه القنطرة وباب الحصن كما أمرهم قائدهم

نفق حجري مظلم تبددت عتمته بفعل قنديل ذي فتيل عتيق، يقطع بشرر وهو بالكاد ينير موضع الخطوات، ولا شيء يكسر خواء الصمت إلا حثيث أقدام السائرين. ذئب ودرويش وحكمدار، اتخذوا سبيلهم عبر سراديب الكفر القديمة، يرجو كل منهم الخروج من ضيق الممرات الرطبة إلى رحاب الدنيا والنور مرة أخرى، عينا ذهب الشهلاوان كانتا مضيئتين بقبس من اللهب، تقدمهم بحذر لم يخل من خفة ورشاقة على الرغم مما ألم به من آثار عضات كلاب الصيد البائسة التي فتك بها، خلفه كان شاهين بن عز الدين سليل بني شمس، حكمدار معزول وزوج مغدور، آه من الحياة التي لا يستوي لها شأن، أضحى سجينًا فارقًا من بعد عزة ورفعة، وراءه كان صاحب الذئب الأشعث ذو اللحية الكثيفة الذي اقتحم محبسهم رفقة أمينة، أرشدته خوفًا وطمعًا في الحياة، لذا تركوها خلفهم مقيدة ومكمنة الفم داخل الحظيرة، لا يثق بها شاهين الذي وجد فرصة نجاة لا تعوض، ففي أشد اللحظات يأسًا وخوفًا صار عدوه مخلصه، بل وحليفه الجديد حتى إشعار آخر.

الضوء في نهاية النفق صار قريبًا، يتسلل من حواف البوابة

التي ستخرجهم إلى رحابة الكفر، يعلم كل ركن في هذه السرايب، حفظها عن ظهر قلب منذ كان صغيرًا. هنا في زاوية ما داخل هذا النفق خبأ بعض بنادقه التي سلبها من سلطان بني الأزرق، وهنا احتفظ جده وأعمامه بكنز أسلافه، آخر ما تبقى من إرث بني شمس، صندوق كبير عتيق لطالما جاء ليرى محتوياته أملًا في اليوم الذي سيخرج بها إلى العالم، في هذه العتمة ولد حلمه بعودة إمبراطورية الشمس، مرت تفاصيل الحكاية على عقله وتوقف عند تلك اللحظة التي رأى فيها زوجته في الحصن جالسة على عرش صنع خصيصًا لها، اعتصر الألم قلبه حين تذكر وقت جاءته لتشمت به وهو خلف القضبان، وها هو يخرج مجددًا للحياة، سينتقم منها ومن جميع الخونة، ولكن كيف سيفعل هذا بلا جاه أو سلطان؟ خانه كل رجاله، غمغم في قرارة نفسه: «يا ليت لي من كزة»، توقفت قدماه قبل بلوغ باب النفق، اصطدم به من ورائه وكاد النصل يغرس في ظهره، توتر الذئب والتفت مزمجرًا، وصاحبه يهمس لأسيده:

- لماذا توقفت؟

بحدة أجاب شاهين:

- هل سنفتح الباب ونخرج هكذا؟

- لقد أتيت من هنا مع خادمك...

قاطعه شاهين بفضاظة:

- هذا المخرج سيفضي بنا إلى فناء منزل قديم في الساحة المؤدية للسوق، وتقول إنك جئت عبر هذا الباب، إذن فأنت تذكر الزحام خارج سور حديقة البيت المهجور، حتمًا سيرانا أحدهم، لا أعلم كيف علمت أمينة أمر ذلك المدخل، ربما تبعثني ذات مرة خلال تجسسها، ولكنه من حسن حظي وحظك أنكم لم تدخلوا لمتاهة الأنفاق.

- لا أفهم ما تقول.

- هذا السرداب له أكثر من مخرج كجحر الأرناب البرية، وهناك ممرات بها ردم وتسرب ماء من البحيرة.

حرك برهان خنجره على جدار النفق محدثًا مرشده:

- ماذا إن كانت تلك خدعة منك؟

- يا رجل، لقد وجدته حبيسًا وأخرجتني، إننا ننشد الغاية ذاتها، سيكون عليك الثقة بي يا صاحب الذئب. سنذهب إلى بيت الضيافة عبر ذلك النفق.

ألقى كلمته الأخيرة وهو يخطو للأمام، كشر ذهب عن أنيابه والزيد يسيل من بين شذقيه، انتصب شعر ظهره وبدا متوحشًا، فما كان من الحكمدار إلا أن تراجع للخلف مرة

أخرى، ورمى طرفه نحو برهان من دون أن يدير وجهه:

- يبدو أنني لا أروق له، أو أنه لا يصدقني.

- ربما، احذر غضبته، إنه يعلم ما يضمرة البشر.

تفحص شاهين الذئب الذي بادلته النظرات قبل أن يستدير ويتركهم ماشيًا داخل الظلام وصاحبه يستطرد:

- ماذا سنفعل بعد أن نتوجه إلى ذلك المكان، أهو آمن؟

- لا أعلم إن كان آمنًا أم لا، كنت حبيسًا وليس لديّ دراية بما يحدث في الخارج، أنت القادم من الخارج.

- الجند ينتشرون في أرجاء الكفر.

- حسنًا، أين ينتظرك رجالك؟ هل عددهم كبير؟

لم يجب برهان، ليس لشيء ولكن ماذا عليه أن يقول؟ إنه جاء وحده في أثر بياض، حدث نفسه: «ليت سلام وكتيمبي يستطيعان السيطرة على جسر السراب والمرور بلا خسائر، لا بد أنهما في طريقهما إلى هنا مع جيش غابة الظلال»، ماذا عليه أن يفعل داخل الكفر؟ بياض لم يكن في أي زنزانة داخل ذلك القبو، انتشله صوت شاهين من عتمة خياله:

- أنت، هل سنمضي أم سنبقى هنا حتى يحترق ما تبقى من

زيت القنديل؟

أوما برهان:

- أين ذلك الممر الذي سيقودنا إلى حيث تقول؟

- اتبعني، ولكن ألن يأتي ذئبك؟ أخشى أن يخرج فيفضح أمرنا.

- سيتبع أثرنا.

لا حديث يذكر بعد الكلمات المقتضبة، خاضا في غياهب الصمت وجدران تضيق وتتسع، لم تكن كتلك التي كانا يسيران عبرها منذ قليل، قادهما شاهين عبر عدة عطفات وحين استقام الدرب الضيق مرة أخرى حدث صاحب الذئب:
- من المضحك أن يلجأ جدي الأكبر لحفر تلك الأنفاق وهو وريث عرش بني شمس، تقول الحكايات إنه وولديه وابنته عاشوا هنا لفترة قبل أن يصعد للسطح ويبني بيت الحكمدارية ويؤسس هذا الكفر على أطلال قرية بائدة.

- ماذا ستفعل بعد خروجك من هنا؟

أجابه شاهين بنبرة ساخرة متهكمة:

- سألتك عن رجالك وخطتك للخروج من هنا ولم تجبني.

- وما علاقة هذا بسؤالي، يبدو أنك نسيت أنني من حررتك

وأنت مدين لي أيها الحكمدار.

توقف عن المسير واستدار ليواجه برهانًا قائلاً بحدة:

- لست أسيرك يا هذا، إنما في الموقف السيئ ذاته، نحن بحاجة إلى بعضنا حتى نخرج، لا شأن لي بما ستفعله لاحقًا، لديّ حرب لأخوضها.

- أريد صاحبي، أريد بياض القرش.

برز الذئب مع طرح صاحبه للسؤال، بدل شاهين بصره بينهما قبل أن يومئ برأسه:

- إنه في الحصن مع بقية الأسرى، وليس لدينا الكثير من الوقت لإنقاذهم، لعلهم يحاكمون الآن.

- أنت الحكمدار، بالطبع تعرف سبيلًا لدخول إلى الحصن، فليكن هذا جزاء تحريرك من الأسر.

ظل يحدق في وجه الأشعث قبل أن يمضي محدثًا نفسه: «أنا شاهين بن عز الدين بن الوليد بن الضياء زيد آخر ملوك بني شمس، كيف يتحكم بي ذلك اللعين؟»، ابتلع ريقه وما لحق به من مرارة الموقف، هو من صنع ذلك الكابوس، حين افتري كذبة الذئب وعصابتهم لم يكن يعلم أنهم حقيقة، وقبل أيام كان على وشك انقلابه وبدء حرب تحريره لأرض

أجداده من برائن بني الأزرق، والآن أضحي عليه الهرب أو البدء من جديد، بعض الأحلام هشة كالزجاج يسهل تحطيمها، وبعض الانتصارات قد تكون بداية لكوابيس لا تنتهي. ليتته استطاع أن يجعل بنيان خطته من صخر صلد تتحطم عليه جيوش غازي، توقف عن السير مرة أخرى ودلف بغتة إلى التواء صغير في النفق، تعجب برهان من فعلته وحث خطاه ليلحق به:

- ماذا هناك؟

- وقفت للتزود بالسلاح.

كان شاهين يقف أمام صندوق خشبي مطعم بالنحاس، فتحه وأخذ يعبت بأغراضه وما لبث أن استخرج منه سيفًا طويلًا ذا غمد جلدي سميك، لف حزامه على خصره، عاد مرة أخرى إلى الصندوق وأتى منه بشيء ما، ما لبث أن ثبته في سبابته؛ خاتم بني شمس ذو التصميم البديع مرصع بحجر اليشب الأصفر النادر، أخرج بندقية عجيبة قصيرة ذات ماسورتين دسها في حزامه مع كيس بارود من قطيفة حمراء، تعجب الدرويش مما يراه أمامه:

- يبدو أنك استعددت لمثل هذه اللحظة.

- بل أمّنت شيئًا للزمن، مخبول من ليس لديه خطة بديلة.

قالها وهو يخرج قماشًا من حرير أبيض مائل للصفرة، رأى برهان بريقًا يضوي في عين دليله الذي تمتم وهو يزيح الغبار عما بيده:

- راية أهلي.

رمى الدرويش بصره داخل الصندوق متأملًا بقية المحتويات، حلي وقطع نقود من فضة وذهب ولفائف وكتب، وما إن انتهى شاهين من لف الراية حول خصره كإزار عريض حتى أغلق الصندوق بفضاظة:

- لنذهب.

مشيا مرة أخرى عبر النفق إلى أن وصلا إلى نهايته، درجات محفورة في الصخر في نهايتها حائط حجري، منحه شاهين القنديل وراح يزيح جزءًا من سقف الممر، وما لبث أن تسلل النور إلى الداخل، أزاح الباب السري بحذر ثم رفع رأسه إلى الخارج، تأكد من خلو المكان، قفز متسلقًا الحافة، وما إن تأكد من خلو المكان حتى مد يده ليساعد صاحب الذئب على الخروج، وقبل أن تشق الأسئلة حول المفترس رأسه وجده يقفز برشاقة من داخل النفق خارجًا. السكون يقيم في أنحاء البيت الشاسع، لا أحد هنا، النوافذ والأبواب مغلقة، وضيء النهار يتخلل زجاج النوافذ ومشربياتها، أخذ شاهين من على الطاولة قارورة ماء وراح يشرب، كان عطشًا ورأى الشيء

ذاته في عيني الذئب الذي لعق شفاهه ومقدمة أنفه، مد
الحكمدار يده بالقارورة بعدما فرغ إلى الأشعث:
- ذئبك عطشان.

لم يتردد برهان، منح ذهب الماء داسًا القارورة في فمه،
لعق الماء بلسانه الخشن والأنياب تحك الزجاج، شرب الذئب
وارتوى، تمسح بجسد صاحبه أمام بصر شاهين وأخذ يلعب
يديه، بدا له أنهما يتخاطران بحديث لا كلمات فيه ولا
صوت، تركهما واتجه إلى إحدى النوافذ وأزاح طرف الستارة،
تلصص على حديقة بيت الضيافة الخاوية إلا من أشجارها،
شرد في تيه أفكاره، ود لو يقتل سعد ورشوان ورقية. سمع
كثيرًا عن خيبة الأمل والآن تملكه، إنه وحيد على شفا
النهاية، وما طمح إليه ليس سوى سراب، لم يضع الفشل
في حسابه حين قرر التمرد على سلطان بني الأزرق، حزينًا
بائسًا تلك كانت حالته وما فشل في إخفائه حتى أمام عدوه
الجالس بالقرب منه، التفت إلى حيث يجلسان قرب إحدى
النوافذ، العرافة قالت إن الذئب سيحكم، ربما لم تتحقق
نبوءتها بعد ولكن ها هو الرجل يجلس إلى جوار ذئبه، ترى
في ماذا يفكران وما خطة الرجل؟

وراء ستارة ثقيلة من كتان أخضر مذهب التفاصيل
والرسوم، وخلف زجاج انعكست عليه صورته، تطلع برهان

إلى السماء وقرص الشمس الباهت يرتحل فيها رويدًا رويدًا نحو المغيب، تلك الزاوية من المنزل لا تظهر إلا جزءًا من البحيرة حيث تحجب أشجار البرتقال الكثيفة المشهد، كان يراقبه بين الفينة والأخرى، ذهب ليس مطمئنًا، يجول في أرجاء البيت مستكشفًا خباياه، يسأل نفسه: «لماذا حررت ذلك الرجل؟».

لا يجد سببًا لذلك، لا يبغضه ولا يمثل له شيئًا، على الرغم من كونه بادئ كل شيء، هو من أطلق رجاله إلى بحر الرمال ليسلبوا ويغنموا بني قومه، العقبان المتوجة على عرش جزيرة الشمس وتلالها، ماذا لو علم أنني صاحب الذئب منهم؟

«ولكن مهلاً يا برهان». «لست منهم». «مرت السنون وتناسيت». «لا، بل نسيث حقًا». «لا شيء يُنسى بالتقادم أيها الأمير». «لست أميرًا، أنا مجرد درويش شريد يرعى ذئبًا». «أنت جبان، ترعبك الذكريات».

في خضم حديثه مع نفسه لم ينتبه لبوابة الحديقة التي فُتحت ودلف عبرها مجموعة من الجند، جند قادمون، كانت مجرد همسة ولكنها كافية ليهرب الدرويش من صوته الآخر، انتبه لشاهين الذي تحرك بخفة نحوه من دون أن يخشى الذئب محدثًا إياه:

- لنصعد إلى أعلى، أخبر ذئبك ألا يهجم أو يصدر صوتًا.

وكان الذئب فهم قوله، تحرك بخفة الهواء ليتقدمهما إلى الطابق العلوي، جناح النوم الكبير كان مستقر هروبهم، دلفوا وأغلقوا الباب بمنتهى اللطف، وعمر السكون خواء البيت، ربض ذهب باسطة ذراعيه قبالة باب الغرفة. وبرهان اتخذ موقعه خلف ستائر الشرفة يراقب باحة البيت وتحرك الجند فيها، والحصن ببرجيه يبدو جليًا من مرصده، جاثمًا فوق التلة وتضاءلت أمامه قمم النخل وبيت الحكمدارية، في فسحة السماء يحلق صقر باسطة جناحيه مغمغفًا.

أما شاهين فكان وراء الباب مباشرة، مرهفًا لوقع أقدام اختلطت بحديث مبهم، فتحوا باب المنزل ودلفوا، بعضهم يضحك، أرهف شاهين سمعه محاولًا سبر أغوار الهمهمات، ولكن علو ضربات قلبه طغى على ما يقوله الخونة في الأسفل، تحسس موضع بندقيته الفريدة وجحظت عيناه وضغط على أسنانه كاظمًا غيظه يلعن غباءه، نسيها حيث كانوا يختبئون في الأسفل، ضنعت له خصيصًا، وأهداها إياه أصدقاء من مملكة الساحل، لم يتوقف عند لوم نفسه وأحكم قبضته على مقبض سيف الشمس الأسطوري العتيق، ملك أجداده الذي توارثوه لأجيال عبر القرون، أخفي منذ سبعين سنة هي عمر حكم بني الأزرق، والآن بين يديه يشناق

للارتواء من صدور وأعناق من سيقف في طريق تحقيق مراده، أو الموت وهو يحاول، وفي النهاية يعلم أنه في قلب جحيم مستعر، والقتال هو السبيل الوحيد لاستعادة عرش أجداده، وما رقية وسعد إلا ضرر جانبي.

خفت الضجيج رويدًا رويدًا وبدأ الجند في الخروج، رأى برهان رحيلهم عن البيت حاملين صناديق خشبية صغيرة، أغلقوا البوابة خلفهم، غمغم محدثًا شاهين:

- رحلوا، أخذوا معهم صناديق خشبية.

- الأوغاد، أخذوا ما تبقى من بنادقي، وربما أخذ أحدهم بندقيتي، نسيتهما في الأسفل، سيسرقونها، والخونة يفعلون أي شيء.

همَّ برهان بقول شيء ولكن ما حدث فوق الحصن جذب انتباهه، جحظت عيناه وشخص بصره فاغرا فاه، الأمر الذي دفع شاهين للاقتراب لرؤية ما يحدث، ألقى نظرة وهاله ما رأى في تلك اللحظة؛ ثلاثة من الجند يحملون جسدًا، على الرغم من بعد المسافة عرفاه، أخذتهما الدهشة وارتاع الدرويش، ألقى بياض القرش من علي، سقط ببطء ريشة، راح جسده يهوي في مقلتي برهان الزجاجيتين المثقلتين بالدمع، لو كان حيًا لتشبثت يداه بالهواء أو حاول التملص من قبضة الموت، ولكنه هوى إلى البحيرة، قلب بياض نقي

كأفئدة الطير، ربما لو كان للقرش جناحان لطار بهما وحلق، ولكنه مجرد رجل صالح من البوغان، ارتجف جسد الدرويش واختلجت أنفاسه وانساب الدمع من عينيه، نهض الذئب ووصل إلى صاحبه في خطوتين، تشممه وأخذ يدفع برأسه إليه مطلقاً عواءً رقيقاً خافتاً كأنين رضيع، شب على قائمته وارتكز على صدر صاحبه الجامد كالوتد وأخذ يلحق وجهه ولحيته، بدا لشاهين حزنهما على الرغم من تقززه، لم يكن القتل يعني له شيئاً ومس قلبه الأسى، يعلم أن ذلك السقوط قاتل حتى لو كان الرجل حيّاً حين أُلقي، سيموت من أثر الاصطدام بالبحيرة الضحلة، طال الصمت، ونزل الذئب حين ربّت صاحبه على رأسه دافعاً إياه، واستدار إلى شاهين وهو يفرك عينيه ليخفي أثر بكائه ويمسح عنه لعاب دهب:

- أريد الولوج إلى الحصن، ولكن قبل هذا عليك مساعدتي في انتشال جسد صاحبي، الآن.

أوما شاهين برأسه، قال والأسى يعتري وجهه:

- أخشى أن نذهب الآن ويرانا أحدهم، أجزم أن سعدًا فعلها على مرأى ومسمع جمع من الناس، ليثبت شيئاً، ما كان ليلقيه إلا بعد أن يتأكد من موته، هذه المرة.

- سنذهب الآن.

- اسمع يا رجل، أعلم كم الألم الذي يسكنك، لا داعي
لارتكاب حماقة تودي بنا، خروجنا سيكشفنا و...

انتصبت أذنا الذئب، شب على حافة النافذة وراح يتحرك
متوترًا حائرًا، التفت إليه صاحبه وسأله:

- دهب، ما بك؟

بالطبع لم يجبه المفترس، كان يزمجر محاولًا خدش
الزجاج والخروج، وتناهى إلى مسامعهم وقع حوافر خيل
وهرج من الشارع القريب، هناك شيء ما يحدث في الكفر،
سرب حمام حلق فزعًا متفرقًا في أنحاء السماء، غمغم
الدرويش والكلمات تختنق في حلقه:

- علينا معرفة ما يدور بالخارج.

فور خروج آخر حروفه سمع دوي بوق بعيد رده الصدى
وأطبق بعده صمت طويل.

بعد المغيب طاف في سماء الكفر كروان كئيب، يشدو
بلحن حزين، وكأنه يرثي بياض القرش في نفوس من
يعرفونه، قلة هم في هذا المكان، تحت السماء الشاسعة
ونجومها المتلهفة لمعرفة إلى أين يأخذ الرجل والذئب

المسيّر، استترا بالظلال والآجام، الطرقات خاوية إلا من دوريات الجند، المشاعل تضيء نواصي الدروب وفوق أسوار الحصن منعكسة على سطح البحيرة، تلك كانت وجهتهما، يجوبان شاطئها بحثًا عن بياض، كانا قد اتفقا على هذا خلال جلوسهما داخل بيت الضيافة، لم يدّر بينهما حديث طويل، أثر كل منهما الصمت حتى أثناء بحثهما، تحاشيا إحداث أي جلبة ويبدو أن الجند لم يكتشفوا أمر فرارهما بعد. الكفر هادئ ولا أثر لجسد بياض، ربما علق في طمي القاع، ولكن ذهب عثر عليه، أخذ يخمش شاطئ البحيرة مصدرًا زمجرة خفيضة، كان طافيًا بالقرب من أجمة نبات الخوص، خاض برهان الماء مثبتًا بصره على السور في الأعلى، وتبعه شاهين مضطرًا النزول إلى مياه البحيرة وراءه، ابتسم وهو يذكر قصص الناس عن التماسيح التي تعيش فيها، أسطورة أخرى كان قد أطلقها بعد نفوق تماسيحه الصغيرة، أشاع أنها انطلقت إلى البحيرة لتعيش فيها ومنذ ذلك الحين خشي الناس من الاقتراب منها، دفعوا أبقارهم وأغنامهم بعيدًا عنها، قصة واحدة حقيقية تمامًا، هنا يرقد جثمان عمه الذي أغرقه هو بيديه، ارتجف وشعر وكأنه يقف قريبًا منه داخل الماء ينظر إليه، ينتظر اقترابه ليغرقه وينتقم منه، برد الخوف نال من جسده، ارتعدت شفتاه وصاحب الذئب يجذب جسد صاحبه، الماء كان يصل إلى صدريهما وشبح عمه يترصد

له، الذئب يدور حول نفسه على الشاطئ، عيناه الحمراءوان
واضحتان في قلب الظلام، تحاشى شاهين أن ينظر إلى
شبح عمه ذي البشرة الباهتة المهترئة، وجذب جسد القتيل
مساعدًا رفيقه وتعثر فجأة. شيء ما ارتطم به تحت الماء
ففزع، ابتلع الكثير من المياه فشقق، التفت إليه الدرويش
وهو يشد بكل قوته جثة بياض، حاول شاهين ألا يذعر جراء
ما حدث، كل ما أرادته هو الخروج من الماء، وبشق الأنفس
خرجا ومعهما الجسد الضخم الأصلع.

توقفت الضفادع عن النقيق ولم يبق أثر لغناء صراصير
الحقل، صمت الكون حدادًا على صاحب الجسد الخاوي من
الحياة، مغمض العينين بارد المحيا شاحب البشرة، بدا وكأنه
نائم، تشممه ذهب ولعق وجهه المبلل مرارًا، وأخذ الدرويش
يتفحص صاحبه المغدور وشاهين يهمس:

- علينا الإسراع بالعودة قبل أن يرانا أحد.

- لن أترك جسده هنا هكذا لتنهشه جوارح الطير، سنحمله
معنا.

- أنت مخبول يا رجل؟

- سنحمله إلى مكان آمن وبعدها نصعد لإنهاء الأمر كما
اتفقنا.

أمام إصرار الدرويش لم يجد شاهين مناصًا من مشاركة الرجل، حملا الجسد الثقيل معًا وهرعا باتجاه بيت الضيافة، كان الحكمدار على دراية تامة بدروب ومسالك الكفر، تقدمهما الذئب متجولًا تاركًا بوله في الزوايا والأرجاء حتى وصلا إلى بيت الضيافة، وضعا بياض في غرفة بالدور السفلي، أنهكهما حمل الجسد الثقيل ولم ينتظر شاهين حتى يرتاحا:

- سأقطع لحظات حزنك وأخبرك أننا بحاجة لشخص ثالث معنا.

- من؟

- ربما علينا العودة وفك وثاق أمينة وضمها إلينا.

- لقد سبق وقلت إنك لا تثق بها.

- بالفعل، ولكننا بحاجة لمن يشنت انتباههم على القنطرة الصاعدة إلى الحصن بينما ندلف نحن عبر طريقيتي الخاصة، علينا أن نمضي الآن، لا تدع الحزن على صاحبك يغلبك.

رماه الدرويش بنظرة خاوية وعاد بعدها إلى جسد بياض، الحزن يهيمن على جوارحه، وصوت بداخله يلقي عليه اللوم ويخبره أنه السبب في كل ما يحدث، حرق التل الدموي، والأسرى، والقتلى، وبياض، كل ما حدث كان بسببه، لأنه

جبان كما قال له سليمان ناب، أحب كونه درويشًا ونسي أنه أمير من بني الأزرق، تناسى ما حاق بأهله على يد غازي، والآن يموت أصحابه ومن يهتم لأمرهم، الكرة تُعاد مرة أخرى، ولكن المطلوب هذه المرة هو الدرويش وليس الأمير برهان. ولكن الصوت الذي يحدثه هذه المرة لم يكن أيًا منهما، بل صوت ثالث، يأتي من عمق وجدانه، ذو نبرة شديدة تحته على الانتقام:

- لتواجه الماضي يا برهان سيكون على الدرويش تحرير أسرى الحاضر، وأول المحررين يجب أن يكون أنت، تحرر من خوفك وزهدك، لولاك ما قتل بياض القرش، ليتك في مثل نبلة وشجاعته، على الرغم من رقة قلبه كان مقدمًا لا يهاب شيئًا.

غمغم الدرويش محدثًا ذلك الصوت داخله:

- بل كان طيب السريرة، لا يحب الدماء. ضحى بنفسه من أجل الأبرياء.

رد ضميره الغاضب:

- هذه حماقة وإن كانت تشوبها شجاعة جلية، قاتل وقُتل غدًا، ألم ترّ الطعنتين بجانبَي ظهره؟ أفق أيها الأمير، بياض لم يكن طيب القلب، هو فقط لم يتوقع دناءة عدوه،

تلك فرصتك بعد أن مزق سليمان ناب ومن قبله تولت
رمال الصحراء راجي، لم يتبقَّ سوى قاسم أصلان وغازي
ورجالهما. سهم القدر لصالحك، ليس عليك سوى البدء، اقتل
البرغوث وقد يصبح ما حلمت به ذات يوم حقيقة، السلطان
برهان.

- لم أحلم بهذا يومًا، اصمت، اخرج من رأسي.

- كيف أخرج وأنا أنت؟ عليك أن تغضب لمصاب أحبائك،
كفاك تبهًا في سنوات خذلانك، أيما كان اسمك افعل هذا، أقم
قسطاس العدالة وحاكمهم أمام العالم.

- لا أريد، حالما يتحرر الأسرى سأرحل عائداً إلى وجاري مع
ذهب، يكفيني من هذا العالم ما علق بروحي من ذكراهم، إننا
فانون وليس كما يقول الجاباسكي.

- الذكرى تقتات على الأرواح، تمتصها وتنهكها وتفنيها إن
استسلمنا، هيا يا رجل قم إلى ما يجب عليك فعله حقًا، إن
لم يكن من أجل بياض القرش فمن أجل عائلتك التي ذبحت
أمام ناظريك، لا تكن جبانًا يا برهان، أو يا درويش أو أيًا كان
اسمك، أنت بحاجة لأن تربيهم صنيعة، لأجل من أحببتهم
وأحبوك، ألا يستحقون أن تخلد ذكراهم؟

وبينما برهان يحادث ذلك الصوت داخله، على الجهة

المقابلة كان شاهين يمسك بين يديه راية أجداده، عتيقة مصفرة منسوجة من حرير ثقيل، حاول ترتيب أفكار تزاومت في رأسه، مذاق الخيانة التي تلقاها علقم من محاط بالأعداء وقد تخلى عنه من صنعهم لنفسه، حتى لو صعدا الحصن وثالثهما الذئب، لدى سعد ورشوان جيش مسلح، كيف سيواجهون كل هؤلاء وحدهم؟ يتمنى أن يكون له سبيل لينجو ويهرب إلى حلفاء كان يدخرهم لوقت آخر، وعدوه بمناصرته حين تسطع راية الشمس من جديد، وليخفق الحرير الذي بين أصابعه عليه أن يستعيد ملك كفر البردقوش، عليه أن يستغل الفرص المتاحة، سيفعل لأجل حلمه.

كلاهما تاه في وديان فكره، ودام صمتها طويلاً حتى تنهى إلى مسامعها صوت صراخ اختلط بالصياح، راحت الأصوات تتعاضم والصراخ يرتفع أكثر فأكثر، توتر ذهب وركض في أنحاء المنزل يبحث عن مخرج، شاهين أول الواصلين إلى النافذة، لم يستطع رؤية شيء في الخارج وحين التفت رأى الدرويش يصعد الدرج راكضاً وخلفه ذئبه، تبعهما مهرولاً، الصيحات تتعالى في الخارج وضي مشاعل يزداد ناحية بيت الحكمدارية والطرق المؤدية إليه، ساد السكون لبرهة قبل أن يصدح في محيطهم، دوت البنادق وارتفع دخان البارود، الصرخات كانت مريعة ذات وقع

عجيب مخيف، تطلع شاهين محاولاً استكشاف أي شيء
ولكن الظلام غمر المكان داخل أسوار حديقة قصر الضيافة،
أشاح بوجهه وسأل صاحب الذئب:

- ترى ماذا يحدث في الخارج؟

لم يجبه الدرويش، عاد ببصره إلى النافذة، ارتجف وكنتم
أنفاسه وثبتت عيناه في محجريهما، وذلك الوجه المشعر
المخيف والأنياب العاجية الطويلة والعينان الصفراوان
اللامعتان تحديقان فيه.

كتيمبي

تحت جناح الظلام تسللت أشباح تتشبح بالظلال، سريعو الحركة خفيو والتنقل في العراء، وصلوا إلى جدار النخيل واختفوا بين الجذوع، غرد طير ليل شارد مترنمًا بلحن بديع، كان إذناً للمختبئين بين قواعد النخل، تسلقوا برشاقة السيقان الباسقة واختفوا مرة أخرى في غياهب الظلمة، اهتز النخيل متأرجحًا من دون هواء أو ريح باتجاه الكفر، وعلى الأسوار انتبه الجند لتلك الحركة المريبة، أرهفوا السمع ورفعوا المشاعل للأعلى محاولين كشف سبب الصوت القادم من قمم السعف، على وهج الضوء سكن كل شيء. ضحك أحد الجند مناديًا صاحبه المتأخر عنه:

- أيها الأبله، إنها مجرد هبة رياح جنوبية.

تبادل الجند الضحكات وإطلاق النكات وبدأوا أحاديث لم تكتمل، هبطت عليهم شياطين من السماء تصرخ، غرزت في صدورهم المخالب، ونهشت أعناقهم الأنياب، عاثت قردة البابون المحاربة بين الجند على الأسوار، اختلطت صيحات الألم بصراخ الغيلان المتعطشة للدماء، حالة من الهياج ومعركة شرسة سريعة كانت الغلبة فيها للمهاجمين حتى

دوى صوت البارود. استطاع أحد المدافعين قتل قرد، أصابه بطلقة سريعة في منتصف رأسه، كان الأمر بغتة وصدفة حين رفع الرجل بندقيته وأطلق النار على القافز في الهواء، لبرهة ساد السكون من بعد الدوي، ولكن القردة هاجت وماجت، صارت أشد قسوة وفتكًا، دفعوا بالجنود من فوق الأسوار، وطاردوا الفارين عبر الدروب والطرقات، اجتاحوا الكفر، تنقلوا بسرعة فوق الأسطح، هاجموا الدوريات المتجهة إلى الأسوار، باغتوهم وراحوا ينقضون بشراسة على كل ما يتحرك في أنحاء كفر البردقوش.

وبدأ إطلاق كثيف للبنادق من القوات المتمركزة عند بيت الحكمدارية، ومن أعلى الحصن شُقت السماء بعشرات السهام النارية التي أضاءت ما تحتها، مرت من فوق البيوت وجدران الكفر لتسقط على الجيش المهاجم في الظلام. وجدت السهام المشتعلة مستقرًا لها في الصدور والرؤوس، كُشف أمر تقدم المواردنة وراء قردتهم، راح الرجال يسقطون قبل وصولهم إلى جدار النخيل، وفي الوقت الذي فزعت فيه القردة من دوي البارود كانت بوابة الحصن تُفتح لبيرز رشوان على صهوة جواده، ومن خلفه عدد غفير من الفرسان، نزلوا عبر القنطرة تباغًا إلى باحة بيت الحكمدارية ومنها انطلقوا لصد الهجوم والدفاع عن الكفر.

على أطراف مخيم جيش قبائل غابة الظلال وقف سلام
عاقداً ساعديه أمام صدره، وأمامه في العراء بين معسكرهم
وجدار النخيل راح رجال كتيبي يتخبطون، يهرعون هنا
وهناك محاولين تفادي صيب السهام النارية، اللعين سعد
يعرف كيف يدير الحروب الآن، دوي الطلقات داخل الكفر
يصل إلى حيث يقف، الوميض يضيء خلف حجاب الظلام
كبرق خاطف، الصرخات والصيحات تتناهى إليه، وأخيراً
لمح وصول كتيبي ورجال قبيلة الموارنة إلى حاجز النخيل،
احتموا بالجدوع وابتلعهم الظلام. خطة الشاب المندفع كانت
تقتضي سيطرتهم على الأسوار بغتة، القردة في المقدمة
للإلهاء وإثارة الرعب إلى أن يصل هو ورجاله إلى الأسوار
والبوابة الكبيرة، ولكن الجزء الأخير من الخطة لم يحدث،
قُتل عدد من رجاله بفعل السهام.

راود الخوف صدر سلام، يذكر حديثه مع كتيبي خلال
طريقهم الطويل عبر بحر الرمال، ورحلتهم السابقة لجمع
وإقناع قبائل غابة الظلال بخوض الحرب بعضهم إلى جانب
بعض، رافق أبو الذهب والشاب ووفدهم، يجوبون الأدغال
الكثيفة التي رأى فيها عُجاب الأمور، عادات لقبائل عدة
وهيئات مختلفة لأناس غريبة الأطوار، إلى أن وصلوا إلى
أقصى بقاع هذا العالم الغريب.

قاع الأسود، حيث وجد سلام نفسه داخل عالم غرائبي، النسوة يحكمن ويرتدين جلود الفهود ويرعين جواميس عملاقة، بينما الرجال يأتون كل بضعة أيام من داخل كهوفهم ليجالسوا نسوتهم ويعاشروهن، يطمئنوا على حالهن ويذهبوا مرة أخرى إلى جوف الكهوف وقيعانها، كان إقناع هذه القبيلة بالذات أمرًا صعبًا، ولكن ملكتهم وافقت على الانضمام إلى جيش الموارنة أصحاب الرمح الفضي، الناس في تلك الغابة يحترمون كتيبي ويجلون أباه على الرغم مما كان بينهم من حرب، وما دفعهم إلى الموافقة وأخذ جانبه كان ذلك الشعور بالأسى حيال ما حاق بمملكة التل الدموي، الانتقام هو ما حرك قلوب سكان غابة الظلال.

قبل بدء الرحلة إلى مجهول بحر الرمال، اجتمع قادة وزعماء القبائل مع والد كتيبي داخل بيته بعد أن قدموا جميعًا الصلوات إلى إله الرمح الفضي، منذ سنين لم يأت أحدهم إلى قرى الموارنة، وأخذهم الوقت بين الترحاب وكرم الاستضافة، أحاديث عن ذكرياتهم وشبابهم، مجلس مطول ونقاش لا يتوقف، أخبرهم كتيبي أن من وراء تلك الحرب حروبًا عدة، وأن بني الأزرق قد يأتون خلفهم، ألقى على مسامعهم خطبة عظيمة عن إرث الأجداد، وتعاليم الحوريات ورب القمر الفضي، ذكرياتهم المتشابكة عبر أغصان وجذوع غابة الظلال، وذكر أحدهم أسطورة قديمة

عن فضل قبائل الرمح الفضي، وكيف أن في نهاية الزمان سيكون هناك محارب يقتل الشرير برمح الإله، يُدعى سيد النار.

وأضاف آخر أن دماءهم واحدة، جميعهم شربوا من الجداول الجارية بماء نبع الإله، النابعة من هضاب البدء لتسقيهم جميعًا من المصدر ذاته، كانوا قد ابتلوا بالفرقة، وأن وقت توحيد كلمتهم، وكانت كلمة أبيه هي الفيصل، الحرب لا تقبل قسمة قائدين، ليس في مصلحتهم جميعًا أن تنشت كلمتهم لو أن لكل واحد منهم رأيًا، والبلاد التي سيخوضون أراضيها لا يعرفون تضاريسها، من الحكمة أن يهجموا بكل قوتهم حين تسنح لهم الفرصة، وعليهم الانتهاء سريعًا من تحرير الأسرى والعودة إلى غابتهم، إمبراطورية بني الأزرق ستدفع حتمًا بقوات إضافية، أشار عليهم باختيار قائد للجيش يأترون بإمرته ويطيعون أمره، سمعوه وأنصتوا وتشاوروا مع حكماهم ومساعدتهم. ثم نهض زعيم جبال البلور وأثنى على كتيبي المنتصر في معركة مستنقع الحور ومثله فعل بقية القادة، وفي النهاية أقروا بكتيبي أميرًا على جيش غابة الظلال، هو الأمير الأول والأوحد في تاريخهم، ولي عهد حارس الرمح الفضي، والأقرب لحق الثأر، بسطت الأيدي لبياعوه على ذلك، وعقدت رايات القبائل والعشائر ومُنحت له، حياه سلام

الواقف بين الجموع رافعًا قرن ثور مليئًا بالخمير، دُبحت القرايين تحت قدمي الأمير الجديد، سبعة عشر من الخراف، دبت الحركة في أنحاء القرية احتفالًا بتنصيب كتيمني حارسًا للرمح الفضي، وارتفعت أعمدة الدخان، فاحت القدور برائحة الطعام، كانت ليلة احتفالية أزعجت سلام الذي انفرد بنفسه بعيدًا عن الصخب، لم يعجبه فعل القوم، مجرد همج غير مرتبي الصفوف، برابرة لا يعرفون كيف تُدار الحروب، أسلحتهم البدائية لن تفلح في إسقاط سعد وما يملكه. إنه في الجانب الخاطئ، بل لماذا وجب عليه أن يكون في جهة مقابل الأخرى؟ سب بياض في سره، وعاتب نفسه على البقاء وخوض هذا السخف، وعلى كل حال لم يعد بالإمكان التراجع وخذلان القرش وصاحب الذئب، سيبقى إلى جوار كتيمني حتى ينتهي الأمر ويمضي بعدها إلى حال سبيله.

كل شيء كان على ما يرام حتى سبقهم الدرويش ليطمئن على بياض في وجار الذئب، ولكن القرش وذهب كانا قد رحلا عن المكان، عاد صاحب الذئب إليهم ليخبرهم أنه سيسبقهم بحثًا عن رفيقيه، ووقع على عاتق سلام البقاء مع الجيش، سخرت نفسه من هؤلاء البدائيين، ولكنه نفض تلك الفكرة عن رأسه وهو يرى جلداهم وصبرهم على مشقة المسير، تبدد تعبهم وإرهاقهم أمام رغبتهم في تحرير أسراهم والقصاص من حارقي التل الدموي، أما قلب كتيمني فقد

فاض بالحرقة، زوجته وأخته ضمن الأسرى، قبل الخروج من قريته أدى المحارب الشاب طقوسه أمام الرمح الفضي مقسمًا على العودة بهم أو الموت، باركه أبوه والكهنة والسدنة وأهل قبيلته، ومضى يشحذ هممهم للوصول إلى كفر البردقوش لنجدة ذويه.

استراحوا قليلًا خلال مسيرهم وعلم سلام بعضهم كيف يعمرّون البنادق ويطلقونها، لم تثنهم مشقة الرحلة عن مواصلتها، ولما اعترضهم عائق كانوا في الموعد، عاين سلام بأس رجال غابة الظلال، محاربوهم خاضوا معركة شرسة على جسر السراب، قتال عنيف دارت رحاه فوق الممر الوحيد المؤدي إلى الشمال، ولم تتوقع فرقة بني الأزرق المسيطرة على الجسر هذا الهجوم المباغت، اجتاحهم كتيبي بكل قواته، مروا فوقهم بعدما نالت منهم السهام والرماح، وطأت الأقدام الحافية رايات بني الأزرق ذات العقاب الفضي، تركوا خلفهم فرقة لتأمين الجسر وانطلقوا صوب كفر البردقوش. وصولهم كان مفاجئًا وأغلقت أمامهم البوابات ولكن القائد الشاب لم ينتظر قدوم بقية جيش القبائل، ومع حلول الليل قرر الهجوم وحده على الكفر تسبقه قردة البابون التي نجحت في إثارة الفزع في نفوس المدافعين عن الكفر، وها هو اللعين سعد يتدارك الأمر ويرسل عليهم سهامه المشتعلة بين الحين والآخر. الأمر

صار معقدًا؛ كتيمني وبعض رجاله بين جذوع النخل والقردة
بداخل الكفر، ولا يعلم سلام مصير بياض والدرويش وذهب،
لا يدري إن كانوا بالداخل أم لا.

انتصر السكون وساد باسًا ملكه على الكفر ومحيطه،
نهض محاربو القبائل ووقفوا إلى جوار سلام القلق، تراصوا
ينتظرون أي إشارة من كتيمني ورجاله، ولكن لا أثر لهم
وسط الظلام، تبادل الرجال النظرات فيما بينهم، وراودت
عقولهم أسئلة مخيفة نالت من أفئدتهم، ولكن سرعان
ما تبددت مع رؤيتهم لقردة البابون وهي عائدة، نزلوا
عن جذوع النخل يركضون عائدين إلى معسكر جيشهم،
العجيب في الأمر أنهم يحملون الجرحى والقتلى من رفاقهم
ويصدرون نهنهات خافتة، مروا إلى جوار سلام وتخللوا
الواقفين إلى مدربيهم، انتهى وصول القردة ولكن كتيمني
ورجاله لم يعودوا بعد.

تأمل سلام الحيوانات التي عادت تجر وتحمل ما جرح
منها، يتكاتفون مثل بني البشر في مساعدة المصابين، تجمع
حولهم مدربوهم ومالكوهم وعاد كل قرد إلى صاحبه، دُفع
إليهم بالموز والفواكه جزاء لما حققوه، قُتل ثلاثة قردة
وجرح العديد منهم، ولكن ما خلفوه في أثر المدافعين

كان رعبًا عظيمًا، يذكر ما قصه عليه كتيمبي من أمر تربية القردة وكيف تتآلف مع مروضها حتى يصيرا كأخين، ينصر بعضهما بعضًا، رأى المحاربين يحتضنون أشباه البشر ويواسونهم، هناك من يضحك أيضًا، تحلقوا حول النيران في مجموعات يتسامرون، بينما أخذ يتجول مراقبًا محاربي القبائل وحديثهم فيما بينهم بلغتهم الغريبة، جلود التماسيح تميز رجال قبيلة الرمح الفضي، إنهم أهل كتيمبي ورفاقه من مدربي البابون، أما الذين يعتمرون خوذات من جماجم الضباع فهم سكان هضاب البدء، كان إقناعهم بالقدوم إلى هنا أمرًا صعبًا، وكذلك محاربو جبل البلور جاءوا أيضًا عراة إلا من مآزر تستر عوراتهم، أما أجسادهم فدهنت بطلاء أخضر داكن، قبائل نبع الإله أيضًا كانوا حاضرين يرافقهم زعيمهم الذي أقسم بالنصر من أجل رفاقه من مملكة التل الدموي، جميعهم جاءوا تلبية لنداء كتيمبي، أما قبيلة قاع الأسود فقد تأخروا عن ركب الحرب، تعلت قائدتهم بأنهم بحاجة لتجهيز جيشها على أن تلحق بهم من فورها، جال سلام بينهم بلا هدف، كان كمثل التائه يبحث عن شخص يعرفه. كان غريبًا بينهم، راوده شعور بالحنق والغضب وللخوف النصيب الأكبر من فؤاده، ما كان على كتيمبي التسرع في هجومه، على الأقل كان عليه أن ينتظر ظهور الدرويش أو بياض، بقي سلام على تلك الحالة من القلق

حتى أطلق الكشافة صفيهم الخافت فيما بينهم، نهض كبقية من سمع وتوجه مهرولاً إلى مقدمة المعسكر، وأحد المحاربين يتحدث بلغته الغربية وقد جاء على ذكر كتيبي، دفع سلام الأجساد القوية من حوله ليخرج إلى العائدين من كفر البردقوش.

التف قادة وزعماء القبائل حوله، نظرات لائمة وأخرى مستبشرة، تباينت ملامحهم بأثر ما في نفوسهم، وقبل أن تفيض ألسنتهم بالأسئلة، رفع الشاب ذراعه فاتحاً كفه، وما لبث أن ضم قبضته ممسكاً الهمهمات، دار في الوجوه وبلهجة صارمة تحدث:

- استعدوا لهجومهم، ابنوا المزيد من المتاريس والفخاخ واجعلوا لنا أعيناً فوق النخل.

لم تكن أوامره تلك سارية على الدائرة الصغيرة من حوله، انفض الجند وملازمهم لتنفيذ ما قاله كتيبي الذي استطرد للقادة من حوله:

- علينا أن نجتمع الآن.

جلس كتيبي وقادته وحلفاؤه داخل سقيفة واسعة، جدرانها من محاربي القبائل الأشداء، أربعة أضلاع في ثلاثة صفوف يولون وجوههم إلى الخارج بينما زعمائهم

يتناقشون، بدأ الحديث رجل ضخم البنيان عريض المنكبين
ذو بطن بارز ويعتمر جمجمة ضبع:

- كتيمبي، لقد أخطأت بذهابك من دون مشورتنا، من الفطنة
أن تمنح الرجال فرصة للراحة بعد سفر طويل، ولا تنس أن
معركة الجسر جعلتنا منهكين وقد خسرنا عددًا لا بأس به
من المحاربين. إن تصرفك هذا قد أغضب الكثير من الزعماء
والقادة، وهذا الرجل قد سبق وأن أخبرنا بتحسينات تلك
البلدة.

نظر سلام إلى كوما زعيم هضاب البدء الذي كان يتحدث
بلغتهم، ولكنه فهم أن الحديث عنه فتدخل مقاطعًا ذا
جمجمة الضبع قائلاً بلغته:

- أيها السادة، وددت لو أنكم تتحدثون بلغتي التي تتقنونها،
لا داعي للحديث بلغتكم التي أجهلها، إننا في موضع واحد،
وعليّ أن أفهمكم وأشارككم، وإلا فما فائدتي؟

حالما فرغ من حديثه وجد نظراتهم الخاوية تحاصره،
نهض كتيمبي مرتبًا على كتفه ثم توسطهم مقرفًا وأخذ
يخط بأصابعه على الرمال محدثًا الجميع بالعامية التي يمتن
للدرويش بتعليمه إياها:

- أعتذر لكم، سلام كان قد أرشدنا إلى هنا ووصف لنا الكفر

وأسواره وبواباته، ولكن كان عليّ الذهاب ورؤية التحصينات عن قرب بنفسي. كان عليّ البحث عن نقاط ضعفهم، خلف جدار النخيل هذا السور يمتد كأفعى ملتوية حول البلدة ببيوتها وحقولها، شارع رئيسي بدايته البوابة الجنوبية التي نحن مستقرون أمامها، البحيرة تعمل كجدار عزل أيضًا، وهنا ترتفع هضبة تحوي حصنًا منيعًا يستشرفون به صنيعنا، منه أطلقت السهام المشتعلة ومن أعلاه يستطيعون رؤية تحركاتنا، تلك أفضليتهم علينا، أعي أن هجومي كُشف ولكن كان عليّ استغلال الفرصة لاستكشاف السور الذي هرب جل جنده أمام قردة البابون.

توقف عن الحديث ودار في وجوههم ببصره واستقر عند شخص نحيل الوجه ضيق العينين وقال مستطردًا:

- إن نقطة ضعف البلدة هي مصدر قوتها؛ البحيرة، ولكن حتى الالتفاف حول الكفر سيكون مرئيًا لمن في الحصن، سيكون علينا التحرك قرب جدار النخيل، كما أن مداخل أبراجهم معزولة عن الأسوار...

قاطع النحيل:

- إنك تغامر بقواتنا يا كتيبي، حسبت أنك علمت شيئًا عن الأسرى! هل هم بالداخل أم أننا نحاصر محض سراب؟ إن رجال نبع الإله هم المنوطون باستكشاف واستطلاع العدو

وأنت فعلت ما فعلت متخطيًا ما اتفقنا عليه. والآن تفرض خطة جديدة قد يكون فيها هلاكنا.

تدخل كوما بهدوء ليقف إلى جوار كتيمبي محدثًا سوناي سيد بحيرة نبع الإله:

- لن نهلك قبل أن نحرر أهل التل الدموي، لقد جئنا مع كتيمبي بمحض إرادتنا، ولندخل تلك القرية علينا أن نثق بما يستطيع فعله، كما وثقنا به من قبل.

كلمات الرجل كانت كافية لمنح كتيمبي مزيدًا من الثقة، تقدم إلى سوناي قائلاً:

- أيها الزعيم، إن لك منزلة وقدرًا بين رجال الرمح الفضي، ونحن ندين لك بمجيئك معنا وخوض الحرب إلى جانبنا.

رد الرجل بهدوء ارتسم على ملامحه:

- أنت ابن أخي يا كتيمبي، واستشعرنا القلق عليك حين طالت غيبتك، فقط اجعلنا شركاء لك في الأمر حتى يتسنى لنا نصحك ومساعدتك، أدري أن أختك وزوجتك بين الأسرى ولكن نحتاج إلى قليل من التريث حتى يأتينا المدد، فما زالت قبيلة قاع الأسود في طريقها إلينا.

- لا أظن أن تيانا ستأتي، علينا تدبر الأمر بأنفسنا وبما بين

أيدينا من الرجال.

ساد الصمت لبرهة قبل أن يهشمه صوت ملك جبل البلور
الأجش:

- كتيمبي، لا نعلم عدد من في الداخل ولا أظنه بقليل، ماذا
لو خرجوا وباغتونا، إنهم أهل تلك الأرض وهم أعلم بمسالكها
ودروبها، أرى أن ننشر بعض قواتنا لتناوشهم عند أبراج السور
المنتشرة حول البلدة، سيكون على قردة البابون المشاركة
في هذه الهجمات أيضًا، وإن حالفتنا الريح فعلينا أن نشعل
النيران لنصنع حاجز دخان كثيفًا لنحجب رؤيتنا عن من هم
بالأعلى.

تحركت الرؤوس بإيماءات موافقة على قول الوقور، بينما
تابع هو حديثه:

- إن عددنا يقارب الثلاثة آلاف، هذا إن جاءت تيانا، دعونا
نبدأ الحصار ونستنزفهم ولا نجعل لهم سبيلاً للخروج علينا،
كما أننا بحاجة إلى التأكد من وجود الأسرى في الداخل. مر
على وجودنا هنا نهار واحد وها هي الليلة الأولى تنقضي
أيضًا، ما زال أمامنا الكثير لنخوضه، وأنا أمامكم أجدد عهدي
بكتيمبي كأمر لجيش غابة الظلال.

تشابكت الأيدي تباغًا مع كف كتيمبي، بدت السعادة على

وجهه وعيناه لم تفارقا وجه سلام القلق، خشي الأخير من هزيمة وشيكة إن غفلوا، يعلم أن سعد ليس سهلاً، كان على يقين أنه في الجانب الأضعف ولكن شيئاً داخله أنبأه بأن يؤمن بما يستطيع الشاب الأسمر فعله، انتظر حتى انفض الجمع ولم يبقَ سواهما، لم يدم صمتها طويلاً بينما يقف أحدهما قبالة الآخر، بدأ سلام الكلام:

- من الرائع أن يجد المرء من يثق به في أحلك المواقف، لقد جعلت قلوبنا تهوي يا رجل، ظن الجميع أنك هلكت.

تنهد كتيبي:

- أقدر خوفهم وقلقهم، ولكنها كانت فرصة مثالية للولوج إلى الكفر واستكشافه، إن زوجتي وأختي بالداخل يا صاح.

- ما الذي يجعلك متأكدًا هكذا؟

- حدسي ينبئني بهذا، أوليس الذي أمر بقتلك يسكن هنا؟

شعر سلام بغصة محشورة في حلقه حين تذكر سعد، فسأله مغيرًا مجرى الحديث:

- لم تجد أثرًا لبياض والذئب؟

- نزل الجند ثرى من الحصن وتراجعنا، سيكون علينا خطف أحد الجند واستجوابه.

- متى؟

- حين تحين الفرصة.

ألقى الأمير كلمته ومضى إلى خيمته تاركًا سلام يفرق في وحل من التشاؤم، لام نفسه على حاله وما آلت إليه حياته، بالأمس كان مغنيًا يطوف القصور وبيوت النبلاء وانتهى به المطاف منبوذًا، حُطمت قيثارته وكاد أن يُقتل على يد شخص حسبه صديقًا، انغمس في حرب مع أناس بالكاد يعرفهم، وكذلك فعل صاحبه طيب القلب بياض، ثرى أين هو الآن؟ وماذا لو لم ينتصروا، ماذا بعد كل هذا؟

وبينما سلام يغالب أفكاره، كان كتيبي يحاول طمأنة روحه بأنه سينقذ أهله، تأسى لفقدتهما، تبدلت الأيام وما زال يحارب من أجلها، سيرين التي تحدى أباه وقبيلته من أجلها، بل من كان يصدق أن الموارنة أصحاب الرمح الفضي سيحاربون لأجل الثأر، وليحرروا أهالي التل الدموي؟ قضى ليلته أرقًا، يتقلب على فرشته الخشنة بين الأفكار والخطط والأمنيات، بعد الفجر خرج من خيمته الصغيرة، تجول في المعسكر وشدد الحراسة عند أطرافه، تفقد الجند على الحواجز والسواتر وحياتهم على يقظتهم. تلك المرة الأولى التي ينصهر فيها سكان غابة الظلال، المجموعات مختلطة الأعراق والقبائل، يتحدثون ويتسامرون بأحاديث

عن مغامراتهم وأهليهم في غابة الظلال. مضى إلى ربوة مرتفعة كان قد نصب عليها نقطة مراقبة، ألقى التحية على الساهرين هناك وتقدم إلى الحافة ورمى بصره في الأرجاء، وراءه تمتد الأرض الجافة بالرمل والحصى حتى الأفق، وهو يقف هنا على قارعة طريق الوادي القديم، المار عبر جسر خندق السراب ثم إلى عمق بحر الرمال ومن ورائه غابتهم، ومضت في عقله أطياف ذكريات طفولته إلى جوار كونوا أخته الحكيمة كما كان ينعتها ساخرًا، كم هو بحاجة إلى ضمها وطمأننتها كما كان يفعل دومًا، يدس رأسه في كنفها ليهرب من ضجيج القرية والغابة، ولكن ما مضى قد مضى، لا شيء سيعود إلى سابق عهده، أمامه انبسط سهل البردقوش تتوسطه واحة من النخيل والعشب وحصن حديث البناء، تحسست شمس الشروق حواف القلعة ذات البرجين، صغيرة الحجم لكنها عتية وعصية بموقعها هذا فوق البحيرة والكفر، عليه أن يبسط سيطرته على الكفر أولًا قبل الهجوم عليها، يعلم أن الحيوان المحصور يكون أشرس بكثير، فما سيفعل مع الطاغية الذي أحرق مملكة التل؟ ستكون حربًا لا مثيل لها، إن عاد منتصرًا فسيُنحت له تمثال عند مدخل غابة الظلال، سيذكره القاصي والداني، ستتغنى النسوة والصفار بأنشودة خاصة له، والنسيان مصير المهزوم. تأمل غيمة وحيدة فوق الحصن تبحر في سماء الشروق الوردية، ليتها

تحمله فيبصر من أمر سيرين وكونوا.

تسلل ضوء الشروق البرتقالي عبر النافذة الوحيدة في
قبو الأسرى، وفي ظلمة الحبس كانت كونوا تحتضن رأس
سيرين الواجمة، لم ينل النوم منهما، في أول الليل ضاق
بهما النفس حين سمعتا صرخات قردة البابون ودوي أسلحة
خاطفيهم، فرحتهم بقدوم جيش قومهما واست حزنهما على
بياض، ذلك النبيل الذي جاء لينقذهما ويدفع روحه فداء لهما،
مات غدراً بعد أن عفا عن عدوه. كم تبغض كونوا هذا القدر،
إنه الشر الخالص، سيد النار، أو غول الشمس الذي تحدثت
عنه الحوريات، هو الظلم والظلام الذي جفف البحور والأنهار
سابقاً، ستقتله إن سنحت لها الفرصة، أقسمت بالحوريات
وتعاليمهن أن تفتك به قبل أن تهلك الأرض بسببه. وفي
حضانها كانت سيرين تأمل نجاة كتيبي بالخارج، كذلك فعل
كل الأسرى، وجود أقربائهم وذويهم خارج الأسوار منحهما
ومضة أمل، تمنتا ألا تخبو.

ذهب

ليلة أخرى قضاها حبيسًا، ولكن هذه المرة رفقة أبيه وصاحب الكفر، هاج حينما رأى قردة البابون عبر النافذة، أراد الخروج ومشاركتهم الهجوم، ولكن الدرويش أحكم إغلاق كل الأبواب، خمش الأرض بمخالبه غضبًا وأخذ يزوم مزمجرًا، وما لبث أن تبعهما إلى الطابق السفلي ومنه إلى النفق المعتم مرة أخرى. أخذوا سبيلهم عائدين إلى حظيرة الكلاب، أراد أن يتقدمهما ولم يفلح لضيق المكان، دلفوا إلى المكان عبر الباب السري، وانطلق يشمشم في الأرض ويتجول بين الأقفاص، تنهى إليه دوي البارود وصرخات الهلع في الخارج، وفي زاوية الحجرة التي سبق وحبس فيها كانت المرأة المكمنة، تعالت أنفاسها وازدادت ملامحها رعبًا، ولكن الحكمدار همس لها وهو يقف على الباب من خلفه:

- أمينة، عدت لإنقاذك.

اقترب الحكمدار منها متجاوزًا إياه، بكت وفاض دمعها نهرًا، انتحبت وهو يقترب منها مظمئنًا، لاحظ أن رائحة بول تفوح من ثيابها المبللة، تأسف لحالها وحدثها بهدوء:

- لا تهلعي، لقد أقنعت صاحب الذئب بصعوبة بالغة بأنك

بريئة مما صنع الخونة. أمينة، لا تحاولي الصراخ أو أن تأتي بحركة غبية فهذا المفترس متعطش للدماء، عليك الإنصات لهما وعدم إظهار الغباء.

أزال الحكمدار الرباط عن فمها، وخفت الضجيج في الخارج تمامًا، ران السكون على الكفر، ولما أسرع بحل وثاقها تركهما ذهب وعاد إلى أبيه، وقف الدرويش قرب الباب متنصتًا، وقع أقدام الجند أنبأه باتجاههم، كانوا يهرولون ناحية السور، يبدو أنهم سيطروا على الأمر في الخارج، لم يعد للقردة صوت أو رائحة. دلف إلى النفق وراء أبيه ومن خلفه كانت الخادمة، آخرهم كان الحكمدار الذي أحكم غلق الباب السري خلفهم، ومرة أخرى عادوا إلى بيت الضيافة، جلسوا في غرفة واحدة جميعًا تحتويهم العتمة، جلس بجوار جثمان بياض بعد أن لعق وجهه البارد، ثم بسط قائمته الأماميتين واضعًا رأسه بينهما، غفا مستيقظًا يحرك أذنيه بين الحين والآخر مرهفًا للصمت، وعلى مقربة منه استلقى أبوه وقد نال منه الحزن المهيم على الأجواء، قرب النافذة التي استقر على إطارها مسحة ضوء مشاعل الحصن المرتفع جلس الحكمدار، يراه بنصف عين مغمضة، يراقبه بحذر من دون أن يشعر الرجل الذي كان يتفحصهم بين الحين والآخر بدوره، لا يضمر لهما شيئًا، هكذا بدت سريرته لذهب، أما المرأة فكانت تتصنع النوم وتفوح منها رائحة

الخوف والقلق، وربما الغدر.

قبيل الفجر نهض والده متوجهًا إلى الحمام الملحق
بالغرفة، لحق به ووقف أمام الباب ينظر إليه، فأغلق
الدرويش الباب محدثًا إياه:

- عليّ قضاء حاجتي.

جلس ذهب أمام الباب يلحق مخالبه ويهرش ممشطًا ذيله،
أما برهان فقد وقف أمام حوض رخامي على حافته صندوق
صغير به عجين الصابون إلى جوار قنينة عطر، الحمام الفخم
ذكره بقصره في الزرقاء، قضى حاجته وعاد إلى الحوض
زجاجي المياه، هم بغسل وجهه وتوقف وهو يرى انعكاس
صورته، أشعث أغبر محمر المقلتين، حدث صورته متمتمًا:
«لم أعد أعرف من أنت»، وقبض على خنجره، طال غيابه
داخل الحمام، وحين خرج إليهم مرة أخرى كان مختلفًا عما
كانوا يعرفونه.

أمال ذهب رأسه يمينًا ويسارًا متفحصًا الواقف أمامه
باستغراب، كان أباه، نعم هو! ولكنها المرة الأولى التي يرى
فيها مظهره هكذا، حلق الدرويش رأسه تمامًا، أزال كل شعره
وهذب لحيته وشاربه، بدا غريبًا بالنسبة لهم، شب الذئب
وراح يلحق وجه والده، بدا أشبه ببياض القرش لولا أنه أنحف
كثيرًا، احتضن ذهب وقبل ما بين أذنيه ثم أنزله عن

صدره، توجهها إلى شاهين الذي لم ينزل بصره عنه، وقفا قبالة بعضهما وتطلع كل منهما للآخر وكان الدرويش أول من نطق:

- ما خطتك وقد أشرقت الشمس؟

- التحرك سيكون صعبًا الآن، ولو اكتشفوا أمر فرارنا فسيكون الوضع أصعب، تلك القرود كانت لقومك، أليس كذلك؟

- بلى، عليّ أن أتواصل معهم لأعلمهم أنني بالداخل.

- بعد ما حدث الليلة الماضية أظن أن سعد سيشدد الحراسة، ولعله يدفع بمزيد من القوات إلى الأسوار بعد نجاحه في صد هجوم قومك.

- متى نصعد إلى الحصن إذن؟

- سيكون علينا التريث قليلًا.

- لن نبقى هنا حتى يأتوا ويقضوا علينا.

قال شاهين بعصبية:

- اسمع يا رجل، أعني جيدًا ما ألم بك بعد مصاب صاحبك، وتعجبني هيئتك الجديدة هذه، ولكن لا وقت لدينا لنسترسل في الحديث، أنا بحاجة لأن أرسل أمينة إلى بعض المخلصين لي، أخوالي في الجانب الشرقي من الكفر، سينضمون إلينا

ونخوض المعركة إلى جوار قومك ومن هم في الخارج،
ستساعدني لأسترد حكمي وسأعاونك لتحرير أسراك. هذا
هو اتفاقنا، عليك أن تثق بنا، نحن وأنت على مقصلة واحدة،
إن لي في الحصن امرأة تحمل طفلي، ولن أتخلى عنه ولا عن
عرشي.

أنهى كلماته وتوجه إلى أمينة المكومة في ركن الغرفة قائلاً
بلطف:

- أمينة، إننا على المحك، لقد تخلت عنك سيدتك وهذا
عهدها، صعدت مع خدمها وحاشيتها إلى الحصن ولن تنزل
إلا لتمشي على جثثنا، أنت تعرفيني جيداً وخدمت عمي
وعائلتي من قبل أن أصبح حكمداراً، أعلم أنك خائفة، وأنا
مثلك، إن عثر علينا رشوان فسيقدم رأسينا إلى البرغوث.

- لا أريد أن أموت يا سيدي.

- لهذا عليك طاعتي.

أومات برأسها وحاولت أن تطمئن روحها القلقة وهو
يستطرد:

- أريد منك الذهاب إلى أخوالي في شرق الكفر، تعرفين
منازلهم وكبراءهم، أخبريهم بما حدث لرقية وسعد، قولي لهم
إني ما زلت حيّاً وأحتاج إلى مساعدتهم، بعدها أنت

حرّة، سأؤمن لك الخروج من الكفر إن أردت، أو البقاء حتى نستعيده.

- سيدي الحكمدار، ولكن ماذا لو قابلت رشوان أو رجاله؟

- لن يشك بك أحد، تعلي بأي أمر، أمينة أنا أثق بك.

- أنا خائفة.

- الخوف مهلكة، اغتسلي بسرعة لتذهبي.

- ما الذي سيجعلهم يصدقونني؟

شرد لبرهة قبل أن يرد عليها:

- سأمنحك شيئًا ترينهم إياه، وإياك أن تضيعيه، أخبريهم

أنا سنلتقي بعد غروب الشمس في الطاحونة القديمة بالقرب من السور الجنوبي الشرقي.

رحلت أمينة بعد أن لفتت على خصرها راية بني شمس

أسفل ملابسها الجديدة التي منحها إياها شاهين، راقبوا

الطريق قبل أن تخرج، وبعد ساعات وجدوا أن الجند قد

انتشر بكثافة في أرجاء الكفر، رجال سعد يفتشون الدور

والحقول بحثًا عن الذئب والحكمدار.

داخل الغرفة الضيقة في سرداب الكفر، جلس شاهين مستندًا إلى الحائط واضعًا بجواره القنديل وقربة ماء وبعض الفاكهة التي حصل عليها من خزانة بيت الضيافة، على مسافة منه وإلى الجدار الآخر أراح برهان ظهره، وعلى فخذه وضع ذهب رأسه، أغمض عينيه وأصابع أبيه تعبت في شعره الكثيف حول عنقه، على مقربة منهم كانت جثة بياض التي نقلوها معهم إلى النفق، بقيا على تلك الحالة لساعات يحتويهما الصمت إلى أن قام شاهين إلى صندوق أجداده، عبث بمقتنياته وأخذ يتفحص الكتب بداخله والحلي، وذهب الفضولي نهض متوجهًا إليه. اقترب منه ومد أنفه داخل الصندوق يتشممه مما جعل الرجل يرجع خطوتين للخلف، فهمس الدرويش:

- بهذه السهولة ابتعدت وتراجعت عن إرث أهلك.

لم يجبه شاهين، اكتفى بالبقاء جانبًا إلى أن انتهى الذئب مما يفعل، وذهب ليغلق الصندوق وصاحبه يستطرد:

- لم انقلب عليك قومك؟

- قومي؟ إنني الأخير من سلالة بني شمس، ومن انقلبوا عليّ ليسوا سوى مجرد أتباع لم يؤمنوا بما أريد تحقيقه.

- وزوجتك؟ سمعت حديثك مع الخادمة عنها، هل أحببت

زوجتك شخصًا آخر وفضلته عنك؟

زفر شاهين قبل أن يلتفت إليه:

- بل كانت لها مخططات أخرى، هكذا هي حياتنا تتقاطع وتتشابك مع ما يطمح إليه الآخرون، ماذا عنك؟

رمقه برهان وهو يتابع ذهب الذي دار حول نفسه قبل أن يجلس:

- ماذا عني؟ كنا آمنين حتى أتى رجالك إلى بحر الرمال، أنت من بدأت كل هذا بطمعك وسفكك للدماء، من أجل ماذا، عودة إمبراطورية عفا عليها الزمن؟ هل تظن أن غازي سيتركك هكذا من دون عقاب، أم أن ما تطمح إليه سهل المنال؟ انظر لحالك الآن أيها الحكمدار، هل تحب أن أناديك ابن الشمس؟ كنت تسخر من جدك الذي بقي في هذه السرايب لوقت طويل قبل أن يخرج إلى النور، وها أنت الآن مثله، هل تعتقد حقًا أن تلك الخادمة ستعينك؟

- لماذا وافقت إذن على خطتي بإرسالها؟

- لأن لا حل عندي سوى هذا، أريد إخراج من بقي حيًا من الأسرى وألا يُراق المزيد من الدماء، سأعود بجيش غابات الظلال إلى أراضيتهم وتنتهي هذه القصة.

ضحك شاهين وانتصبت أذنا ذهب ناحيته حين حدث
صاحبه:

- هل هذا حقًا ما تريده يا رجل؟ حلقت رأسك وتقلدت
سيفك وتريد الصعود إلى الحصن من أجل هذا فقط، لا أراك
إلا أحمق مثل صاحبك القتيل...

انتفض الدرويش غضبًا وقاطعه بحنق:

- لا تذكره، أنت السبب في كل هذا.

- ما لي أنا و حربكم هذه؟ لست سببًا في شيء، سعيت إلى
ما أريد، قصدت غايتي ولن يقف في طريقي عائق لتحقيقها.
أنت وقومك لا تعنون لي شيئًا، برزتم داخل خططي، حربي
مع بني الأزرق وسلطانهم وليست معكم، وإن أردتم خوضها
إلى جانبي فمرحبًا بكم ستكونون من المقربين حالما أعود
إلى عرش الزاهرة وأرفع راية بني شمس من جديد.

- حسنًا يا من لست سببًا في شيء، ما كل هذه الكتب
واللفائف داخل الصندوق؟

- تاريخ أسلافي، إرث ألف سنة وأكثر هو عمر إمبراطوريتنا،
كتب علوم متنوعة وشروح للعقيدة وتراجم للملوك وأشهر
عائلات تلال الشمس.

- ولكنني لم أر في الكفر معبدًا أو نُصبًا، على عكس بقية المدن والبلدات.

- عبد قومي النجوم والكواكب منذ زمن سحيق، وبماذا نفعتهم حين دخل بنو الأزرق إلى أراضيتهم؟ كانوا يعتقدون أن ذلك المنجم ليس إلا جزءًا من عطية الإله الساكن في قرص الشمس، يبحر بها في السماء ملقيًا دفئه ورحمته على عباده، وما منحهم تلك البقعة المسماة «عين الشمس» إلا ليعلي من شأنهم، ولكنها كانت علينا وبالًا كما كانت نعمة، قبل مائة سنة انشق قاع عين الشمس، وخرجت منها ريح كريهة قتلت الناس وأصابتهم بالوباء فحصد الموت الكثير من الأرواح. يقول البعض إن الإله غضب عليهم وخط من قدرهم وسلط عليهم قومًا آخرين، ولكن الحقيقة أنهم ضعفوا ووهنوا، لم يكن عليّ أن أؤمن بما كانوا يؤمنون، آخر من اعتنق تلك الديانة كان عمي، أما الإيمان الذي أعتنقه أنا فهو عودة حكم أسلافي وليس الخضوع لغيبيات وكتب مملوءة بالأساطير ككتاب بني الأزرق الذي يسمونه الجاباسكي، قرأت نصوصه الركيكة وكنت أضحك على ما خطه اللعين جاد ذو العين الزرقاء، كم أنتظر اليوم الذي أحطم فيه تمثاله العملاق فوق مرقد، سيأتي حتمًا ذلك اليوم الذي أغرس نصلي في قلب غازي المغتصب.

انتفض برهان، وميض من ذكرى قتل غازي لأهله، مبارزتهما والنصل المكسور على وجه الغاصب، كانت تلك فرصته للنجاة والهرب، ليته غرس ما تبقى من النصل في قلبه، شاهين يريد هذا أيضًا، وسأل نفسه: أيستطيع الرجل فعلها حقًا؟ ما بال الزمن يهزمنا كلما نسينا، يذكرنا ويفرض واقعًا جديدًا علينا، القصاص واجب، وهو الهارب الجبان في قصة أحدهم، يقنع نفسه أن ابن بني شمس واهم، لن يصل أحد إلى عش العقاب. أفاق على تغير نبرة شاهين الحماسية:

- لديّ حلفائي، ما زالوا ينتظرون الحاكم الأوحى الذي سيمحو الشرور ويعيد مجد أرض تلال الشمس من جديد، سيكونون إلى جوارى ووجب على قومك الانضمام إليّ.

- من هؤلاء؟ لا أرى لك أي أتباع هنا.

ابتسم شاهين ولمعت مقلته وهو يقول:

- حتى الآن.

سمع ذهب كل ما جاد به لسان شاهين، الرجل يحمل الكثير في قلبه كصاحبه الذي تبدلت هيئته، أكثر من تسع سنوات رافقه فيها، يعلم بأمر مزاجيته وتعدد أصواته، الدرويش الزاهد الهادئ الضاحك على الدوام، وبرهان الخائف الهارب من الذكريات. ثم صار الآن شخصًا جديدًا يستعر جوفه بنار

تكاد تحرق ما حوله، لعق ذهب جروحه، ليتهم ما غادروا
الوجار قَطُّ. أحب الإثارة التي تحدث من حولهم، ولكن بياض
مات. ذلك البشري النقي، أحبه ذهب كواحد من قطيعهم
الصغير، يذكر ضحكته الرائقة الصافية، قلبه الطيب النابض
بالمحبة توقف عن الخفقان. نقل بصره بين شاهين النائم إلى
جوار إرث أجداده، وجسد بياض المغطى براية بني شمس،
وحين استقر بصره على وجه أبيه وجده ينظر إليه، كان
شاردًا، فما كان منه إلا أن لعق يده، ابتسم الدرويش ومسح
بيده على رأسه محدثًا إياه بهمسات خافتة:

- تستغرب مذهري هذا، أليس كذلك أيها الجرو الشقي؟
أشعر بالحكة في رأسي كلما زاد تفكيري، وهناك أصوات
كثيرة تتزاحم في رأسي ولم أعد أطيقها يا ذهب. تذكر
تلك الأوقات الممتعة التي قضيناها معًا في وجارنا ببطن
الصحراء؟ يبدو أننا لن نحصل على مثلها في القريب، تبدل
كل شيء الآن، بينما نحن حبيسا ذلك النفق ينعم القتلة
بالحياة ورغدها. أنا قُتلت مرتين، مرة حين فقدت عالمي
وما أملك، ويوم مات بياض. أنا رجل النهاية، وهذا مشهدي
الأخير، ربما.

صمت برهان، نهض ذهب مقتربًا من أبيه، دس أنفه في
عنقه وراح يحك رأسه به معاتبًا، فحدثه مرة أخرى:

- أعلم أنني أقحمتك في هذا الأمر، ولكنني قلت لك ألا تفارق
بياض القرش، كان عليك أن تمنعه من المجيء إلى هنا،
أخشى أن يصيبك مكروه أنت أيضًا.

تبدلت نبرة الرجل مرة ثالثة:

- سيكون علينا القتال حتى الرمق الأخير، أريدك إلى
جواني حتى ننتقم من القتلة أجمعين، لنسفك دماءهم من
أجل أحبائنا وما حاق بهم.

برقت عينا ذهب وهو يتطلع إلى أبيه الذي بدا بالفعل
كشخص آخر. ثلاثة أصوات حدثوه، وثلاثتهم يتضاربون
في الرؤى وما يريدون، ولكن الأخير كان يفيض بالبغض
والغضب والانتقام.

ليتهم يعودون إلى الوجار، الصيد ومطاردة الأرانب
والغزلان، التمرغ في كثبان الرمال الناعمة، والتجول تحت
النجوم ليلاً، هذه هي الحياة التي ينشدها، الركض مع الريح
فوق التلال، والسباحة في بركة واحتهما السرية، لا ينشد إلا
الحرية التي صار يفتقدها الآن، لم يقتل البشر بعضهم بعضًا،
لماذا قُتل طيب القلب؟ أحبه ذهب، جلس إلى جوار جثته
متكومًا على نفسه، حزينًا على ما أصاب حياتهم من جنون.

قبيل المغيب جاءتهم أمينة بالبشرى، نجحت في إخبار

أخوال الحكمدار وعائلته بأمر نجاته، سيقفون إلى جانبه إن رأوه حيًّا والتقوا به، انتفخ شاهين بالفخر، لم تخذله أمينة وعملت وفق ما أملاه عليها ضميرها أو مصلحتها، اختارت جانبها هذه المرة بعناية، وتحركوا جميعًا بخفة إلى حيث اللقاء.

محاربون

مشافهة الجدات وحكاياتهن تُحفر في وجداننا، يمنحنا خلاصة ما حملنه عن آبائهن وأسلافهن عبر الزمن، نذكر ما تحقق من أحلامهن وابتساماتهن، راضيات عن هزائم الدهر، يرحلن وتطوف بنا أرواحهن بين الحين والآخر. في عقل كونوا وواقعها جالت فراشة ذات أجنحة لامعة فضاء القبو، سكن الظلام في الأركان بفعل اقتحام ضوء النهار الشحيح للمكان، الرطوبة مرتفعة والأجساد متعرقّة، عطشى أعيانهم السهر واستشرف الغيب، بطن سيرين يؤلمها وكونوا تهدئ من روعها، لا أثر لهدير معركة أو فرح للانتصارات، السكون والصمت هما الغالبان على المكان والزمان، ساعات مرت، جاء الجند ليلقوا إليهم الفتات وما تبقى من طعامهم، سطل ماء وضعه أحدهم في منتصف المكان محدثًا صاحبه:

- لا أعلم لمَ نطعم هؤلاء الأسرى بينما جيشهم يحاصرنا، لو كان الأمر بيدي لقتلتهم جميعًا وألقيت بجثثهم من فوق الحصن كما فعل القائمقام بقائدهم.

رد عليه الذي كان يضع غرفة من حساء الشعير إلى الطبق الخشبي أمام كونوا:

- ماذا بك أيها الأحمق، إنهم ملك السلطان غازي وفق نص الجاباسكي، سنرسلهم إليه حالما ننهي هذا الحصار.

رد الأول وهو يتطلع إلى وجه سيرين وكونوا مشيرًا إليهن:
- سينعم السلطان بهذه المتوحشة وأقربائها، ولكن بعد أن نحصل على كفايتنا منهن.

لكمه رفيقهما الثالث بكتفه:

- فكر بسيفك والمعركة التي سنخوضها ولا تفكر بقضيبك، وإلا قطعه لك القائمقام.

ضحكوا جميعًا حتى رد المتذمر:

- من يحدثكم عن المعارك والسيوف هذا، بال على نفسه ليلة أمس وفر هاربًا من على سور الكفر.

- لو رأيت ما لقيناه بالأسفل لكنت أول الفارين، إن هؤلاء القوم سحرة، يتحولون لغيلان لها أنياب، بالكاد استطعنا الفكك منهم.

قال أحدهم بصوت مرتفع:

- أفرغوا ما في أيديكم وكفاكم ثرثرة، علينا العودة والاستعداد للقادم، هيا.

تبادل الجند الحديث وهم يفرغون ما بقي من قدر الحساء في قصعة كبيرة أمام مجموعة من الأسرى، لم تأكل كونوا وشردت فيما قاله الجند، «ليتحرروا على قومها أن ينتصروا»، ليس هناك حل آخر. أقحموا في هذه الحرب بلا سبب، قتل أحبائهم وفقدوا عالمهم، حروبهم في غابة الظلال كانت مجرد لعبة صغيرة، ولكن العالم شاسع وأكبر مما كانوا يعتقدون، لقرون ظلوا حبيسي الغابة حتى جاءهم الشرير بالنيران، تلك هي حرب النهاية التي قالت عنها الحوريات، ولكن ليس معهم الرمح الفضي، تذكر ما قصته جدتها ذات يوم غزير المطر، الكثير من الفتية والصبايا كانوا يتحلقون حول النيران وسيرين تحكي:

- بعد الحزن فرح، وبعد الضيق فرج، وفي نهاية الزمان سيتقاتل حارس الرمح الفضي وسيد النار، راية الأخيار ستجمع الفرقاء، وللشر ألف وجه ووجه، وحين يلتقي الجمعان تلك معركة النهاية حيث يبدأ كل شيء من جديد، سيحمل أمير غابة الظلال رمحه المقدس، الذي منحته لنا الحوريات في قديم الزمن.

نفضت كونوا أقاويل سيرين وقصص جدتها، أساطير قديمة عفا عليها الزمن، لم يعد قومها يملكون ذلك الرمح الأسطوري، جدها البعيد أخذه معه إلى جبال الإفريز ولم

يعد، وجيش قبيلتها في الخارج ربما يكون لقمة سائغة لآسريهم، لا تعلم إن كان أبوها معهم أم كتيمة فقط، كل ما رأته هو جيش يمتد في الأفق خلف جدار النخيل، دام شرودها ولم تأكل شيئًا، بينما كانت سيرين تحكي وبقية الأسرى يأكلون ما دفع إليهم راود عقلها سؤال ملح، هل صدقت نبوءة جدتها وحكاياتها عن معركة حارس الرمح الفضي مع سيد النار؟ ذلك الشر الذي سيعود يومًا ليهلك الأحياء وينشر الشرور، وهو ما يقوم به ذلك المدعو سعد.

قبيل المغيب وفوق البرج الكبير وقف القائم مقام متطلعًا للأفق شاردًا، أسفله البوابة الشمالية الصغيرة، وطريق ضيق يمتد بين تلال صخرية صغيرة وعرة، ورياح خفيفة جنوبية دافئة تعبت بقميصه الكتان الخفيف، والراية المتدلّية بالسارية بجواره، كان قد أوى إلى الفراش قبل الفجر، من حصنه المرتفع أرشد رجاله لصد هجوم البرابرة ومحاربيهم غربي الأطوار، شجعهم وشد من أزرهم على الرغم مما ألم به من وجع، علم بهروب الذئب والحكمدار، لم يقف عند تعجبه كثيرًا وذهب للنوم. استيقظ منذ قليل بعد أن حظي بساعات نوم متقطعة جراء الكوابيس، زارته أجساد موتى أحياء جلودهم مشوية يتصاعد من تشققاتها الدخان، كانوا

سريعي الحركة حمر العيون، طاردوه وأرادوا النيل منه،
وتقطعت به السبل هربًا واستيقظ مرارًا فزعًا. روزاليندا كانت
بجواره تحتضنه وتربت عليه، مسحت عرقه وخفت حرارته
بالأقمشة المنقوعة في الماء البارد، زارته الحمى وشبح
بياض أيضًا، ولكنه لم يتحدث أو يفعل شيئًا، فقط وقف
على مسافة منه ينظر إليه بعينين خاويتين. خيبت الجروح
وازرق الكدمات، وغزا الألم بصنوفه جسده المسجى، عليه
الاستمرار فيما هو فيه، إن ضعف أو شعر من حوله بذلك فقد
ينقلبون عليه، لو لم يأت جيش الهمج إلى تلك الأنحاء لكان
في طريقه الآن إلى الزرقاء وسلطانها. سيهزمهم شر هزيمة
ويضيف إلى سجله العسكري انتصارًا جديدًا، هذا هو وقت
عزه ومجده، وليكن طريق غايته معبدًا بجماجم من سيقف
في طريقه. باغته صوت أنثوي بينما كان هائمًا في تفاصيل
خطة يبغى لها التمام، انتبه وسمع ما قيل ثم أجاب صاحبة
السؤال من دون أن يلتفت:

- درب خلاصنا البوغاز ورائحة ملح البحر.

- تشتاق إلى البوغاز؟

- البوغاز التي أعرفها غير تلك التي كنت تسكنين بها، لا
أظن أن نبيلة مثلك وطأت قدماها حارة السنان والحي
الأحمر، نزلة الحدادين وحي بني دقمر، هذا الأخير كان

أكثرهم خطورة، هناك نشأت، إنه مرتع الأوبئة والفقر والفئران.

عقدت حاجبيها وهي تقف إلى جواره وضافت عيناها الكحيلتان تبصران الأفق البعيد، حيث تلتقي زرقة السماء بقمم الهضاب والجبال الصغيرة، ظلت صامتة لبعض الوقت، وبقي سعد جامدًا هو الآخر، ومرة أخرى بدأت هي الحديث:

- أليس من المفترض أن تولي وجهك شطر الجنوب، كما أن رشوان أخبرني بهروب الذئب و...

قاطعها بنبرة بها الكثير من الغلظة:

- زوجك، لا تقلقي، سأنهاي أمرهم الليلة مهما كلف الأمر. إنهم ثلة من الهمج، ورجالي في الأسفل يبحثون عنهم وسيأتونني برأسيهما عاجلاً أم آجلاً.

- حسناً، لن أقلق ولكن، ماذا سنفعل بعد ذلك؟

التفت إليها بوجهه المسجى وعينه المتورمة:

- السلطان ينتظر غنيمته وعليّ أن أوصلها له، وقبل أن أرحل سأمنحك السيطرة الكاملة على الكفر وأنحائه، وحتى هذه اللحظة ابقِي داخل الحصن، الأعداء حولنا وبين ظهورنا، ويبدو أن زوجك وجد رفقة، ولو كنت مكانه فأول ما سيأتي

في عقلي أن أقتلع رأسك عن جسدك.

ألقى جملته الثقيلة على قلبها وغادر المكان، كظمت غيظها وخوفها وراقبت رحيله يعرج، تعجبت من ثقته في نفسه وما يستطيع فعله، هو شخص غريب الأطوار كما عهدته، لا روح فيه ولا مشاعر تسري داخله، قلب متحجر لا يأبه إلا لذاته ونجاته، عليها الحذر منه وأخذ الحيطة، رأت بأم عينها كيف تغلب على صاحبه الضخم، وعلى الرغم من عفو الأخير عنه، فإنه حين سنحت الفرصة للبرغوث فإن لدغته كانت مميتة. سيتملص ويقا تل حتى آخر رمق، وعليها أن تكون إلى جواره بل وتسيطر عليه، لن تتصادم معه حتى ينتهي الأمر، من يغلب النساء في الكيد؟ ستدبر أمره كما دبرت أمر ابن عز الدين الشمسي، جفلت لمجرد مروره بخاطرها، تعرف مدى قسوته ولكنها أكثر أهل الأرض دراية به، لا يهمها كيف هرب ونجا، بل ولم يأكله الذئب. أين ذهب، تمتت ألا يطول الحصار كثيرًا، سينتصر سعد كما قال، حاولت طمأنة روحها فازدادت اشتعالًا وانشغالًا، تذكر ما قالتها لها العرافة منجية، الذئب صار داخل كفرها، لا تدري لماذا لم تأمر بقتله. تابعت ببصرها سعد الذي وقف مع رشوان في منتصف الحصن يتحادثان، مشيا معًا فوق خوف نما بداخلها، صارت تخشاهم جميعًا، وما زال ضميرها يؤنبها لما حل بزوجها، لامتها نفسها، وتراجعت حين لمحت سميرة، لم تعد ترغب بوجودها معها

في ذات الحصن، جاءت عشيقة الخائن ووقفت على مقربة منها، كم تفتقد أمينة المخلصة لها، رسمت الشابة الحسنة ابتسامة باهتة على ملامحها، أحنت رأسها بتبجيل وقالت بنبرة متلعثمة لم تخل من القلق:

- ست رقية، أعتذر عن قطع خلوتك.

- ماذا تريدان؟

- جئت لأطمئن عليك.

رمتها رقية بنظرة لاح في أفقها الارتباب:

- أنا بخير، فقط ما زلت أنتظر خبرًا يسعدنا، سيقتلونه إن وجدوه.

- من؟

- أما جئت لتعرفي خبر شاهين؟ ما سمعته صحيح، لم يأكله الذئب بعد، هرب وربما يجد سبيلاً إلى هنا ليقتلنا. يبدو أنني لم أذكر لك أنني حين زرت في محبسه آخر مرة حرصت على إخباره بأمر حملك الكاذب.

كذبت رقية كيداً في سميرة التي ارتجفت وهي تتذكر ما كان بينها وبينه، يوم أخبرته بحملها الكاذب، فرحته وبهجته بالخبر سيتحولان إلى انتقام بالتأكيد. ليتها استطاعت الهرب

من الكفر حين سنحت لها الفرصة، سارت خلف سيدتها التي دارت فوق سور الحصن تشجع الجند، أجزلت رقية في حثهم على الصبر والثبات بكلمات راقية وابتسامة صافية، حتى استقر بهم المقام فوق باحة السور حيث ألقيت بالأمس جثة بياض، تفحصت البحيرة باحثة عن أثر له، الكفر الهادئ يمتد تحتها، خاوي الطرقات إلا من الجند. والسور الجنوبي ضئيل بجوار جدار النخيل، وجيش العدو تعلوه سحابة دخان من أثر نيران معسكرهم المستقر تحت شفق الغروب.

جمال بض، رقيقة هي روزاليندا، ناعمة المحيا والبدن، صافية السريرة وكأنما خلقت له خصيصًا. تعامله برفق ولين وطيب خاطر، سهرت على مداواة ما ألم به، أطعمته ورفض شرب النبيذ وهي تلف جسده بالضمادات، الألم كان يفوق طاقته ولكنها مسكنه، ساعدته على ارتداء درع جلدية خفيفة، وشدت إزار بني الأزرق على خصره، ربطت حزام غمده وتأكدت من صقل الخنجرين، عانقته كأم تهندم طفلًا في ليلة عيد، جميل هو سعد! مقاتل يشق درب الحياة الصعبة، من القاع مثلها، شخص ذاق الألم في سن مبكرة، سحقه الزمن بخيارات صعبة، سُجن وغُذب، نجا في هذا العالم الظالم، عاملها الجميع على أنها عاهرة حتى وجدت في

ظله الأمان والعفة. قبلته وتمنت له نصرًا ورفعة، أغدق عليها
بنظرة عميقة وهمس في أذنها:

- روزا، شكرا لك.

ودعته ولم تمنع سحب الدمع من الإمطار، خرج فتبعته إلى
ظلمة الحصن، كان سعد قد أمر رشوان بالألأ يضاء مشعل أو
قنديل ولا أي نيران، أراد للحصن أن يغرق في الظلام، كذلك
طرقات الكفر وريفه، يضوي هلال وليد بين نجوم ما قبل
الفجر على خوذات فرق جيشه الصغير، خيالة ومشاة وحملة
بنادق. امتطى سعد جواده الجائي على ركبتيه الأماميتين،
وسار بين صفوف الجند حتى صار في مقدمتهم، لم يلق أي
كلمة، فقط حث جواده على التقدم بروية فتبعه الجميع، نزل
عن القنطرة مارًا ببيت الحكمدارية، فرق الحراسة والمناوبات
تنتشر في الدروب ليتأكدوا من ظلمة الكفر. شق طريقه
إلى بوابة الكفر الجنوبية المفتوحة على مصراعيها من قبل
وصوله، عبر من ظلال ظلمتها إلى جدار النخيل، وكمن.

خطته كانت تقتضي هجومًا مباغتًا على محاصريه، جمع
كل قوته ولم يترك إلا حرس البوابات والأسوار، أرادها أن
تكون لدغة حربية، سيجتاح معسكرهم ويحرقه بينما تجول
السيوف ويستقر البارود في أجسادهم النتنة. كمنت ثلاث
كتائب بطول جدار النخيل، جميع الخيالة والفرسان

مع سعد في المنتصف، والميمنة يقودها رشوان مع المشاة
وحملة البنادق، والميسرة أحد ملازمي بني الأزرق، يُدعى
قاطع ومعه الرماة، كانوا في انتظار إشارته. تأكد من تمام
الصفوف على الرغم من الظلام، تلك لحظة سيخلدها التاريخ
وربما يمنحونها اسمها و... دوى في سمع الأحياء عواء عميق
طويل.

قبل أن يحل السكون مرة أخرى تبادل جميع رجال سعد
النظرات فيما بينهم، وجلت القلوب وارتعدت الفرائص،
لم تكن تلك الإشارة المتفق عليها. على الجانب الآخر في
معسكر جيش كتيبي، انتبه سلام واستيقظ ونشط وركض
إلى رجال الحراسة لإيقاظ بقية الجيش. أطلق الذئب عواء
تحذير ما لبث أن تكرر، وبينما كان العواء يرن مجددًا في
الآذان، استشاط سعد غضبًا وراح يصيح في رجاله:

- إلى الأمام، تقدموا.

أشعلت الجذوات والمشاعل، وخرجوا خلفه من بين جذوع
النخيل، أعيا جواده الفرسان من خلفه وهم يحاولون اللحاق
به، ومن فوق رؤوسهم مرت سهام رماة قاطع المشتعلة،
سقطت وبالأعلى على مخيم جيش غابة الظلال، اجتاحهم سعد
على الرغم من تنبيه الذئب اللعين لهم، كان من الغباء ترك
حرس الأسوار فقط خلفه، لا يدري حجم الفخ الذي

وقع فيه، وعلى وهج النيران المشعلة في رؤوس الخيام، اقتحم وفرسانه قلب المعسكر وعن جانبيه قتال يتساقط فيه الرجال والدواب من الجانبين، قاتل بضراوة وشراسة ورأى ما تسبب في هلع رجاله؛ القرود اللعينة، مرة أخرى نشطت تقفز فوق هامات الفرسان والخيول، تسقطهم وتنهش رقابهم، دارت سيوف رجاله في كل من صادفهم، قطعوا الرقاب وغرسوا السيوف في الصدور، تفجرت الدماء ولوثت الوجوه. قاد كتيبي رجاله ببسالة، زعماء القبائل كانوا على موعد لاختبار مهاراتهم وقوتهم، فؤوسهم ورماحهم كان لها نصيب من دماء رجال سعد، ازدادت النار في استعارها وانتشارها، أجساد مشتعلة وخيول تركض، دخان خانق، دوى بوق الانسحاب عن يمينه، سمع سعد وخيالته الصوت، ازداد غضبًا وسخطًا، تساءل في نفسه عما يفعله ذلك الغبي رشوان، طاف حاصدًا الموت صارحًا في رجاله بالتقدم، ومرة أخرى راح دوي البوق يصدح في الآذان، ولكن هذه المرة عن شماله، وما لبث أن كرر قاطع النفخ في بوقه، ليعلن انسحاب الرماة، ما الذي يحدث داخل جيشه؟ هل خانته رجاله؟ خاض معركة من الأسئلة بجانب معركته القائمة، وفي خضم حربه ومبارزته توترت الخيل أكثر، هاجت وماجت، ارتفع الصهيل وكانت فرصة مواتية لكتيبي وسلام وجيش الغابة في أخذ قدم على عدوهم، راحوا يقاتلون بشراسة وهم يشعرون

بدبدة تأتيهم من الأرض من تحتهم، وضوء النهار الأول يتسلل من الأفق البعيد، الدخان والنار حجا الرؤية من المسافات البعيدة، والدبدة تقترب أكثر فأكثر.

اقتحمت ساحة القتال وحوش غريبة ضخمة لها قرون عظيمة، راحت تطيح بالخييل وفرسانها، هجمت تطاردهم في أرجاء المعسكر المجتاح، الأسهم القصيرة والرماح رُشقت في الرقاب والصدور، نادى سعد في رجاله بالتراجع. ووجم حين وقعت عيناه على أحد هذه الوحوش، النيران من خلفه رسمته بالظلال، ثور جاموس ماء ضخم، كبير للغاية حتى إنه يحمل على ظهره صندوقًا خشبيًا متصلًا بلجام من سلاسل نحاسية توهجت بضئ النيران، يقوده وحش آخر له شعر أشعث، أطال النظر مدققًا ومتحققًا مما يراه، كانوا أناسًا يدهنون وجوههم بلون أحمر تلمع النيران هيئته، ويلبسون فراء ذكور الأسود كخوذة ودرع على الرقبة والأكتاف، جعلتهم تلك الأزياء أضخم وأكثر وحشية ورعبًا، أفاق من شروده وهو يرى الراكب الآخر للثور، شخصًا نحيفًا يطلق الأسهم بسرعة ومهارة. فكر سعد في الهجوم إلا أن فرسانه نادوه لينطلق معهم، وطاردهم قطع الثيران الغريب، كانوا كالفارين من الموت، سيدهسونهم إن توقفوا والسبيل الوحيد هو جذبهم إلى الأسوار وإمطارهم بوابل من البارود، حالما سيعبرون بوابة الكفر ستغلق خلفهم ويصطاد رجاله من

خلفهم، مفتوحة على مصراعيها والأسوار أضيئت بالمشاعل،
النهار بدأ في غزو السماء. الثيران أبطأت سرعتها بفعل
جذوع النخيل المتقاربة، البوابة تقترب ورجاله يتراصون
فوقها. هداً من سرعة جواده وعبر أسفلها ومن خلفه من
تبقى من فرسانه، أول من وقعت عليه عيناه هو رشوان
وقاطع في استقباله، كظم غيظه عنهما واما فعلاه، سيكون
لهما حساب آخر حالما يفرغ من هؤلاء البرابرة، صاح فيمن
حوله:

- أغلقوا البوابة أيها الأغبياء.

قبل أن يتم كلماته برز أعلى حافة البوابة الحكمدار شاهين
بن عز الدين، لم يخطئه سعد الذي دار جواده حول نفسه
من أثر توتر فارسه، ضحك شاهين ملء وجهه، برزت أسنانه
البيضاء جلية لمن هم بالأسفل، رشوان الذي تجمد وقاطع
الذي أشار لرجاله بتعبئة البنادق، وحدثهم شاهين بصوت
جهوري تردد صداه:

- اللعنة، كم أحب هذه المسحة على وجوهكم. اشتقتم إليّ،
أليس كذلك؟

وهنا ظهر إلى جواره الذئب وصاحبه الأصلع، حاول سعد
أن يزيح صورة بياض عن المشهد، ولكن الرجل كان يشبهه
في حالته الأخيرة وإن كان أقل وأنحف جسداً، صهلت الخيل

فزعة إثر إحساسهم بوجود الذئب، حاول سعد تفسير ما يحدث حوله، وأكمل شاهين حديثه:

- انضموا لنا، أو ألقوا أسلحتكم واستسلموا، أنا شاهين بن عز الدين الشمسي حكمدار كفر البردقوش وسيد هذه الأرض.

ناداه سعد من الأسفل:

- شاهين، هل تظن أنك باستعراضك هذا ستسلب ما نملك؟
- لا تملكون إلا أرواحكم البائسة، افتدوها، ولا تجعلوا للخيانة قدمًا أخرى فوقكم.

اهتزت صفوف الرجال وانتشرت الهمهمات، وصاح قاطع في حملة بنادقه:
- استعدوا.

رُفعت فوهات البنادق ناحية أعلى السور، وثبتت كعوبها على الأكتاف، تحسست أصابع الجند زناد الإطلاق، وسعد يقول:

- ربما استطعت تدبير السطو والسيطرة على السور والبوابة...

وبتر بقية كلماته وهو يلمح تجمعات من أهل الكفر يبرزون

على أطراف الأزقة والطرقات، يحملون السيوف والمناجل والهراوات، وهنا أدرك سعد أن شاهين لم يكن سهلاً قَطُّ كما ظن، لقد كانت للرجل خطة بديلة لكل شيء، هرب وعمل على جمع المقربين منه وأهليهم وعمالهم، وبينما كان يتحسس مخرجًا من ذلك المأزق، جاءه صوت شاهين الساخر:

- أين لسانك أيها البرغوث الخائن؟

تسارعت أنفاس سعد، وقبضت أصابعه على لجام حصانه، وصاح بصوت مرتفع مباغت:

- أطلقوا النيران.

لم يتردد رجال قاطع في رمي السور ومن فوقه بالبنادق، كان الدوي المتوالي إنذارًا ببدء معركة جديدة لسعد، انسحب من الأولى ليقع في فخ الثانية، انقض أتباع شاهين من الأزقة وفوق المنازل، ووجد رشوان والقائمقام نفسيهما بين فكي الموت، قاتلا بشجاعة، حاول سعد التقدم بحصانه ولكن الزحام شديد، الصيحات اقترنت بصليل السيوف، ونزل إلى ساحة المعركة شاهين والذئب وبرهان، أمر من هم على الأسوار بالبقاء في الأعلى وشق الرفاق طريقهم نحو سعد، كل من صادفهم سقط جريحًا أو قتيلاً، نجح قاطع ورجاله في التراجع إلى داخل السوق عبورًا إلى طريق القنطرة، فتح الطريق من خلفه لرشوان ورجاله ومنح سعد مساحة

للانسحاب، حث جواده على التقدم وبالفعل انطلق راکضًا تتفاداه الأجساد، صار على مقربة من رجال رشوان وقاطع الذين أقاموا المتاريس وشدوا الحواجز.

ارتطم برقبة الحصان ظل كبير اندفع من الجانب، طار سعد في الهواء متشقلبًا، رأى الذئب يقضم رقبة الجواد القوي، رأى الدماء تتفجر وتطير في سماء الشروق الوردية، رأى بياض القرش يقاتل بين الجند، وارتطم سعد بالأرض.

* * *

أرفع الرجال شأنًا من يبذلون أرواحهم فداءً وتضحية في سبيل ما يعتقدون وما يعتنقون من أفكار، وقاطع بن سليم من هؤلاء الرجال، يحب الحرب ويعتنق المخاطرة، لا يترك وراءه مصابًا، ولا ينسحب من أرض الميدان، وما كان رجوعه عن معسكر الأعداء إلا لتنظيم صفوفه حين رأى الهجوم القادم من الخلف، هكذا تربي داخل جيش بني الأزرق. مد يده لسعد ليساعده على النهوض، ولكنها لم تصل، شعر بمقصلة تقضم رسغه، انغرست أنياب الذئب مخترقة لحمه ومهشمة العظم، صرخ مرتاعًا والمسعود يحرك رأسه يمينًا ويسارًا بجنون، نظر إلى سعد بعينيه الجاحظتين وعروق وجهه المحتقن تكاد تنفجر، وألقى قاطع جانبًا كخرقة بالية من دون ذراعه. نهض سعد بصعوبة متحاملاً على آلامه،

تواجهها ومن حولهما هدير معركة طاحنة، طرح ذهب ذراع قاطع جانبًا وأخذ يتأمل سعد بعينيه الشهلاوين المتقدتين، تحسس سعد مقبضي خنجريه، كان في أسوأ حالاته، الوجع يرهقه وبالكد يستطيع الوقوف، وعليه أن يقاتل ذئبًا. رجال قاطع يساعدون قائدهم ورشوان يقاتل متراجعًا إلى القنطرة، وفرسانه وما تبقى من بعض المشاة يشتبكون مع شاهين ومن معه.

انقض ذهب ونجح سعد في مناورته، يعرج بينما عدوه ضخم ومزود بأنياب ومخالب وبغض. يذكر لقاءهما الأول في بحر الرمال، اللعنة، لماذا يقف بياض وراء الذئب الذي يهاجمه؟ شرد سعد وتعثر، وتلك كانت فرصة ذهب المثلى، حاول الإمساك بفخذ سعد ولكن الضئيل تملص، أخذ القائمقام يقاوم راکلاً مثيرًا الغبار حوله، اغتاض المفترس واستشاط غضبًا، أخذ يزمجر مكشراً عن أنيابه، دار ذهب حول سعد مرة أخرى بسرعة فكشفت رقبة الأخير، وعقره الذئب. لم يستغرق الأمر هنيهة وتناثرت الدماء.

يقولون في البوغاز: «لا تفلت البرغوث قبل أن تسمع طقطقة موته»، ولم يكن الصوت المسموع هو صراخ سعد أو حشرجة موت، بل عواء وعويل الذئب المجروح، استطاع سعد بخفة أن يتفادى قضة ذهب طاعنًا خطمه بخنجره،

تفجرت الدماء من أنف المفترس، تراجع متألماً ما أتاح الفرصة ليهرب البرغوث خلف دروع رجاله الذين هاجموا الذئب. وانضم شاهين إلى جواره مدافعاً عنه، كان كالإعصار مدويًا يدور مطيحًا بهم مسانداً له، فما كان من ذهب إلا أن أخذ يقاتلهم بشراسة مضاعفة وقد جن جنونه، حيوان مسعور راح ينهش البطون والرقاب، وجاء الدرويش راکضاً ليساعد ذهب الغاضب، ركض سعد إلى حصان أتى به الجند له، امتطاه بمساعدة رجال قاطع، ومن على صهوته رأى الآتي من خارج البوابة، نادى بكل قوته وهو يلكر حصانه:

- انسحبوا إلى الحصن.

بدأ الاشتباك ينفذ، رجال سعد ينسحبون إلى القنطرة يطاردتهم رجال شاهين الواقف في منتصف الساحة ملطخاً بأثر المعركة وسيف الشمس يقطر دمًا، زفر وهز رأسه للذئب محيياً إياه، وصاح في أنصاره محملاً إياهم:

- تقدموا، أشرقت شمسنا ولن تغيب بعد اليوم.

لم يخذله أهل الكفر وأخواله، ضحك منادياً سعد بصوت جهوري:

- لنا ساعة أيها البرغوث، لنا ساعة.

وراءه كان الدرويش ينفث غضباً بوجه مخضب بالدماء،

رمى طرف عينه إلى ذهب الواقف إلى جواره يلحق بلسانه الطويل أنفه المجروح، انحنى وتفحصه وربّت على رأسه بحنان، جرح سطحي. أغمض الذئب عينيه ومسح رأسه في بطن أبيه، وعلى عتبة البوابة المفتوحة على مصراعها كان يقف سلام وكتيمبي ومقاتلو جيش غابة الظلال.

اصطبحت شمس اليوم الجديد بوجوه غريبة عن تلك الأنحاء، وحالة لم تعهدها بكفر البردقوش، أسرى يساقون إلى أبراج الأسوار لحبسهم، وجرحى يُحملون على نقالات من الخشب والقماش. في الأزقة المشرقية من الكفر كان الحزن يخيم، قُتل عدد من مناصري شاهين، واساهم فيمن فقدوا وتوعد بالثأر، أخوال أمه ربّتوا على كتفه أيضًا، وكبيرهم أكد له أمام جمع غفير أنهم لن يتراجعوا عن استرداد بقية البلدة من الخونة، سيسقط الحصن حتمًا، رفع عينيه إلى الحصن العالي، هو من بناه بهذه المتانة والآن عليه اقتحامه، مر كل شيء بخلده سريعًا، جهز جيشًا وانقلبوا عليه، ولكن القدر منحه جيشًا أقوى وأشرس، لم يكن مؤمنًا يومًا سوى بنفسه وما يستطيع فعله، جال ببصره في الوجوه القاسية لأعراق وأجناس مختلفة من حوله، ابتسم لرؤية الثيران الضخمة عملاقة القرون وهي تدلف عبر بوابة الكفر، ثبت

بصره على هؤلاء الذين يرتدون لبدات ورؤوس الأسود،
وأثارت حماسه قردة البابون التي تمشي منتصبية كالرجال،
من هؤلاء القوم؟ ومن أين أتوا؟ قصات شعر عجيبة ودروع
من عظام المفترسات وجلود التماسيح، وجوه ملطخة بطلاء
مختلفة ألوانه، كتائب وفرق دخلوا إلى ساحة الكفر التي
اكتظت بهم دروبه، جاء اجتياحهم له على هواه، حصل على
جيش جديد أشرس وأقوى مما كان يريد.

كان في غمرة نشوته حين جاءه حلفاؤه الجدد، تقدمهم
الذئب المجروح خطمه، ورائه كان الدرويش وكتيمبي
وسلام وجمهرة من قاداتهم، وقفوا أمامه وقد كانوا اختلوا
بعضهم ببعض من دونه قبل قليل، ابتسامة عريضة اختفت
من على وجهه حين رأى الحزن متجليًا على محياهم، ظن
أنه يعرف القصير ذا الشعر الهائج بينهم، نعم هو ذلك المغني
سلام، الدمع يترقرق في عينيه، والحكمدار فطن، تبدلت
ملامحه مظهرًا الحزن والأسى ومحدثًا إياهم:

- أعي قدر حزنكم على صاحبكم، كما أثمن مساعدتكم لي
في تحرير ممتلكاتي. سيكون علينا إرسال قوات لمحاصرة
الجهة الأخرى من الحصن.

وقبل أن يتم كلمته انقض عليه سلام، لكمة واحدة كانت
كافية لأن يحتقن الوضع، أشهرت السيوف والأسلحة،

مناصرو شاهين كانوا الأقرب، دفع أحدهم سلام وكاد الآخر أن يفصل رأسه عن كتفيه لولا أن منعه رمح كتيبي، اصطك السلاحان بصليل أخرس حتى الهوء عن العبت بالأغصان، الذئب تقدم خطوتين ليقف إلى جوار سلام رامقًا شاهين، بدا أن الوحش هو الذي يقود الجميع، صدقت منجية العرافة، الذئب من يحكم بعدي. ردها في نفسه وقال لرجاله أمرًا:

- تراجعوا.

تركا سلام وتراجعا خلف حكمدارهم الذي أمسك ذقنه محدثًا من يقفون أمامه:

- سأغفر هذه، أنتم ضيوفنا.

قاطعه كتيبي متقدمًا نحوه:

- هذه أرض اكتسبناها وأنت هنا لتخدمنا، أبو الذهب أخبرنا بفعلتك، لا تنس أنك المجرم الأول في تلك الحكاية، لن تُعفى.

رد شاهين ببرود:

- إن كانت هذه أرضكم فاسلبوها، ادخلوا إلى بيوتها وحوانيتها واسرقوا ما تشاءون، احرقوها إن كنتم تريدون هذا، ولكن ما تريدونه حقًا يقبع داخل هذا الحصن، أهلكم، أبناؤكم ربما، أو زوجاتكم، سأساعدكم بشرط.

تدخل سلام موجهًا حديثه لكتيمبي:

- لا تثق بهذا الرجل.

تطلع إليه كتيمبي ذو الدرع الجلدية المفصلة من حراشف تمساح، وسلام يتابع حديثه:

- هو من أرسلنا، إنه تابع لسultan بني الأزرق الذي أرسل جيوشه جنوبًا، هو من قتل بياض مرتين، اقتله يا كتيمبي.

ودَّ الشاب لو فعلها، ولكن نظرات الدرويش الصامتة تقول شيئًا آخر، تمنى لو نطق أبو الذهب ويخبره بما عليه فعله، تبدلت هيئة صاحب الذئب كثيرًا، قاطع كتيمبي ثرثرة سلام محدثًا شاهين:

- أريد إرسال رسالة، وأن تحرص على إيصالها لمستلمها.

- لمن؟

- حلفاء قد يساعدوننا.

- ماذا لو كانت هذه لعبة غدر.

- عدونا واحد، وكل ما في الكفر مسخر لكم حتى تدخلوا الحصن، خاطرت بحياتي وساعدت هذا الرجل ليستعيد جثة صاحبكم، وفتحت لكم أبواب البلدة على مصراعيتها، ما الذي سيدفعني للغدر؟

ألقى جملته الأخيرة ومد يده ليصافح كتيمبي، فتبادل الأخير النظرات مع الدرويش الذي أغمض عينيه موافقًا، تصافحا والشاب يقول:

- علينا أن نشيع جثمان بياض بما يليق ببطل، لا أعرف طقوس الموتى وحقهم، أنت أدري الناس بصاحبك.

قادهم شاهين إلى النفق حيث تركوا جثة بياض، حمله الرجال إلى بيت الضيافة، خرجوا جميعًا وتركوا أبو الذهب وذئبه، جلسا بجوار جسد بياض، لا يعرف بأي طريقة سيكفنه، هل يغسله بالماء البارد ويمسح جسده بالطيب والمسك الأزرق، ثم يدفن في جوف أرض يعلوها شاهد حجري؟ بنو الأزرق يفعلون هذا. هل يحرقه مع مغيب الشمس بعد أن يلبسه أحب الثياب إليه؟ كما يفعل بنو شمس، هل يغرقه في ماء البحيرة كما يفعل أهل غابة الظلال؟ محير أمرك حتى وأنت ميت يا بياض، تطلع إليه لائمًا مغمغمًا:

- لبتك ما أتيت إلى هنا، لبت كل هذا لم يحدث، أعتذر إليك.

جاءه صوت من أعماق عقله يقاطعه:

- الاعتذار والأسف لن يعيدا بياض، وحده الانتقام من

القتلة يشفي الصدور ويريح الناس من أذاهم، من قتلوا
بياض يجب ألا تكون لهم حياة على هذه الأرض.

نهض برهان وطمس ما كان يدور في عقله، وأخذ يخلع
عن بياض ثيابه ثم غسله وعطره بالطيب والمسك الأزرق،
من حسن حظه أن وجد الكثير منه يخزنه شاهين لضيوفه،
ثم كَفَّنه بالكتان الأبيض، سيُدفن على شريعة الجاباسكي
كالأبطال، سيعيش ليعلم الناس حكايته وتضحيته. غمغم
وهو ينظر في عينيه المغمضتين قبل أن يلفهما بشريط عليه
رسمة عينين مفتوحتين:

- بُوركت يا ابن البوغان، سيذكر بطولتك القاصي والداني،
سثروى قصص نبلك وشجاعتك، وداغًا بياض القرش.

قبل الظهيرة حلق ساكن البرج في سماء الكفر، وعلى
الأرض كانت قد بدأت مراسم تشييع بياض القرش، ممددًا
على خشبة عريضة ملفوفًا براية بني شمس التي أصر
شاهين على وضعها فوقه، حمله مع ستة رجال، كتيمبي،
والدرويش، وسلام، واثنان آخران، وتقدم الموكب ذهب.
جنازة مهيبة اجتمع فيها أهل الكفر مع قبائل غابة الظلال،
تبع جنازته عدد غفير. رأتهم رقية من فوق أبراج الحصن،
اشرأبت عنقا سميرة وروزاليندا، ومسح رشوان صلعته، نُقل
الجثمان إلى الساحة قبالة بوابة المدينة، أنزلوه إلى قبر في

وسط الساحة وأعيدت الراية لصاحبها. عوى دهب وشرذ
برهان وبكى سلام حتى احمرت عيناه، أهالوا عليه التراب
وأقيمت فوق قبره الأحجار والأخشاب والسقالات ليبنوا
نصبًا حجريًا له، وفوق المنازل وفي شرفات الأكواخ وقف
الصبية والأمهات يشاهدون العائدين من الجنازة، الذئب
الضخم يسير إلى جوار رجل أصلع كثيف اللحية، أفسح
المشييعون الطريق لهما، وبين الجموع اندس طفل فضولي
راح يطاردهم بصره، يتتبع خطاه إلى أن وصل قربه،
ضئيل الحجم إلى جواره ولكنه لفت انتباهه الدرويش، راقب
ما يفعله الصبي الذي كان مشدوهًا بما يرى، ولما فطن لمن
يراقبه ابتسم مستحيًا وسأل بعينين يملأهما الفضول وهو
يجاري خطواتهما:

- اسمي راوي، هل للذئب اسم؟

أوما برهان للفتى:

- دهب، اسمه دهب.

- أنت صاحبه؟

- بل هو صاحبي.

- رأتك أمي من قبل.

عقد برهان حاجبيه والفتى يستطرد مسرعًا:

- يوم جئت للكفر ومعك الذئب كنت نائمًا وفاتني رؤيتكما،
الصغار هناك كانوا يتفاخرون برؤيتهم للذئب قبلي، والآن
يشاهدوني بينما أسير إلى جواركما من دون أن أخشى شيئًا.
لم يبال به ذهب، بينما ابتسم الدرويش وربّت على رأس
الفتى الذي تابع:

- ما اسمك يا عم؟

عم؟ شرد ولم يجب، لا يدري ما عليه قوله، الدرويش أم أبو
الذهب أم برهان؟ كرر الفتى سؤاله ولم يستطع الرجل وقف
لسانه عن النطق قائلًا:

- بياض القرش.

لا يعرف كيف ولماذا نطق باسم صاحبه، امتلأت عينا
الصبي بالفرحة وقفز في الهواء، ركض نحو رفاقه متجاوزًا
الجند والخيول، كان لديه ما يقصه عليهم، صار يعرف اسم
صاحب الذئب الذي يقاتل في سبيلهم، همس باسمه في
آذانهم، بياض القرش. أسطورة جديدة ستردها الأجيال
لعقود، ذلك الصالح النبيل، المقاتل الرحيم رفيق الذئب ذهب.

أسطورة

تعاليم الحوريات وقصصهن، توارثتها القبائل لقرون، حكمتها الجدات والكهنة، وتناقلتها الأمهات لتخويف صغارهن، جاء فيها أن سيد النار سيعود مرة أخرى، كما أتى أول مرة على ظهر نجم مستعر، ما زال أتباعه يجوبون الأرض في الليالي المعتمة، يعيثون فيها فسادًا، يشعلون الغابات ويحرقون الأحياء، يوم هوى النجم وجف بحر الحوريات، لم ينقذهن ويساعدهن إلا قبائل غابة الظلال، والآن وقد دار الزمان وهلك الحوريات. عاد الشر مرة أخرى في هيئة ذلك الرجل، حارق مملكة التل الدموي، الذي مُني بأولى هزائمه هنا على أرض كفر البردقوش.

مضمد الجراح مستلقيًا على فراشه الوثير، منهكًا مخدر الجسد من كثرة النبيذ المراق على جروحه، مغمض العينين يقظ العقل، بات مدرغًا أنه في حرب حقيقية، تفادى الموت بأعجوبة في الأسفل، كل شيء كان على ما يرام حتى ظهرت الثيران، ومن بعدها شاهين وذلك الذئب اللعين، كان من الخطأ تركهما أحياء. لكن المعركة لم تنته بعد، غمغم معزبًا نفسه، يشعر بوجود روزاليندا في الغرفة، تتفقدته بين الحين

والآخر، تقبل جبينه وتمسح العرق المتصبب من جسده الدافئ، بحاجة للراحة قبل مواجهة قد تكون الأخيرة، في سباته متيقنًا بأن الغلبة له، ما زال متفوقًا متحصنًا بقلعته الصغيرة، ولكنه محاصر ولا سبيل للدخول والخروج إليه إلا عبر القنطرة، وإن حاول عدوه الالتفاف من حول الحصن والبحيرة، فسيراها فور تحركه، لم يفلح سعد في طرد صورة الذئب من رأسه، بدا أن ذلك الوحش يريد الانتقام لموت بياض.

- سعد أفق، نحن بحاجة إليك، أرجوك.

كلمات روزاليندا ونبرتها الحزينة جعلته ينتفض، ضوء النهار يغمر الغرفة، لا يدري متى غفا وكم لبث، حاول أن يجلس ولكن الآلام كانت أقوى من أن يتحملها، اقتربت منه ومدت يدها إليه لتساعده على النهوض، أشعة الشمس تجعلها متوهجة كعصفور برتقالي أهوج الريش، قام معها واستند ليجلس في الفراش، سألها وهي تناوله قرح ماء:

- كم لبثت نائمًا؟

- ثلاثة أيام، صعبة، لقد خشيت عليك، كنت إلى جوارك وأعلم أنك ستفيق في أي لحظة.

برق الدمع في مقلتيها، تأملها بصمت لبرهة قبل أن يرفع

الكوب إلى فمه، شرب وارتوى وبطرفه تطلع إلى جميلته
الباكية، منحها القدح وأمسك براحة يدها، تورد وجهها فرحًا
وهو يحدثها:

- لا أحب الدموع، لا تبكي مرة أخرى، والآن احكي لي ما
الذي حدث أثناء غفوتي هذه.

أجابت من فورها وهي تمسح خديها وأسفل عينيها:

- الحكمدارة رقية هي من تدبّر الأمور، كلفت رشوان بقيادة
الدفاع عن الحصن ضد البرابرة، لأن القائد قاطع بن سليم ما
زال مريضًا. يقولون إنه فقد يده وأنقذك من الموت، أتمنى
أن يشفى عاجلاً. أخرجت فرقة استطلاع لتأمين الدروب
الجبليّة الشماليّة، ومات عدد من الجرحى في الليلة الماضيّة،
وحاولت الخائنة سميرة الهرب ولكن رجال الحكمدارة
أمسكوا بها. والعدو شيع جثمان صاحبهم، حصننا منيع، ولكن
اليأس والخوف بدأ يتسلل إلى الجند، رشوان لا يقوى عليهم
ولا يعرف عن أمور الحرب مثلك. صليت من أجلك يا سعد.

اعتدل في جلسته على الرغم من الآلام التي تمكنت من
جروحه وكدماته، تأوه وأمسك بجانبه، سارعت روزاليندا
القريبة لمساعدته، بقي جامدًا وقد صمت أذناه عن ثرثرتها،
الجدران تميد به على الرغم من جلوسه على طرف الفراش،
يتأرجح هو الآخر من تحته، أغمض عينيّه وألقى خلف ظهره

كل ما يحاول إنهاك عقله، عليه أن ينهض ويمشي إلى هذا الباب ويخرج إلى جنده، هذا كل ما عليه فعله، القتال حتى النهاية التي يريدتها. فتح عينيه محدثًا روزا الهلعة:

- اثيني بدرعي وأسلحتي.

- ولكنك ما زلت...

أمسك رسغها بقوة وعنف:

- لا تعارضيني... أبدًا، علينا الخروج من هذا المأزق ولن يتحقق هذا بالركون إلى الراحة.

أفلتها، ونفّذت أمره بسرعة، للمرة الأولى التي تشعر بقسوته غير المبررة تجاهها، إنها تحبه وتقدر ما يفعله من أجل الجميع، ستتغاضى عن كل شيء في سبيل أن يكون سعيدًا. ربما كان من الصواب أن يخرج فعلاً إلى رجاله، هم بحاجة إلى خططه وإرشاده. أخذت تملي على نفسها واجباتها تجاهه، لن تجد رجلًا مثله، ألبسته درعه وشدت أحزمته، كان من العسير عليه أن يخطو بسبب جراح فخذته والكدمات التي لحقت بأضلاعه، حاول مستندًا إليها وما لبثت أن جاءت إليه بسيف ذي غمد طويل، توكأ عليه ومضى إلى الخارج وهي في كتفه، إلى جواره تخشى أن تخونه الخطوات.

اجتمع حوله رجاله بوجوه باسمة وإن اعترأها القلق، حيوه بإيماءات وقبضات ضربت موضع القلب، وعلى عتبة برجها برزت رقية باسمة المحيا ومن خلفها تابعها المتجهم.

جلس سعد على حافة سور الساحة المطلة على الكفر، كان جليًا للعيان في الأسفل، فعلها متعمدًا. على الرغم من أوجاع جسده أراد أن يلقي نظرة على الكفر، صرف الجند من حوله وحتى روزا أخبرها أن تتركه وحده، خشيت أن يسقط من فوق الحصن إلى البحيرة، ولكنها مضت لتقف بعيدًا عنه كما أراد، جاب ربوع الكفر بعينيه، اجتاحه الهمج البرابرة، يراهم في الطرقات وقد أقاموا تجمعات لهم في عدة مناطق، وعلى بيت الحكمدارية القريب جدًا منه، ارتفعت راية جديدة، تضوي بلمعة ذهبية وتخفق بروية، الرمز في وسطها مألوف له. لطالما رآه على أبواب وأعمدة القصور وأبنية البوغان، راية بني شمس تشرق مرة أخرى. ضحك متهكمًا وجال ببصره في أرجاء الكفر بحثًا عن الذئب، لا أثر له ولا للثيران الضخمة، فقط عند البوابة الجنوبية كان هناك شيء مختلف، يستقر في الساحة بناء طويل حوله سقالات وعمال يعملون عليه، إنهم ينصبون رمزًا لانتصارهم، يظنون أنهم باقون إلى الأبد هنا.

- إنه ضريح صاحبك، بياض القرش.

فزع سعد وانتفض جسده رغبًا عنه، وصاحبة الصوت
الأثوي اللطيف تتابع:

- دفنوه هناك، أرجو ألا تكون قد نويت الانتحار قفزًا من
هنا.

التفت إلى رقية الواقعة خلفه:

- الجبناء من يلقون بأنفسهم إلى التهلكة ظنًا منهم أنها
شجاعة.

جاءت لتقف بجواره بعينين مثبتتين على الكفر:

- كنت أعلم أنك ستنهض مجددًا، غيابك أثار الفزع في
الرجال.

- لا يجب عليهم هذا، ما إن يتسلل الخوف إلى القلوب حتى
يهلك أصحابها. يقولون إن أحشاء البحر أولى بمن لا يعرف
السباحة، بالتأكيد تعرفين هذا المثل البوغازي الشهير، القتال
والسعي للنصر هو سبيلنا. سننهض بقدر ما فينا من قوة
لنحقق ما ترنو إليه أنفسنا، شكرًا لك لقيادة الأمور في غيابي
أيتها الحكمدارة.

- هذه بلدتي ولا شكر على واجبي، أجلىنا بعض العائلات
الموالية لنا إلى الحصن خلال اليومين الماضيين، ولا أعرف

ما الخطوة القادمة، إننا محاصرون، ومعنا الكثير من الجند والأسرى والأفواه النهمة، سنهلك إن لم نجلهم عن الكفر ونفك ذلك الحصار. رشوان يفقد رجالاً كل يوم، يقاتلوننا بقردة وأشباح وسحرة، وقطعوا عددًا كبيرًا من النخل، يبدو أنهم يدبرون أمرًا لنا، لذا أخرجنا فرقة لتأمين البوابة الخلفية للحصن والممر الجبلي الوعر المؤدي إليها...

قاطعها:

- قابلت زوجك بالأسفل.

أجابته باقتضاب:

- ما رفع تلك الراية فوق بيت الحكمدارية إلا ليخبرني بأنه حي وقوي، وأن مخططه يمضي كما أراد، سيقتلنا شاهين إن وجد سبيله إلينا.

- كان بين يديك ولم تقتليه، والآن صار معه كل عائلات الكفر وحلفاء جد، يزهو أمامنا براية أسلافه، ليس متحدثًا لنا فحسب، بل للسلطان غازي وراية العقاب المعظمة. يريد الرجل أن يعيد ملك بني شمس، الأمر أصبح معقدًا الآن، وواجبنا تجاه بني الأزرق يقتضي بأن نعلمه بما يحدث. نحن بعيدون عن أي نجدة، في الوقت الذي سيستغرقه طلب النجدة من والي البوغاز سنكون قد هلكنا، ولا أظن أن قاسم

أصلان سيعود قريبًا من حملته في مملكة الساحل، علينا نقل
الأسرى والغنائم للسلطان، ولا أريد أن يُصيب الرجال ما نال
من سميرة، الخوف يقود للخيانة. ماذا ستفعلين حيالها أيتها
الحكمدارة؟

لم تجبه رقية الشاردة في سماء الكفر وأفقه، نهض سعد
متكئًا على سيفه وهرعت إليه روزا، أخذت بيده وهو
يستترد:

- كل شيء في هذه الحياة يتوقف على اختياراتنا.

ألقي جملته ومضى يعرج مع جميلته، خلفهما بقيت رقية
جامدة، تتقاطع اختياراتها مع خيارات الآخرين وحيواتهم،
شاردة هائمة في المجهول وقرار عليها اتخاذه. يراقبها
شاهين من خلف زجاج نافذة غرفته ببيت الحكمدارية،
يستطيع تمييزها على الرغم من علو مكانها، عاصفة من
المشاعر المتضاربة عصفت به، غمغم بخفوت وكأنه يحدثها:

- أي حماقة ارتكبتها في حق نفسك أيتها الغبية، ما النصر
الذي تنشدينه بما فعلت، ليتك تعلمين أنك اخترت الجانب
الخاطئ يا رقية، لم أتوقع أن يكون قلبك بهذا السواد،
تدبرين وتخططين وتطيحين بي هكذا؟ لم يشفع لي شيء
فعلته من أجلك؟ تختارين محاربتني وتتمنين موتي؟ أنا من
فعلت من أجلك الكثير، آه يا بنت الشهبندر، أتمنى ألا يصيبك

مكروه حتى نلتقي مجددًا.

ترك مكانه خلف النافذة، الغرفة الخاوية ما زالت تحتفظ بشذى عطرها، تأمل الخواء قبل أن يشد حزام الغمد على خصره، أخذ من على المنضدة لفافة ورق كان قد خط ما فيها قبل قليل، فتحها ومر على الكلمات بعينيه وما إن انتهى حتى طواها وأخذ كوبًا نحاسيًا ذا مقبض خشبي، بروية أنزل قطرتين من الشمع السائل على الخطاب، وما لبث أن دمغه بختم أسلافه، حمل الرسالة ومضى خارجًا تاركًا وراءه أكوامًا من رماد الذكرى.

في باحة بيت الحكمدارية التقى من يسمونه حارس الرمح الفضي، كان يجلس مقرفصًا إلى جوار المغني سلام في حين اختفى صاحب الذئب ووحشه، اقترب شاهين من مجلسهم وحياتهم، لم يردوا عليه، ظلوا يتأملونه في صمت وعينا كتيمني مثبتة على ما في يده، ابتسم شاهين ليكسر حواجز الجمود وحدثه:

- أيها الأمير، لقد نفذت وعدي والآن حان دوركم، مرت ثلاثة أيام منذ دخولكم الكفر بمساعدي.

نهض إليه سلام واقترب منه متطلعًا بوجهه وهو يحدثه بنبرة خشنة:

- هل تظن حقًا أنك بطل؟ كنا سنجتاحه عاجلاً أم آجلاً، لا فضل لك، ولا تظن أن برفحك تلك الراية سيكون لكم حظوة وملك يضاها ما لبني الأزرق من سلطان.

باقتضاب أجاب الحكمدار:

- لم أوجّه حديثي إليك يا هذا.

اقترب سلام أكثر إلى حد التناطح، صارت جبهتهما متقابلتين وهو يقول بحنق:

- دم بياض في رقبتك.

انفرج ثغر شاهين متهكماً مما جعل كتيبي ينهض ويأتي إلى حيث يقف الرجلان، تدخّل ليفض حدة الحوار بينهما بلهجته الغربية:

- توقفا، نحن راشدان كفاية لنعلم أننا حلفاء.

رد سلام:

- لسنا حلفاء.

قاطع شاهين:

- بل نحن كذلك، ويبدو أنك نسيت أنني لففت جسد بياض القرش براية أجدادي، ودفنته داخل أملاكي، اسمع يا رجل،

إننا في الجبهة ذاتها، ولا أنوي الدخول في هذه الحوارات كلما التقينا، ربما تراني مذنبًا ولكن من منا لم يذنب يومًا؟ لا أخجل من شيء قمت بفعله قاصدًا، ولا أندم على فرص قمت باستغلالها، هذه هي الحياة.

رفع الرسالة إلى كتيبي الواقف بجوارهما، سأله أمير غابة الظلال:

- ما هذه؟

- إنها رسالة إلى حلفائي، كان هذا اتفاقنا، أن تحرص على وصولها إليهم، هؤلاء القوم قادرون على منحنا النصر على طبق من ذهب، كانوا ينتظرون رسالتي تلك منذ زمن.

سأله كتيبي:

- من هم هؤلاء القوم؟

- أمراء الحرب في مملكة الساحل.

انتفض جسد سلام، وضاحت حدقتا كتيبي وشاهين يكمل حديثه بهدوء وثقة:

- تعهدوا لي وأقسموا إنهم سيقفون إلى جوارى ويمدونني بالسلاح والرجال شريطة أن ترفع راية بني شمس من جديد، هم من أبلغوني بخط سير قافلة السلطان، وأمدوني بأفضل

ما لديهم من معماريين لبناء السور والحصن، ورددت إليهم الجميل قبل أن يتحرك جيش قاسم أصلان إلى الجنوب. أرسلت إليهم لأخبرهم بما ينوي ذلك العجوز فعله بهم، ولعل رأس ذلك الأشيب معلق الآن على أشجار بحيرة هايدن، أعلم أن مهمتكم وحربكم هنا تنتهي فور تحرير أسراكم، سترحلون ولكني سأواجه بني الأزرق من بعد ذلك وحدي، أنا بحاجة لإرسال هذه الرسالة، وسأكون ممتنًا لك أيها الأمير كتيمبي.

ناول الرسالة للشاب القلق، وسلام يسأل:

- ما فحوى هذه الرسالة؟

ابتسم شاهين ببرود ووجه حديثه إلى كتيمبي متجاهلاً سلام:

- كتبت إلى القيم والوصي على عرش مملكة الساحل، الوزير حمدون ألواندي، يمكنكم فتحها وقراءة ما فيها، كما ترى هي مختومة بشعار بني شمس، ولكني سأخبركم ما جاء فيها.

أخذ الحكمدار يتحدث معهما بصدق، كانت تلك المرة الأولى التي يفصح فيها عما يخطط ويدبر، لم يعد هناك ما يخسره، الحرب الكبرى قادمة وعليه أن يستعد لها، صدقوه ووثقوا فيه، وتمنى في قرارة نفسه أن يطول بقاء جيش

غابة الظلال قدر الإمكان، كان بحاجة إليهم كما هم بحاجة إليه، جاء كتيبي بثلاثة رجال ومنحهم الرسالة، تحدث معهم بلغة لم يفهمها شاهين ولكنه فطن للاسم المذكور؛ حمدون ألواندي، وداخل قرارة نفسه كان يعلم أن ذلك الشاب أمير الرمح الفضي صادق الوعد، وملامحه تشي بأنه ذكي. تبادلوا الحديث عن الأسرى، وذكره سلام بوعدته، ولكن كيف سيدخلهم الحصن؟ مأزق صعب وضع نفسه فيه، ولكنه يأمل أن يطول الحصار حتى يأتي المدد من مملكة الساحل، حينها سيبهر أعين هؤلاء البرابرة بالجيش العظيم القادم لمساعدته، هو سليل بني شمس السلطان الشرعي لهذه الأرض.

غربت الشمس وما بقي من وهج شفقها بالكاد يضيء الأفق، وبجوار قبر بياض القرش جلس برهان وذهب، ساعات قضوها هنا من دون حراك تراقبهم أعين العامة، ولكنهما لم يأبها بأحد حتى توقف أمامهما شخص ما، رفع الدرويش بصره ليجد تيانا زعيمة قاع الأسود، سمراء فارعة الطول يكسو منحنيات جسمها ثوب ضيق من جلد الفهد، سمرتها الذهبية وجدائل شعرها المضفرة منحاهها مظهرًا فريدًا، من خصرها تدلى غمد سيف قصير، وعلقت على ظهرها القوس والنشاب، ظلت واقفة تتأملهما بينما رفع ذهب رأسه

وانتصبت أذناه واتسعت عيناه الحمراءوان محققًا فيها، تقابل
بصراها لبرهة، وكسرت حاجز الصمت محدثة صاحب
الذئب:

- وحش مهيب، حسبت أن الذئاب انقرضت تمامًا من غابات
الظلال، وهي لم تسكن بحر الرمال القاسي يومًا.

ابتسمت وهي تقترب بخطوات بطيئة:

- تلك المرة الأولى التي أرى فيها ذئبك هذا، سمعت الكثير
عنه ولكنه أخافني أكثر مما توقعت.

بلطف جلست قربيها ولم يجد برهان ما يقوله، علق لسانه
بحلقه، ولم تلبث تيانا أن تابعت حديثها:

- أعتذر، ولكن هيئتك تبدلت عن آخر مرة رأيتك فيها بغابة
الظلال، والأيام الماضية لم يتسنَّ لنا الحديث.

- لا عليك تيانا بنت نواديا.

أرعى ذهب رأسه إلى الثرى وأغمض عينيه، فاستطرد
والده:

- إنه يعي ويفهم حديثنا، يسعد ويحزن كحالنا.

أومات برأسها قبل أن تحدثه:

- أخبروني أن صاحب هذا القبر كان صديقك أيضًا،
ومجالسة الموتى تذهب العقول.

- هذا ما أرادته القدر وفرضه علينا، جميعنا أموات مؤجل
النظر في أمرهم، كتلك الحالة التي نحن فيها.

دارت ببصرها في المكان:

- ربما لا علم لي بالقدر وهذه الأشياء التي تؤمنون بها،
ولكنني أعني أن هناك من يحرك الأمور حين تستعصي علينا،
من كان يصدق أن رجال ونساء قاع الأسود يتركون مزارعهم
وكهوفهم ويخرجون إلى الحرب؟ ربما مرت ألف سنة وأكثر
منذ آخر خروج لنا من غابة الظلال، كنا في عزلة حتى أحرق
سيد النار مملكة التل الدموي، لقد صارت الأسطورة حقيقة
هذه المرة، عاد الشرير ليحصد الأرواح، وكان واجبنا أن نقف
أمامه، أن نسخر قوتنا لخدمة الضعفاء.

- لماذا لم تدخلي جيشك إلى الكفر؟

- لا آمن عليهم داخل هذه الأسوار، كما أن ثيرانني ستكون
عديمة الفائدة أمام هذا الحصن المرتفع، أود أن تنتهي هذه
الحرب سريعًا، أن نحرر الأسرى وأعود مع أهلي إلى غياهب
غابة الظلال مرة أخرى، لا أطيق هذه الأرض، أينما ذهبت
تلاحقني أعين أهلها وكأننا وحوش، قلبي منقبض، شيء ما

سيحدث.

- يخشى الناس ما لا يعرفونه أيتها الأميرة.

ضحكت ونال منها الخجل، وتعجب ذهب وأبوه من قهقهتها، وما إن هدأت حتى حدثته:

- معذرة، لم ينادني أحد بهذا اللقب من قبل.

- ولكنك زعيمة قاع الأسود.

- جميعنا سواء يا درويش، في قاع الأسود الأمر مختلف، أنا مجرد لبؤة صيادة ضمن قطيع السباع، ورثنا عن أجدادنا تلك الجلود والفراء. صحيح أن الملك والقيادة يؤولان في عرفنا إلى النساء ولكني لا أحب هذه الألقاب، أنا تيانا بنت نواديا فقط. دعنا من كل هذا، قلت لي حين جئتني مع كتيبي لإقناعي بالمجيء معكم للحرب إن كل هذا حدث بسببك أنت وذئبك، ماذا فعلت ليحدث كل هذا؟

- هل تصدقيني إن قلت لك لا أعلم؟

- من أي بلد أنت؟ أقصد أين نشأت وتربيت؟ من المستحيل أنك انبثقت هكذا بالصحراء بلا أب أو أم، إخوة؟ أولاد عمومة؟

قاطعها:

- شخص تقطعت به السبل إلى معارك ليس له فيها سوى
ذئب، اتهم بهتانًا وزورًا.

ضحكت متهكمة:

- أنت أم الذئب؟

- كلانا.

- وماذا بعد كل تلك المعارك والصلوات والجولات؟ رأيتك
تقاتل كأنك خلقت وفي يدك سيف، رشاقة وصلادة، لماذا
بدلت هيئتك وحلقت رأسك؟

لم يكن ينقصه سوى تلك السمراء الحسنة، طريفة على
الرغم مما تبديه من جدية، أخذًا يتبادلان الحديث وذهب
إلى جوارهما ينصت وقد وضع رأسه على الثرى، انضم إليهما
سلام الذي كان صامتًا طوال جلسته معهما وما لبث أن
تحدث سائلًا الدرويش:

- هل تثق بهذا الرجل، شاهين؟!

انتصبت أذنا ذهب النائم، ربما أراد أن يسمع إجابة أبيه
الذي شرد لبرهة قبل أن ينطق:

- الوحيد الذي أثق به على هذه الأرض هو هذا.

أشار إلى الذئب المغمض العينين وتابع:

- لا أجد سببًا يجعلنا لا نثق بالرجل يا سلام، ولا ننكر مساعدته وجهوده، نعم هو يفعل كل هذا من أجل مصلحته وما يريد، كما أن لديه هدفًا لا يتعارض مع ما جئنا إليه، حالم ينوي إعادة ملك أجداده، ولكنه على الرغم من كل شيء رجل وحيد.

طأطأ سلام رأسه:

- لطالما علمت أنه يخفي شيئًا، لم أتخيل أن رجلًا بجبروته وهيبته قد يُغدر به، ومن زوجته الجميلة التي كانت تهوى سماع الأغاني حين يكون في بيت الحكمدارية حفل أو ضيافة.

استرسل سلام في الحكى، وجاء الليل بردائه المرصع بنجوم لامعة، تعجبت تيانا مما يعرفه الرجلان وعالمهما الغريب، بهتت من معرفة الدرويش الجمة، أخبرها أن العالم أكبر وأرحب من غابة الظلال، شاسع لا نهاية له، هناك في الشمال البعيد جبال الدب، سمع أنهم يستأنسون الدببة القطبية ولكنه لم ير، وعند مرتفعات الصقور يستقر بنو الأزرق حيث الجبال الصلدة، والمنحدرات الوعرة، الأيائل والعقبان الصيادة. حدثها عن مملكة الساحل وعائلاتها الحاكمة، خمس من أنبل العشائر يحكمون تلك السهول المنبسطة على الساحل الجنوبي لجزيرة تحمل اسم قوم

غابرين، بنو شمس الذين تسطع رايتهم من جديد بعد أكثر من سبعين سنة على سقوط إمبراطوريتهم، أخبرها عن تماثيلهم العملاقة التي لا يعرف أحد كيف نُحِتت على هيئة ملوك الزاهرة، تلك المدينة التي صارت خرائب يطوف بها الموت، وحين جاء على ذكر عين الشمس، قاطعته بسرعة لتثبت له أنها تعرفها، سمعت الكثير عنها ولكنها لم تزر تلك المناطق قَطُّ، قومها كانوا يخشون الخروج من الغابة، عملوا بنصائح الحوريات، ولم يذهبوا يومًا إلى الأرض الملعونة هذه، يظنون أن بداخلها يسكن سيد النار، كان ذلك أمرًا محرّمًا عليهم فعله بل وذكره، ولكن حين أُحرقت مملكة التل الدموي على يد ذلك اللعين انتشر الخبر في أرجاء الدغل الكثيف؛ سيد النار عاد، لذا وجب عليها القتال تحت راية حارس الرمح الفضي، على الرغم من أنها تشكك في قدرة كتيبي على النصر، ولكن كهنة قبيلتها أخبروها بضرورة الانضمام، لهذا تأخرت في القدوم. مرحة هي تيانا، قسّمت وجهها تتبدل مع طريقة حكيها، تأثرت ورفعت رأسها للسماء تتأمل النجوم في صمت بعد أن ذكرت له أنها ليست مؤمنة بهذه الحرب، وأن سيد النار الذي خالته وحشًا أسطوريًا ليس سوى إنسان يلقب بـ«البرغوث»، ستعود بعد انتهاء هذه الحرب العبثية إلى ديارها.

ولكن ماذا عنك أيها الدرويش، ماذا بعد؟

أين ستذهب؟

إلى وجار الذئب، أم ستعود إلى غابة الظلال معنا؟

جال عقله في ذكريات أبعد، وذلك الفضول في عينيها
الواسعتين يحته على النطق، ونفسه تأبى إلا الصمت،
وصوت الدرويش بداخله يلح عليه بأن يخبرها بما يريد؛
السلام والعودة إلى الصحراء مجددًا، ولكن لسان حاله وما
أصبح عليه انطلق قائلاً:

- نهاية الحرب هنا لن تكون سوى بداية لشيء أكبر، مات
بياض القرش من أجل تحقيق العدل والسلام، حتى لو مات
ذلك البرغوث وجنده، هناك وحوش أكثر دموية وغدرًا منه
يتنكرون في هيئة البشر، والحياة مهما طالت قصيرة، لذا
أنوي القتال حتى النهاية.

- أتبحث عن الخلاص يا درويش؟

- بل عن العدل.

داخل قبو الأسرى انزوت سميرة بعيدة عن البقية، تبكي
وتندب منذ ألقى بها إلى تلك الزنزانة، ترثي حظها البائس في
الحياة؛ بيعت في صغرها لنخاس ألقى بها في بيت دعارة،

تنظف وتمسح وترتب الفوضى إلى أن برز ثدياها بحجم
ثمرتي ليمون، وحظيت بأول زبون، لم تنس الرهبة داخلها
في تلك الليلة، لم يكن لها من الأمر شيء طوال حياتها،
الدماء والألم ومن بعد ذلك تمرست في مهنتها، تعلمت مما
كانت تراه في غرف المعاشرة، لا حق لها في الاعتراض على
شيء، تحصل على وجباتها وملابسها بقدر ما تستهلك من
الرجال. ثم جاء يوم وأغرم بها نبيل من المدينة، أغدق عليها
المال والهدايا، اشتراها وأسكنها بيتًا يطل على البحر، وما
لبث أن تركها ورحل بعد سنة ظنت خلالها أنها سيده نبيلة،
ومرة أخرى وجدت نفسها أمام رياح الزمن التي بدلت حالها،
جاءها رجل رفقة حرس يخبرونها أن البيت وكل ما فيه
قد بيع، وهي ضمن ما قبض النبيل ثمنه قبل أن يرحل إلى
العاصمة الزرقاء. دار الزمان مرة أخرى ومن الرغد والنعيم
إلى سوق النخاسة ومنه إلى كفر البردقوش، لم يكن لها
الخيرة، دفعت إلى مخطط سيدتها رقية، نفذت كل شيء
كما أرادت زوجة الحكمدار، كم هي محظوظة روزاليندا على
ما نالته من عناية رفقة القائمقام، تبكي بحرقة وهي تتذكر
نظرة شاهين واللهفة تفيض من عينيه، أخبرته أنها تحمل
في أحشائها ولدًا له، الكذب هو قمة الحقارة، أن تلعب بعقل
الرجل وروحه، لم تسامح نفسها على ما فعلته به، كم فرحت
حين علمت بأنه حي، كل ما أرادته هو الهرب إليه ومصارحته

وليفعل بها ما يشاء، ولكن رشوان الغادر أمسك بها، كم تبغض هذا الشخص.

- لم يجف نبع الدمع بمقلتيك بعد؟

جاءها الصوت الأثوي من الظلام، ضمت ركبتيها إلى صدرها وجالت في العتمة محاولة سبر أغوارها، وانتفضت فزعًا حين اقتربت منها صاحبة الصوت مستطردة بالعامية ذات الوقع الغريب:

- لماذا سجنك بنو قومك معنا؟

- من أنت؟

- لا تخافي، نحن متشاركتان في المصير وما ينتظرنا.

- لا، لست مثلكم، سأخرج من هنا قبلكم، ستعفو عني الحكمدارة رقية.

- جميعنا سواء، أسرى ننتظر الموت أو الفرج ولا ندري أيهما أقرب، أنا الأميرة كونوا أو هكذا كنت قبل الأسر، قائدكم قتل زوجي أمام ناظري، وأحرق بلدتي، وغدر بمنقذنا.

صمتت كونوا فحدثتها سميرة والدمع ينساب بروية من عينيها الحمراوين من البكاء وقلة النوم:

- لديكم أهل وأقارب يأبهون لكم ويسعون إلى تحريركم، أنا

لست مثلكم، لا أحد يأبه بي ولا خليل لي ولا رفقة تسأل عني
وتفتقدني.

- ماذا فعلت ليأتوا بك إلى هنا؟

- أمسكوا بي وأنا أحاول الهرب إلى الرجل الذي جرحته، كل
ما أردته هو أن أجتو أمامه وأطلب العفو منه بعد أن علمت
أنه حي، الحكمدار شاهين بن عز الدين. إن قومك يقاتلون
الآن تحت رايته ورفقته، لقد سهل لهم دخول الكفر ورفع
راية أسلافه بني شمس، انتصروا في معركتهم ضد زوجته
والقائمقام سعد.

ابتهج قلب كونوا وسرت همهمات بين الأسرى وسيرين
الفرحة تترجم لهم ما قالته سميرة، ارتعدت الأخيرة ولكن
كونوا أمسكت بكفها برقة وحدثتها:

- لا تخافي، إن كان قومي انتصروا كما تقولين فلن يثنيهم
شيء عن تحريرنا، ستكونين معنا، أعدك أن تكوني بخير،
نحن إلى جوارك.

لم تكذ ابتسامة سميرة تكتمل على ثغرها الدقيق حتى فُتح
باب القبو مصدرًا صريحا قويًا رجفت منه القلوب، وعلى ضوء
المشاعل دلفت مجموعة من الجند يتقدمهم رشوان، جاءوا
ليأخذوا سميرة التي تبذلت قسماات وجهها، بكت وترجتهم

فجروها جزًا إلى الخارج، ولكن كونوا لم تتركها هكذا، ركضت وراءهم ودفعت بالجند بعيدًا عنها، ووسط حالة الهرج انقض بعض الأسرى ليساعدوا أميرتهم، ولكن رشوان ورجاله كانوا قساة غلاظًا، دفعوا الأسرى إلى الداخل مرة أخرى وانهالوا ضربًا عليهم بالسياط والعصي، وحين هموا بإغلاق الباب حتى لا يخرج المساجين كانت كونوا في الخارج تتلقى الركلات واللكمات، وأغلق الباب على سيرين وبقية الأسرى.

- توقفوا.

صاحت رقية في الجند، انفضوا من حول جسد كونوا المسجى، وباب القبو يرج من هياج الأسرى في الداخل، تحاملت الأسيرة على آلامها وجلست على ركبتها، وسميرة لم تكف عن النحيب، ورشوان غليظ الهيئة والقلب يشير لها بإصبعه أن اصمتي. اقتربت الحكمدارة وأفسح لها الجند الطريق، توقفت أمام الأسيرة وتأملتها لبرهة قبل أن تنطق محدثة إياها:

- نحن النساء نقدم على أغبي الأفعال، لا أعرف سبب قتالك لرجالي ولكن لكل شيء ثمن، أليس كذلك يا سميرة؟

تفاجأت الجارية من سؤال سيدتها فأجابت بسرعة:

- سيدتي أرجوك، لقد فعلت كل ما أمرتني به.

تحولت إليها رقية التي بدت على ملامحها قسوة تجلت في نبرتها الهادئة:

- أكره الخيانة والخونة، محاولتك الهرب بإغواء أحد جنود البوابة كانت ساذجة للغاية، على الرغم من أنني لم أتوقع فعلتك هذه، ولا ألومك على اختيارك للجانب الآخر حيث عشيقك الخائن مثلك، ولكن لكل اختيار ثمن، وكم يؤسفني أن يؤول حال امرأة جميلة مثلك إلى تلك النهاية، إننا في خضم حرب وفي الحروب الخونة مثل سوس الخضراوات والفاكهة، يفسدون الجميع بوجودهم. خذوها.

جذب الجنود سميرة بغلظة، دفعوا بها إلى الساحة حيث برز سعد متكئًا على سيفه، أما رقية فعادت ببصرها ومالت قليلاً ناحية كونوا قائلة:

- أحب هذه الروح التي لديك، لو كان لدي جيش من النساء مثلك لحكمتنا العالم، الأمر مثير حقًا، لكن للأسف للقائم مقام خطط أخرى بالنسبة لك.

أقلت رقية كلماتها ومضت تاركة رشوان وبقية الجنود يسحبون الأسيرة إلى الساحة، كانت الحكمدارة مشتتة الذهن على الرغم من كل هذا، على الرغم من أنها منحت سعد قرار تحديد مصير سميرة، أحست بالذنب، لم تقوَ على إصدار الحكم، وحين كان الاختيار أمرًا واقعيًا، دفعت إلى

القائم مقام لتنفيذ الأمر كي تصبح سميرة عبدة لمن تسول له نفسه أن يخون الحكمدارة. وبينما كانت نفس رقية تهيم في الاحتمالات كان الجند يتحركون من حولها بهمة ونشاط، يحملون المشاعل ويتراصون فوق الأسوار، وآخرون ينقلون صناديق إلى الباحة الخلفية من الحصن، ومجانيق صغيرة تثبت بالجهة الأمامية، تُشد السروج على ظهور الخيل، إن المعركة على وشك أن تبدأ من جديد، لم تكن تدري تلك الخطة التي أعدها سعد، لم يخبرها بالتفاصيل، فقط اكتفى بأن ينصب محاكمة لسميرة في الساحة التي شهدت نصره على ذلك الضخم منذ عدة أيام.

راية أمام راية، متمردون على سلطان بني الأزرق، ليسوا سوى همج وخونة ورعاع يبتغون الثورة والخراب، اجتاحوا كفر البردقوش وعاثوا فيه فسادًا، هكذا هو الأمر الذي صار سعد يعيه، لا يعبأ بأمر الكفر وهؤلاء البرابرة في الأسفل، لا مقام له هنا، تلك الحقيقة التي خلص إليها، نيران المشاعل توهجت في مقلتيه، وأضاءت الساحة حيث يقف مستندًا على سيفه، وأمامه سميرة وكونوا جاثيتين مكبلتين، أخذ قراره من دون الرجوع إلى الحكمدارة، إنها ضعيفة على عكس ما تظهر ولا تقوى على التلفظ بأمر قتل، لا يلومها

وهي السيدة الراقية الرقيقة، أعظم إنجازاتها كان التمرد على زوجها، وهذا العالم لا مكان فيه للمترددين. قبل أن يخرج للساحة اجتمع مع قاطع بن سليم، خدمتهما روزاليندا التي ظلت بقربهما طوال الجلسة، رأيهما كان واحدًا واتفقا على خطة لم تخطر على بال أحد، على الرغم من أن سعد كان يعدها خطة بديلة منذ البداية، تجاوز بخطواته البطيئة أسيرتيه، ووقف على الحافة مناديًا:

- شاهين.

صوته الحاد تردد صداه في أرجاء الكفر، كرره مرتين حتى رأى المشاعل تبرز من ظلام الكفر ودروبه، وناحية بيت الحكمدارية ظهر وهج القناديل ومصابيح الزيت وبين حملتها كان شاهين محاطًا برجاله، راحت الناس تتجمع قرب شاطئ البحيرة وفوق أسطح المنازل ليروا ما يحدث، وجاء الدرويش رفقة ذئبه وتيانا ووراءهم سلام يشقون الصفوف، وسعد فوق رؤوسهم جميعًا يشاهد تجمعهم الحذر، رفع يده وأشار إلى الجند من خلفه وما لبثوا أن جاءوا عنوة بسميرة وكونوا. أوقفوهما على الحافة على مسافة من سعد، ولم يفلح أحد في معرفة هوية الواقفتين، وخفت دقات قلب كتيبي متممًا إنهما كونوا وسيرين، هكذا ظن وكذلك بقية قومه، وصاح سعد قائلاً:

- لديّ عدد كبير من الأسرى، وسيكون من الرائع التخلّص
ممن يثيرون القلاقل محاولين الفرار، معي الآن امرأتان
جميلتان.

اقترب منهما بعرجته الواضحة للعيان وسأل بصوت مرتفع
إحدهن:

- ما اسمك؟

لم تجب كونوا، صاح مجددًا بها:

- قولي اسمك على الملأ، لعل فيهم قريبًا لك يشهد النهاية.

غمغمت كونوا فأمسك سعد بوجهها بعنف وهمس في أذنها:

- أريد أن يسمع من في الأسفل.

صاحت بعلو صوتها:

- كونوا، أنا كونوا ابنة حارس الرمح الفضّي الزعيم ماجو.

ارتفعت الهمهمات بين الحشود وتوترت المشاعل في
أيديهم، دفع كتيبي الأجساد ليتقدم الصفوف ناظرًا إلى
أعلى، سمع صوت أخته والآن يراها كشبح من ظل يقف
أعلى حافة الحصن، أدار سعد رأسه باتجاه الكفر والمتفرجين
في الأسفل مناديًا:

- ها هي أميرتكم الغالية، هل تريدونها حقًا؟

وأمام نظر أهل الكفر ورجال غابة الظلال، تناول سعد أحد المشاعل من جندي قريب، وهج اللهب المنعكس على وجهه جعله مخيفًا وهو يبتسم إلى كونوا، وقف بين المرأتين وما زالت سميرة تبكي وعيناها تبحثان عن شاهين، أرادت أن تطلب منه العفو ولكن سعد همس لها:

- لا تأخذي ما سأفعله بكِ على محمل شخصي.

- لا أريد الموت.

- والموت يريدك.

أشعل فيها النيران.

ثوبها الحريري التقط اللهب، فعلها عن قصد أمام الجموع، صرخاتها صمت الآذان وارتجفت منها أجساد الرجال والنساء وكل من شهد الواقعة، كانت مكبلة لا قوة لها، راحت تقفز وتصرخ ودفعها سعد بكل قوته دون أن يأبه بالنار، هوت سميرة صارخة مشتعلة إلى البحيرة وارتطمت بالماء بعنف، بضع لحظات وحل السكون وتصاعد بخار كثيف إلى حيث يقف الوحش. جز شاهين على أسنانه وعروقه تنتفض إثر قشعريرة تملكت من أوصاله، تراجعت رقية في كرسيها غير مصدقة لما ترى، حتى روزاليندا تملك منها الخوف والدمع،

أما كونوا فكان رد فعلها أسرع من الجميع وقبل أن يضرهم سعد فيها النيران ألقت بنفسها من فوق الحافة إلى البحيرة.

ثار كل حي في كفر البردقوش، أصاب الناس الهلع، تراجعت قوات غابة الظلال، وركض كتيبي نحو الماء لنجدة أخته ومن خلفه عدد من رجاله، وتلك كانت لحظة البرغوث التي انتظرها، رفع يده للأعلى وصاح في رجاله:

- الآن.

فور تلقي إشارته أطلق رجاله المنجنوقات لتمطر الكفر بوابل من القل والجزار المملوءة بالزيت، راحت تتساقط فوق الرؤوس والمنازل وسط فزع الجميع، ركض الناس في كل ناحية ليبتعدوا عن الفخ الذي سيقوا إليه، الزيت تناثر ولطخ الحوائط والأشجار والناس، ضحك سعد وهو يأخذ قوسًا من جندي بجواره، بعد أن أفلت السيف المتكئ عليه التقط سهمًا، أشعله وشد الوتر، ورمى.

جحيم مستعر وعويل لا يتوقف، لن يعود كفر البردقوش كما كان، طالت النار كل شيء بين جدار النخيل والبحيرة، نجت تلك الواحة من الحرائق يوم هوى النجم، والآن دمار منح سعد بداية جديدة، على عجل من أمره وبصعوبة

امتطى حصانه، وفي باحة الحصن أخذ رجال قاطع في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة.

أفاقت رقية من صدمتها وسعد يصيح في رشوان الواجم:
- ارجموهم بالنيران، لا تدعوا أي شيء حيًا، لا تقف هكذا.

ثقلت قدما رشوان لبرهة قبل أن يلحظ ما يحدث حوله، جند بني الأزرق بقيادة أميرهم ذي اليد المقطوعة، فتح قبو الأسرى وسحبوا من فيه كالأنعام، جروهم جرًا، السياط لسعت ظهورهم ليهرولوا ناحية البوابة الشمالية للحصن، لم يأبه أحد بصراخ سيرين وسؤالها عن مصير كونوا، وجرت البغال المحملة بمتاع وذخائر القائمقام، غنيمة السلطان كما ذكرها سعد عدة مرات، الغضب تملك من قلب تابع الحكمدارة، كاد قلبها ينخلع وهي تشاهد روزاليندا والجند يساعدونها لامتطاء جواد حرب قوي، تبادلت النظرات مع رشوان، سيرحل سعد مع الغنائم والأسرى، يتخلى عنها وقد جعل من مقر ملكها كوم رماد، خطط لكل هذا رفقة فارس بني الأزرق، انسحب رماة الأسهم بنظام ليلحقوا بالركب، هرولت رقية وتبعها خادمها، اعترضت طريق سعد، الذي شد لجام جواده قبل أن يدهسها، أنفاس مطيته لفحت وجهها، أما هو فكان يرمقها من أعلى بوجه بارد، عض الحصان على شكيمته النحاسية والزبد يسيل من بين شفتيه ملوثًا ثوبها،

سألته والغضب يعترئها:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لم يعد لنا مقام هنا، أنسحب ورجالي إلى الشمال، أخبرتك من قبل أنني سأرحل حالما أنتهي من تلك المعركة...

قاطعته بتوتر:

- لن يرحل أحد، أنت تتبع أوامري، أنا الحكمدارة.

- أنا أخدم هذه الراية.

وأشار إلى راية بني الأزرق التي يحملها فرسان قاطع متابعًا:

- أنا ذاهب للسلطان الأشرف غازي، وأنت معك الحصن وعدد لا بأس به من رجالك، وبعد أن أحرقت لك كل أعدائك، يمكنك البدء من جديد.

- ستركنا هنا للهلاك وتنجو بنفسك.

بكل هدوء تطلع إلى رشوان وبقية رجال الحكمدارة ثم عاد إليها:

- الحقوا بنا إن أردتم، الدرب لي، لن أتوقف لأجل أحد، ولن يُطاع أي أمر إلا ما أمليه، وأخيرًا البرابرة الهمجيون هم من

أحرقوا كفر البردقوش، نحن الناجون الوحيدون من هذه
المعركة، تذكروا هذا جيدًا.

جذب لجام حصانه الذي دار حول نفسه بعنفوان قبل أن
يمضي بصاحبه بعيدًا، لم يكن هناك وقت للتفكير، انفض
الرجال من حول رقية، كل واحد منهم انشغل بنفسه، جمدت
قدمها على الأرض، كل شيء سعت لأجله لم يتحقق، بدأت
الجموع تخرج حاملة المشاعل من بوابة الحصن الشمالية،
ولم تجد بجوارها إلا رشوان، أتى لها بحصان هزيل وآخر له،
رأت بعض من كانوا رجالها ينهبون مقصورتها، كتمت دمعها
وكظمت بصدرها صرخة ودت لو أطلقتها لهلك سعد ورجاله،
خسرت كل شيء، ما جدوى حياتها الآن، وإلى أين تذهب؟
كانت شاردة مهزومة، فقدت الكثير بسبب حماقتها، حثها
مساعدها الوفي على الإسراع في الرحيل، نصحها بخلع
تاجها ومجوهراتها وإخفائها، فعلت ومضوا خلف الطوابير
الخارجة من الكفر. جلاء خلف وراءه أرضًا مسها غضب سيد
النار.

الحكماء

في زمن غابر بعيد، اكفهرت السماء لسبعة أيام وثمانى ليالٍ، ثم انفطرت، وهوى من رحمها الدموي نجم عملاق مشتعل، يجر ذيلًا عظيمًا من دخان وشظايا من حميم، اشتعلت رؤوس التلال المشجرة بفعل صهد حارق قبل أن يرتطم بالأرض بقوة هائلة، فزع كل حي، رُجَّت قيعان البحار وماجت مياهها، خرت جبال كأنها لم تنتصب يومًا فوق تلك البسيطة، قرى ومدن وممالك صارت أكوامًا من رماد، تبخرت الأنهار وجفت البحيرات بعد أن سلفت مخلوقاتها، وتوطن سقف الدنيا سحب من دخان أسود، حجبت ضوء النهار لأشهر، ظن الناس أن الشمس هي ما سقطت، أمست الأيام متشابهات، لا نجوم تُرى في عتمة يكسرها وميض خافت لنهار ميت، نزل الهول على رؤوس من بقي حيًا، حاولوا النجاة في خراب ظنوه أزلبيًا، الدمار العظيم أنساهم أنفسهم وشتت دروبهم، هرعوا مبتعدين عن الأرض الملعونة، نُسيت العقائد وهلكت الحضارة، سعوا للنجاة دون هدف آخر، ذهب بعضهم إلى المرتفعات الباردة شمالًا، وهبط رهط منهم إلى الساحل الرملي في الجنوب، جف بحر الحوريات ونفقت حيتانه وأحياؤه، وابتعد البشر قدر الإمكان عن أرض الموت

والضباب الدائم، النيران داخل الهوة الشاسعة لم تخمد إلا بعد عقود وأجيال، يومها انشقت سحب السماء السوداء مرة أخرى وألقت على الجمر ماءً منهمراً، وتبدد الغيم ليأتي ضياء وردي خافت مبشراً بالفجر، ووُلدت الشمس من جديد فوق رؤوس التلال الجذباء.

سنوات مرت والناس تخشى الدخول إلى تلك الأنحاء، حتى جاء ثلة من المغامرين الرحل ليروا ما حل بالأرض المحروقة، وما ظنه الناس لعنة وشراً صار لهم ملكاً وعزاً. عين الشمس، هكذا أطلقوا على الحفرة الشاسعة التي توسطت التلال. وما لبث أحدهم أن قرر النزول إلى الهوة المضيئة ليلاً، ربط خصره بحبل غليظ وهبط ليرى ما بداخل تلك الفجوة، هبة رب السماء القاطن في قرص الشمس، تسطع في ظلمة الليل، تنير السماء فوقها بضياء ووهج ذهبي، ظنوا أنها شمسهم الصغرى تشرق على سكان السماء من آلهة ونجوم، قعرها يبدأ في السخونة مع الشروق ويغلي وقت الظهيرة وقد تعامت الشمس فوقها، ينصهر سطحها كل يوم ويرتفع من الهوة بخار غليانها، وعلى التلال القريبة منها والمسماة باسمها تقاتل الرجال فيما بينهم، أريقت الدماء طمعاً فيما يُستخرج من ذهب وفضة ومعادن نفيسة. يقولون إن شراً استوطن عقول الناس، حتى استقر على حكم تلك الأرض رجل يُدعى المعمعان، كان حكيماً ضليعاً بالفلك وعلم

السماء، مجد السماء وكواكبها المشرقة ليلاً ونهارًا، استطاع بناء إمبراطورية عظيمة، واختار لقومه رمزًا قدسوه، رسموه على راياتهم وفوق أبواب بيوتهم، شمس ذهبية ساطعة.

وكما قال نبينا إينال؛ عقب كل ظلام إشراق محتم. إن عين الشمس هذه ليست منجمًا للكنوز كما ظن الناس على مدار قرون، إنها مهد الخالق وداخل لبها يكمن سر الخلود، أرسله خالقنا المجيد إلى البشر لينعموا بحياة أبدية، ولكن الحكام والأباطرة لم يفهموا هذا، تهافتوا على المعادن والثروات ولم يع أحد الحكمة، لم تستوعب عقولهم جوهر الحياة ومرادها، هكذا هم البشر يسلب ألبابهم الفانية كل ما يلمع ويضوي، يرفعون من قدر المنحطين ويهللون للقتلة الدمويين، ومن ينصحهم بالحق والعدل ينبذونه ويكيلون له صنوف العذاب، وميزان الناس الهوى، لا يعدل ولا يزن.

توالت السنون وتعاقب الملوك، بين طيب وخبيث، قاتل ورحيم ولكل امرئ منهم شأن وغاية يفني حياته من أجلها، حتى جاء اليوم الذي نفتت الحفرة غضبها، دخان سام انبعث منها إثر تصدعات ألت بقاعها المنصهر، لم يعلم أحد سببه ولم يهتموا إلا بالنجاة من الأوبئة التي حاقت بهم، كان الخالق قد سئم من هؤلاء الناس وقرر عقابهم، نسوه، لم يمنحوه قدره ومكانته وهو خالقهم الذي منحهم تلك

الهبّة، عبدوا الشمس من دونه، هلکوا وورث بنو الأزرق الملك من بعدهم، أقاموا حکمهم بشریعة أجدادهم - الجاباسکي - التي تبدلت مع السنین، یقولون إنهم خلّقوا من ريشة عقاب أسطوري أنشأ نفسه بنفسه فاصلاً السماء عن الأرض بجناحيه، نحتت أجسادهم من جلمود الصخر الأزرق الذي بنوا به صروحهم، أحبوا الفضة عن الذهب، وأقاموا تماثيل أسلافهم من العقيق والعاج إلى جانب وثن جدّهم الأكبر ذلك الطاغية الذي بنى ملكه من دماء وعظام أعدائه، منح أجلاف الجبال القساة ملكاً من بعد الهيام في الوديان وعلى سفوح الجبال، تمنى ذو العين الزرقاء أن یردم ویطمس عين الشمس، ولكن الموت لم ينتظره لیفعل ما أراد، مات جاد المعظم في قومه، ولم ينتهج بنوه ما أراد بل جاءوا بالعبيد من كل حدب وصوب لیستخرجوا الكنوز من الهوة، فعلوا ما عهدوه عن سابقیهم.

إن الخلود في ضیاء الخالق أتمن من كل كنوز الدنيا الفانية، ولكي نجني ما وعدنا به وجب علينا أن نخضع ونطیعه ونعبده متضرعين إليه، ولكن أولاً سيكون علينا خوض المعاناة، أن نُختبر ونُخیر بين الحياة والموت، أن نهتدي إلى الصواب والرشاد لتحقيق عدل الإله على هذه الأرض، لهذا أرسلنا نبينا إلى عين الشمس، لننیر الدرب للمقهورين ونحرر أعناقهم من القتلة الغاصبين، ومن بعد ذلك نخرج لب الخلود

من مهد الخالق المجيد، وما تركنا أزد خلفنا إلا كما خلعنا عنا
ثوب الظلمات القديم، سنعود إليها يومًا منصورين رافعين
راية الحق ومعنا ما وعدنا خالقنا به، خلود لا فناء بعده.

توقفت روح الحكمة عن الحكي، حط الصمت على
رؤوسهم، دارت في وجوه أتباعها من المؤمنين الفارين من
أزد، عشرات يحتشدون حولها لينهلوا من فيض حكمتها،
كانوا سعداء على الرغم من الحزن والبؤس الجليين في
الوجوه، ها هي على مشارف مهمتها، وحولها أعين تفيض
بالأمل والرجاء، تأملتهم وابتسمت قبل أن تتابع حديثها
مجددًا:

- أعلم أنكم تتساءلون عن مصير نبينا والحكماء الآخرين
ومن تركناهم خلفنا، إننا بذور من صنع الخالق، ينثرنا حيث
شاء وننمو كما يشاء، لا تخشوا عليهم من بشر مثلنا، هم في
رعايته، سيسبقوننا إلى النعيم ليجاوروه وينتظروا قدومنا
إليهم، سيعيد إحياءهم من جديد حالما نستخرج سر الخلود
من عين الشمس، أما أولادكم ونساؤكم فهم في أمان مع
الحكيم ذاك.

انحنت الرؤوس لها وردد العشرات من أتباعها في صوت
واحد:

- العدل واجب، والملك زائل، والمجيد باركنا ببهاء إيمانه.

ييجلونها ويققدسون كلماتها، تحنو عليهم وتترفق بهم،
تساعدهم وتمنحهم بطيب روحها الأمان، هادئة الملامح
رقيقة التفاصيل، نبيلة النسب تسمو بأخلاقها وجود كرمها،
تتشح بالسواد ولا يزين عباؤها الفضفاضة إلا نجمة سباعية
بيضاء فوق موضع القلب، تعتمر عمامة كالرجال يتدلى من
طرفها لثام تخفي به وجهها حين تريد، ذات أهداب مكتحلة
ومقلتين نقيتين تشفان عن جمال روحها، دائمة الابتسام
حتى وإن غلبها الحزن، حين تنطق تجد كلماتها الندية سبيلاً
إلى القلوب، هي روح الحكمة كما لقبها النبي إينال، نصبت
كأحد الحكماء السبعة وقد سبقت الجميع للإيمان، مخمرية
بنت جبران الأزادي، اختارها الخالق وزينها برجاحة العقل
وألقى في الناس محبتها وطاعتها، ولم تتوان في تسخير كل
ما تملك لخدمته ونشر دينه، تعلم أتباعها الصلوات والطقوس
وتأخذ بأيديهم إلى ضياء المجيد، أرادت الخلود في عالم
عادل لا يشوبه ظلم ولا فساد، وقبلت دعوة إينال.

قادت المؤمنين عبر السهول والوديان، تتلطف بهم
وتساعدهم على السكنينة برقيق الكلام، عليها أن تذهب إلى
عين الشمس كما أمرها النبي، تذكر يوم الخروج من أزد،
وداعها لأبيها ومن بقي من المؤمنين، كلمات إينال ما زالت
تسري في وجدانها:

- مخمرية، ليس عليك سوى الوصول إلى هناك من دون
لفت الأنظار، اندسي ومن معك بين العبيد وعمال المنجم،
ادعوهم سرًا لعبادة ربنا بادئ كل شيء على هذه الأرض.

- ماذا عنك يا نبي الخالق؟

- سأنتظر سلطان بني الأزرق هنا، إن لنا لقاءً مقدرًا
ومحتومًا.

- أخشى أن يصيبكم مكروه أنت وأبي وبقية المؤمنين.

- إننا بذور الرب يا مخمرية، نبت كيفما أراد، ونثمر متى
أراد، ونفنى حيثما أراد، كل ما عليك هو الصبر والانتظار
حتى تحين اللحظة التي ستخرجين أنتِ ومن معك جوهر
الخلود من باطن عين الشمس، يجب عليك فعل هذا يا
مخمرية، احفروا عميقًا داخلها حتى تعثري على مهد الخالق.

تلك كانت كلماته الأخيرة لها قبل مغادرة مدينة السدين،
ودعت الحكماء الآخرين قبيل الرحيل، احتضنها أبوها
الحكيم المضحى جبران الأزادي مودعًا، طمأنها وأوصت
عليه حكيم الدم سياس بن الأهتم، سيبقى الرجلان إلى جوار
نبيهما، علمت أن مواجهة ما ستحدث على أسوار المدينة
أو داخلها. خرجت ومن معها ليلاً، وانقسم الجمع كما أمرهم
نبيهم إلى ثلاث قوافل، كل منها في اتجاه لا

يعلمه إلا هو، ذهبت ومجموعتها متخذين الطريق جنوبًا إلى عين الشمس، وسلك الحكيم الطبيب ذكي طريقه هو الآخر ولكن ناحية الشرق ومعه ابنتاها وزوجة النبي وأولاده، وثالثهما الحكيم الصانع بدر بن حمدون حمل من معه على سفن زوجها السابق وأبحر في نهر التاج باتجاه المصب، إلى خليج القراصنة، الحكيم مرجان كلف بأمر هو الآخر ومضى لتنفيذه، كل منهم مضى لهدف وغاية كلف بها.

كل هذا كان مقدرًا وعليها أن تخوض الحياة كما كلفت، لا شيء سيثنيها عن الوصول إلى غايتها، تمت أن يفلح مخططهم الذي ضحت بزوجها في سبيل تحقيقه، حررت روحه من الوثنية والضلال يوم ألقته به من فوق سور المدينة، وجب عليها فعل هذا، لم تندم قط على ما فعلت، لو انصاع لها لحلت به روح الخالق المجيد وصار هو الحكيم السابع المجتبي، ولكن سهيل كان عنيذًا متمسكًا بإرث أجداده من بني الأزرق. لم يستطع مجاراة جنون زوجته وهرطقاتها عن الخلود ومهد الخالق، يئست منه ودفع ثمن كفره بأن صار قريبًا لخالقهم. كم كانت تتمنى أن تكون هي المجتابة، ولكن المجيد منحها لقب روح الخالق، ما أوكل إليها هو لب إيمانهم وغاية أرواحهم.

جرى ماء نهر التاج مختلطًا بالدماء، جثت قتلى وسفن محطمة وأخرى تبحر في الأفق بعد نجاتها، هرب بدر بن حمدون وزمرة من أتباعه، ونال جاد وجنده ممن وقف قبالتهم، معركة شرسة خسر فيها بنو الأزرق الكثير من الرجال، واستبسل أتباع إينال في معركتهم، قُتل مرجان التاجي ولكنه نجح في تأخير المهاجمين، قُطعت أوصاله أمام مرأى الفارين، وآخر كلامه كان منجاة لخالقه بينما السيوف والرماح تُغرس فيه، وصل إليه جاد بعد فوات الأوان، سلسل الأسرى وشحبوا إلى الأشجار القريبة، من لم يتحدث ورفض العفو لحق بحكيم الرحمة مرجان التاجي، وكعادة كل قطيع من البشر هناك جبان مهما كانت قوة الإيمان، تحدث واحد ثم الثاني، وتبعهما رفاقهما.

علقت السفن قبل بلوغها مصب النهر، وعندما حاولوا نقلها من الوحل دفعهم سيل جارف، كان ذلك جراء فتح السدود في أزد، تحطم عدد من السفن ومات بعض المؤمنين، ومن ثمّ هاجمهم فرسان بني الأزرق قبيل رحيلهم، كانوا في طريقهم إلى مملكة الساحل إلى حصن ألواندي حيث يعيش والد بدر بن حمدون الذي نجح في الهرب ومعه أتباعه، يسمونه الحكيم الصانع، أما ذلك الميت فهو الحكيم مرجان، وسأل جاد أحدهم:

- وما دور ذلك الأخير؟ وإلى أين كنتم ذاهبين معه؟

أطبق الصمت على المكان، دارت العيون في محاجرها
ونطق الأسير متلعثمًا:

- أطلال الرخ.

- لماذا؟

- هذا ما يريده الخالق المجيد.

نهض جاد متهكمًا وأخرج لفافة من الجلد كانت في جراب
خصره:

- يبدو أننا أفسدنا خطط ريبكم.

رد أحد الأسرى:

- لو كنت مكانك ما سخرت قَظًا، إن للمجيد سبيلًا إلى كل
شيء وما نحن إلا أداة يحركها كيفما شاء، لا تحسب أيها
الفرس أنك بقتلك أحد حكمائنا قد نلت منا، سيتم حكماؤه
والمؤمنون كل ما بدأناه.

اقترب منه الأمير فتوقف الرجل عن الحديث، تطلع إليه
جاد مبتسمًا ورفع اللفافة فاردًا إياها أمام أسيره، وبلهجة
جافة سأله:

- هل تعرف ما تعنيه تلك الرسوم والنقوش؟

هز الأسير رأسه نفيًا وتبادل النظرات مع رفاقه، كان جليًا لجاد ومن معه توتر وقلق الأسرى، مرر الرقعة أمام أعينهم جميعًا وهو يحدثهم:

- دعوني أصحح لكم بعض الأمور لربما كنتم جاهلين بما حدث، قتلت حتى الآن ثلاثة ممن تدعونهم بالحكماء، أعجبنى حماسهم وتلك النظرة التي كانت على محياهم، مؤمنون حقيقيون حملوا سيوفهم وقاتلوا حتى آخر رمق، ولكن ماذا عنكم، لم ألقيتم أسلحتكم واستسلمتم، لماذا لم تقاتلوا حتى الموت كما فعل قادتكم؟ إن كنتم مؤمنين حقًا لسارعتم لمفارقة الحياة والظفر بالخلود إلى جانب مجيدكم، بل لماذا تخبروننا بكل تلك الأمور وخبايا رحلتكم ووجهتكم؟ اسمع يا هذا، منحتكم عفوي مقابل الحديث، وكما أرى جميعكم تتحدثون جيدًا، أخبروني الآن ما تعنيه تلك الطلاسم وإلى أين ذهب بقيتكم؟ أين مخمرية بنت جبران؟ أريد معرفة كل شيء، أو نرى من منكم أكثر إيمانًا من صاحبه.

في البدء آثروا الصمت، وما لبثوا أن تحدثوا ينشدون الحياة بالكلمات، يأتون بقصص مشتتة عن ابنة القائمقام جبران وزوجها المسكين سهيل، كان محبوبًا طيب الهيئة

والسريرة، قدمته روحه قريباً للخالق، ولكن لو كان هو الحكيم السابع فلم قتلوه؟ ارتد الأسرى السبعة سريعاً، كفروا بدين إينال مقابل حياتهم، سمع منهم واستخلص ما أراد معرفته، وفي النهاية أجمعوا على أنهم لا يعرفون أي درب سلكت روح الحكمة، ربما الطبيب ذكي يعرف. تعداد من معهما بالمئات، خرجوا إلى هدف وغاية، ولم يدخروا في جعبتهم كلمة واحدة، رمح الإله ودرعه وحكيم مجتبي يحكم الخالق من خلاله، عقيدة معقدة غريبة، تجتمع في بعض الأحيان وتتشابك مع ما يعتقد، نصوص الجاباسكي أيضاً تتحدث عن العدل والقسط ورفع الظلم، ما الجديد الذي جاء به ذلك الرجل إينال، إنه ساحر يبصر من الماضي وربما المستقبل، ابتسم جاد وهو يتذكر حاله الآن في هذا العالم الشاسع من حوله، عقائد وأعراق وأرض واسعة مد البصر. ولكن مدّعي النبوة له خطط أكبر، عليه أن يكتشفها.

ومرة أخرى وقع الأمير في بئر الحيرة، مشتت الذهن تعبت به الذكريات، متحير بخصوص ما يجب عليه فعله، أصابته كثرة الاحتمالات بألم في رأسه، ضجيج يجتاح مداركه والفرسان والعمال من حوله لا يتوقفون عن الحركة. ها هو في أزد مرة أخرى محاط بوجوه باهتة، لا يجالس إلا نورين، ذكي هذا الرجل ويحب كونه مسؤولاً، متفانٍ مطيع للتشريع وينفذ نصوص الجاباسكي كما كتبت، ومثله هو ولكن على

طريقته الخاصة، تذكر ما قاله يوم عفا السلطان عن أبيه، لولا أن تحدث هو لانتهى مطاف الحياة بوالده مقطوع اليدين وربما الرأس، آمن جاد أن العدل يُقام بالسماح لكلا الجانبين بالحديث وقول ما يريد، الدوافع والنظرات ولم أقدم على تلك الأفعال، ثم يقضي. لم تكن فنون القتال فقط ما تعلمه في قصر السلطان، بل الحكمة وفصل الخطاب، بادر إلى ذهنه سؤال لطالما راوده، ماذا لو لم ينجب غازي وليًا للعهد؟ كيف ستصير الأمور إذا مر الموت على عش العقاب، لن يدع النبلاء امرأة على العرش، وشمس الشمس ستذبل وتعود إلى جزيرة الكستناء، ماذا عنه هو حاصد الموت وقاضي بني الأزرق؟ أمير مرتفعات الصقور المدلل، ابن الرويعي متدني النسب كما يقولون من وراء ظهره، «أنتم زائلون يا بني الأزرق»، تلك الجملة سبب كل ما يدور في رأسه، ماذا لو كان ذلك الرجل نبياً حقاً، وما جملته إلا لعنة بدأت بمجرد التفوه بها؟ عليه مطاردة الحكماء السبعة وقتلهم جميعاً قبل أن يصلوا لمبتغاهم الذي لا يعرفه.

قبيل الشروق صعد جاد الصغير إلى أعلى أبراج سور أزد، ليلة لم يفارقه فيها الأرق، أصابه من بعد اليأس خواء، قضى وقتاً طويلاً أمام الخرائط والمخطوطات ذات الكتابة الغريبة، القرص الغريب يقولون إنه «درع»، وهذا «رمح»، كانوا ذاهبين إلى أطلال الرخ للبحث عن تلك الأغراض ربما،

يقولون إن الخالق أرسلها للناس في زمن ما، ولكنها اندثرت ولا يعلم أحد طريقًا إليها، أساطير لم يقتنع الأمير بها. جال الأفق ببصره، انبلج الصبح والسماء الأرجوانية تبدلت ببطء متخذة لونًا ورديًا تكسره حمرة الشمس، راقب صعودها رويدًا رويدًا، وعقله يعيد عليه كل كلمة قالها إينال، مرت عليه إفادات جبران وكلمات ابن الأهثم وبقية الأسرى، الحكماء السبعة هم أركان الإيمان بهذه الديانة العجيبة، على الرغم من أن تعاليمها تدعو إلى السلام والعدل، فإنهم يريقون دماءهم في سبيل هدف أسمى، جميعهم تحدثوا عن تحرير العبيد والناس من الظلم ولكنهم... عين الشمس.

بدرت إلى ذهنه فجأة؛ هي هدفهم منذ البداية، لو استطاعوا بث هرطقاتهم وما يعتقدونه بين آلاف من عمال المنجم الضخم فسيكون التمرد عظيمًا. عاد إلى إيوانه مستدعيًا قاداته فجاءوا من فورهم، التفوا حول خريطة ملك بني الأزرق ينتظرون قوله، ليت راعي الأيائل يرى مآل ابنه، أخذ نفسًا عميقًا وأخذ يشرح خطته، سيبت فرق البحث لتجوب السهول والوديان، أمر بقتل الحكماء إن وجدوا والإبقاء على الأتباع إن اعترفوا وارتدوا عن تجديفهم، لا شريعة على هذه الأرض إلا الجاباسكي، ولا راية إلا راية بني الأزرق. شجعهم وحمّسهم لإنهاء تلك المهمة، ذكرهم أن إمبراطوريتهم ما زالت عفية، أقسم أمامهم بألا يعود إلى

عش العقاب إلا بعد أن تنتهي تلك المهمة. وأخذ على عاتقه أن يقود فيلق النخبة خاصته جنوبًا. بحثًا عن تلك المدعوة مخمرية، سيذهب إلى عين الشمس.

دارت زمرة من الفرسان حول مستنقع الجميلات، امتلأت صدور الخيل وصدور راكبيها بعبير الزهور المائية، شذى رائق ينبعث من بحيرة فرشت صفحتها بورود مختلفة ألوانها، بقعة سحرية محاطة بالأساطير والقصص العجيبة عن العشاق الهاربين من جور أهليهم وتعتت التشريعات، انتهت بهم السبل غرقى هنا، لا يحب بنو الأزرق هذا المكان المشؤوم على الرغم من جماله وهدوئه، يقولون إن جثث بنات جاد ذوات العيون الزرقاء تقبع في قعر تلك البحيرة، قصة تهامس بها فرسان قيدار وتناهت إلى مسامع إينال.

طريق شاق، لم ترتح الخيل إلا قليلًا، كانوا على عجلة من أمرهم، فكوا عن فيه الكمامة في الليلة الأولى من رحيلهم عن أزد، لم يحدثه أحدهم مطلقًا، يطلب الماء فيسقونه النزر القليل، ويقضي حاجته بينما يمسك أحدهم بطرف أغلاله، لو كان كلبًا ضالًا لعاملوه برقي أكثر، أرهف سمعه لهمساتهم وسكناتهم، كانوا يتجهون إلى قلعة النار، هذا ما علمه، طمان روحه بأن الخالق المجيد لن يتركه، وأن مصيره

إلى ما قدر، لا يهمه إن كان سيقتل ويُدفن في الصحراء، أو يؤخذ ليُسجن في أقاصي الشمال البعيد، الأمر سيان ما دامت السماء قد أمطرت فوق آزاد، كان على يقين بأن جبران قد أتم ما كلف به، ضحى الرجل بدمائه في سبيل الخالق الذي اختار سبعة مؤمنين مخلصين، كل قطرة دم في سبيل إيمانهم ستجعل المجيد راضيًا ليمن عليهم بمزيد من قوته، كم يشناق إلى عائلته وجلساته معهم، ومصاحبة الحكماء وحلقات زهدهم في بيت الطبيب ذاكي، وتجلي روح الخالق على مخمرية التي يحدثهم من خلالها، تمنى أن يصل كل حكمائه إلى وجهتهم.

اجتمع بهم في الليلة التي سبقت سقوط آزاد، منح كل واحد منهم مهمة أقرتها مخمرية وباركتها، سيذهب ذاكي إلى كهف الذاكرة وسيأخذ معه النساء والأطفال، سيبقى هناك ليعلمهم وينشئهم على تعاليم الخالق، ومرجان سيبحر رفقة بدر إلى مملكة الساحل ومنها سيمضي مع رجاله ليربوا عن درع المجيد في أطلال الرخ، وعلى بدر ومن معه أن ينشروا الإيمان بين عائلات الساحل النبيلة، جبران سيبقى ليكون طعمًا، وسياس يقود الهجوم وإغراق سلطان بني الأزرق حين يدلف إلى المدينة، ومخمرية ستقود الرجال إلى عين الشمس ليخرجوا مهد الخالق وسر الخلود، منحت المرأة أشد مهمة وأقساها، ليت سهيل لم يغدر بهم، استعجب إينال

حينها من فعله ولكن زوجته كانت حاسمة في أمره، قوية هي بنت القائمقام، مؤمنة حقيقية. وبينما كان لكل منهم مهمة لم يكن النبي يعلم دوره، انقطعت عنه تعاليم الخالق قبيل ليلة من دخول بني الأزرق للمدينة، لم يكلف بشيء، كان قطعة خشب من مركب محطم يتلاعب بها موج البحر.

مناجاته لم تتوقف، لا يشعر بيديه المكبلتين خلف ظهره، نال منهما الخدر، وجسده المنهك ما زال يقاوم الانهيار، استراحوا قرب وادٍ يشقه أحد روافد نهر التاج، حصن العدل يظهر في الأفق البعيد، ولحق بهم أحد جياد البرق حاملاً أخبارًا لقائد الفيلق، تبادلوا الحديث وابتهج وجه الأسيب، أقبل ناحيته بخطى هادئة وما لبث أن صار أمامه متطلعًا بوجه صلد الملامح إليه قبل أن يحدثه:

- مات ثلاثة من أتباعك، وفشل مخططك لإغراق جيشنا داخل أسوار أزد، وما هي إلا أيام ويسقط بقية الفارين بيد الأمير جاد، ونهاية ما بدأتموه صارت قريبة، لا أعلم هل استحق ما تدعون إليه كل هذا، أخبرني يا رجل، هل تخلى عنك ربك؟

لم يجبه إينال الهائم بعقله في وديان الذكرى السحيقة، وتطارده كلمات قيदार الذي ألقى عليه السؤال الأخير متهكمًا ثم مضى إلى رجاله ليحثهم على التحرك، إن كان

ما ذكره الرجل صحيحًا فإن سياس قد لحق بجبران، ولكن من ثالثهما؟ لماذا فشلت خطط الخالق؟ أين وعده بأن بني الأزرق سيهلكون وأن الأرض يرثها المؤمنون؟ كان رسوله إلى الناس، أخبره أن العدل واجب تحقيقه، وأن السلام يجلب الأمن والطمأنينة، كان عليه أن يهيئ الأمر لزمان الخلود الذي بشر به، ولكنه أضحى أسيرًا لا يُعرف مصيره.

تحركت قافلة أسرية، وقع حوافر الجياد تطرق رأسه وتعيده إلى يوم خاض رحلة إيمانه، انقاد خلف أوامر إلهه، ترك أزيد متوجهًا صوب كهف الذاكرة، وهناك التقى بالراهب العجيب، العارف ببواطن الأمور وما كان وما سيكون، الحكيم نرغال، شخص عجيب، ناسك كهل يسكن أعماق كهف الذاكرة المعتم، يتجلى صوت الرب من خلاله، أخبره الرجل أن مهمته هي البحث عن رمح الإله، وكان على الرغم من العمى قادرًا على إبهاره، تعلم منه الكثير، وقص عليه أمر صائدي الذئب الذين هلكوا في بحر الرمال، كيف مات راجي ورجاله حين قتل بعضهم بعضًا، أخبره أن الخالق المجيد هو من حرك العاصفة الرملية التي أثارت جنونهم ورعبهم، وأنه كان هناك يراقب موتهم في كثران العقارب، مكث معه ثلاثين يومًا قبل أن يختفي ويتركه وحده، بحث عن الرجل في ثنايا الكهف وخارجه ولكن لم يجد له أثرًا، حتى صادفه ذات يوم في سوق أزيد، يوم هاجمه سياس وآمن جبران،

واختار الحكيم سهيل ليكون قريباً للخالق المجيد. كان من المفترض أن تحل روح الخالق في جسد صهر القائمقام، ثم اختفى نرغال مرة أخرى، يزوره بين الحين والآخر في الرؤى والأحلام، هو من أرشده بضرورة السيطرة على عين الشمس وحفر قاعها لاستخراج مهد الخالق، سر الخلود الأبدي. وبينما رجال إينال يفعلون ذلك، سيتكفل نرغال بالبحث عن الرمح والحكيم السابع؛ المجتبي.

رأى النبي الكثير من قدرات ربه، وهو أكثر الناس إيماناً بما يستطيع فعله، دماء المؤمنين لم تضع هباءً بالتأكيد، في الليلة الأولى من وصولهم إلى حصن العدل، وضع تحت حراسة مشددة، أتوا له بالطعام والشراب، وجاء بعض الفرسان وتأملوه من خلف القضبان ثم رحلوا، قبع وحيداً في زنزانة مجدداً ولكن هذه المرة لم يكن مكبلاً، جعلوه طليقاً فما كان منه إلا أن جلس مقرفاً في إحدى الزوايا وبدأ يتلو صلواته:

أيها الخالق إن ألوهيتك تملأ الكون الشاسع حولي..

مسمي الناس، معطي الصولجان، أنت مقرّر المصير لأيام بعيدة..

أيها المجيد الجبار الذي لا يدرك قلبه العميق أحدٌ من الناس..

أنا خادمك إينال، الذي أمرته ببث إيمانك وحكمتك كما أردت..

أنا عابد ألوهيتك الساطعة، ممجّد حمدك للشعوب المنتشرة..

أنت أعلم مني بأن الأمور لم تمض كما يجب..
احكم في قضيتنا التي تخاذلنا في أمرها، حوّل مصيرنا إلى رخاء..

عسى أن يحكم شعبك المؤمن بعدالة..
عسى أن نهزم أعداءك وأن نجعل أمرك فوق الناس..
لنخرج مهد الخلود الذي وعدت من عين الشمس..
ولنقود الأمم بعدك وحكمتك، لنوحدك عوضًا عن آلهة كثر..
آمنت بك، وحملت ثقل الأمانة التي وضعتها على عاتقي..
إن كنت غاضبًا مني فأرجو المغفرة..

لا تأخذ أحدًا بذنبي، ساعد عبادك ويسر أمورهم..

العدل واجب، والملك زائل، والإنسان فانٍ..

وأنت باقي بيهااء خلودك ونعمك..

آمين

فرغ من صلاته واستلقى على جانبه، وفي عتمة غفوته
سمع صوتًا يحدثه، أنصت ووعى ما يُقال له، بشر بالنصر،
ابتهج حين رأى نرغال يجالس شخصًا ما ويأكلان معًا، حزن
وعزى في جبران وسياس ومرجان، قدّموا أرواحهم خالصة
فداءً للخالق، اطمأن على بدر وذاكي وأنها صارا بأمان،
ورأى مخمرية وقد حلقت شعرها كما الرجال، تقف مرتدية
هي ومجموعة من المؤمنين دروع وأزياء جند بني الأزرق،
وأمامهم كانت جموع من العبيد يقفون على حافة عين
الشمس.

إرث

بقدر ما تمنحك الحياة تسلب منك، معاناتك لا تُمحي وهي لك وحدك، تهرم بمقدار خيبتك المتلاحقة، وما غنمته أمس صار رمادًا ودخانًا، هيه يا ابن عز الدين، لا تنفك عن النهوض من خسارة حتى تلحق بك أخرى.

مشى على مهل متفقدًا الخراب، كل شيء مغطى بالسواد، لم ينج من الحريق سوى بيت الضيافة والحي القديم، غامر في الليلة الماضية لاستعادة راية أجداده من فوق بيت الحكمدارية قبل أن يحترق بالكامل، كل ما بناه بيديه أكلته النيران، مات خلق كثير، لم تخدم النيران ولم يسلم منها شيء، أبقار وخيل تفحمت والأشجار صارت جمراً، مضى نهار كامل، انسحب الأحياء إلى خارج سور النخيل، احترق اثنان من زعماء غابة الظلال، قضيا نحبهما وهما يساعدان كتيبي في انتشال أخته وزوجته من البحيرة.

أما هو، حكمدار يشيع رجاله، سليل بني شمس المطالب بإرث أجداده صار حارقًا للموتى، باشر مع أعوانه نقل الجثث إلى حقل لم يُحترث، لثقام المحارق وفق عقيدة قومه، لا يعرف خطوته التالية، كل ما توجب عليه هو البحث عن

الجثث ونقلها، لعن قاتلهم، باغتهم البرغوث وأسقط عليهم شهبًا من نار، لم يتوقعه بهذه الدناءة والفجر، ولكنه هيّن على من يطعن صاحب عمره من الخلف، رايات بني الأزرق ما زالت تخفق فوق أبراج الحصن. سؤال يدور في عقل شاهين؛ لماذا لم يهجم سعد ويقضي عليهم تمامًا؟

ألقى المشعل من يده إلى المحرقة، استعرت النيران في عينيه، كتب عليهم أن يحرقوا مرتين، أحياءً وأمواتًا. أشار إلى الرجال حوله أن يتابعوا ما يفعلونه ومضى إلى شجرة قريبة، أخذ قربة الماء المعلقة على جذعها وتجرع منها قدرًا، رائحة شواء لحم الموتى مقززة، كان بحاجة إلى الراحة هربًا من يأس يداهم، سيرحل جيش القبائل وقد حصلوا على أغلى أسيرتين. شرد في بحور فكره يتماهى مع الاحتمالات ويرى المشهد من منظور الجميع. ظل هكذا إلى أن أتى الذئب وصاحبه، التفت إليهما متفحصًا وجه الوحش وقد اندمل جرح أنفه قليلًا، الخواء يفيض من عينيه الشهلأوين، أشاح الحكمدار بوجهه ناحية الدرويش باهت الملامح وسأله:

- هل سترحلون؟

- من قال هذا؟

- هذا ما أحسبه وقد حصل جيشكم على الأميرتين.

الجثث ونقلها، لعن قاتلهم، باغتهم البرغوث وأسقط عليهم
شهبًا من نار، لم يتوقعه بهذه الدناءة والفجر، ولكنه هيّن على
من يطعن صاحب عمره من الخلف، رايات بني الأزرق ما
زالت تخفق فوق أبراج الحصن. سؤال يدور في عقل شاهين؛
لماذا لم يهجم سعد ويقضي عليهم تمامًا؟

ألقى المشعل من يده إلى المحرقة، استعرت النيران في
عينيه، كتب عليهم أن يحرقوا مرتين، أحياءً وأمواتًا. أشار
إلى الرجال حوله أن يتابعوا ما يفعلونه ومضى إلى شجرة
قريبة، أخذ قربة الماء المعلقة على جذعها وتجرع منها قدرًا،
رائحة شواء لحم الموتى مقززة، كان بحاجة إلى الراحة هربًا
من يأس يداهم، سيرحل جيش القبائل وقد حصلوا على
أغلى أسيرتين. شرد في بحور فكره يتماهى مع الاحتمالات
ويرى المشهد من منظور الجميع. ظل هكذا إلى أن أتى الذئب
وصاحبه، التفت إليهما متفحصًا وجه الوحش وقد اندمل
جرح أنفه قليلًا، الخواء يفيض من عينيه الشهلأوين، أشاح
الحكمدار بوجهه ناحية الدرويش باهت الملامح وسأله:

- هل سترحلون؟

- من قال هذا؟

- هذا ما أحسبه وقد حصل جيشكم على الأميرتين.

- وكأنك لا تعلم أن إحداهن قد فارقت الحياة قبل إنقاذها.

- جميعنا فقدنا أناسًا.

- من أحرقت وماتت ليست زوجة كتيمبي، بل سيدة من قومك تُدعى سميرة.

جمد شاهين، تملك برودة من جوارحه على الرغم من الحرارة التي تبعثها محارق الموتى، حلق في وجه أبي الذهب الذي تابع:

- ما زالت الأميرة سيرين أسيرة لدى سعد، ومثلها الكثير من الأسرى، لن يتخلى كتيمبي عن أحد منهم.

أفاق على شيء لزج يداعب أنامله، نظر فإذا بالذئب يلحق يده، توقف الدرويش عن الحديث حين رأى فعل ذهب، لم يفعل هذا إلا مع بياض القرش، سحب شاهين يده للخلف بحذر وعيناه مثبتتان على الضاري وصاحبه يتابع:

- ألك، واطمأن لك، أو يعلم ما بداخلك من حزن هائل، كنت تعرف السيدة التي أحرقتها سعد، أليس كذلك؟

أوماً مغمغماً:

- إحدى وصيفات زوجتي.

- يبدو أنها أغضبت السيدة لتنال هذا المصير.

- رقية ليست بقاتلة، إنها مجرد حمقاء وإن بدت غير ذلك.

- سيهجم كتيبي الليلة، يريد اقتحام الحصن مهما كلفه ذلك، معذور الرجل، أخبرته أخته أن سيرين حامل، هاج ودعمه كل رجال القبائل، نريد منك أن تجمع بعض الخيالة وتدوروا حول البحيرة وصولاً إلى البوابة الخلفية للحصن، نريد تشتيت انتباههم حتى يتسنى للرجال والقردة تسلق الهضبة والأسوار.

- لو كنت مكانكم لأرسلت فرقة استطلاع خلف الحصن، ولو كنت مكان سعد كنت سأرحل عن الحصن، ما الذي يدفعه للبقاء وقد كبدا خسائر فادحة؟ لن تفيده مواجهتنا في شيء، إنه برغوث يقرص ويقفز. لا أتعجب من كونه الناجي الوحيد من فرقة الفارس الأزرق راجي، لا أنسى نظرة الرعب التي كانت على وجهه حين عاد، كان من الغباء أن مكّنه من أمر الكفر، ذلك المتسلق الانتهازي لن يبقى، لا بد أنهم رحلوا عن الحصن.

- وماذا عن زوجتك الحكمدارة؟

- ماذا عنها؟ لا أبالي إن كانت حية أو ميتة، نفذوا هجومكم أو انسحبوا، الأمر لم يعد يعنيني.

- هل علينا انتظار حلفائك من مملكة الساحل، سيأتون،

أليس كذلك؟

- مجنون من يجزم بصحة شيء في هذه الأيام، ربما هزمهم قاسم أصلان، وربما نجح حمدون في قتله...

قاطعه الدرويش بنبرته الحادة:

- ما حسبتك هكذا، تركز إلى مجرد هزيمة، وتحزن كما الصغار على فقد لعبهم، سمعت عنك الكثير ولكنك في الحقيقة غير ما رآه الناس منك، هل أنت مؤمن حقًا بما تستطيع فعله؟ أين حماسك لحلمك، لنفسك كرجل يحاول تصحيح الأمور كما يراها؟

- حسنًا، يبدو أنك لا تفهم هذا يا صاحب الذئب، خسرت للتو حصني وقاعدة دفاعي، كما خسرت مباغته بني الأزرق، وقد نجد قوات دعمهم هنا في أي وقت، البقاء هنا مخاطرة كبيرة، انظر لقومك يا درويش، إنهم متعبون، عناء الترحال وخوضهم حربًا مميتة مع خصم لا يعرف الشرف، سأرحل مع الفجر أنا ومن معي.

- إلى أين؟

- غربًا، برج قديم قرب جبال الإفريز، هناك نبع مياه وأرض خصبة سألقي هناك لفترة.

- الهرب ليس حلًا.

- أسمىه استراحة وانتظارًا، الأمر صار مرهونًا بالوقت، هذا فيما يخصني، لا أدري ماذا عنكم.

غمغم الدرويش:

- جميعنا إلى مصير محتوم.

- لا أنوي تعجيله، لذا عليّ التريث في كل خطوة قادمة، وإلا انتهى بي المطاف صريعًا على يد برغوث، وأنا كما حسبتني يا أبا الذهب، شخص لا تثنيه هزيمة عن مواصلة الطريق، لن تحرق جثتي إلا وأنا تارك بصمة وإرثًا يبقى أثرهما في تاريخ هذه الأرض.

ألقى كلمته الأخيرة ورحل تاركًا برهان في غابات فكره الكثيفة، شاهين محق، خوض الحرب ليس بأمر سهل، تعجب من نفسه أيضًا، كيف صار ينصح الناس بالثبات والمقاومة وهو الأمير الهارب. أخذ طريق العودة إلى حيث كتيمبي بينما نشط ذهب من حوله وراح يجول في المكان، مشى عبر الحقول وبين المنازل المحترقة، جاب أرجاء الكفر وانتهى به المقام عند قبر بياض، جلس يلحق مخالفه وفروه إلى أن نام، لم يدر ذهب كم لبث، ولكنه فتح عينيه حين جاء أبوه، ابتسم الدرويش وانحنى مرثيًا على رأسه الذي نهض متمسحًا به:

- كنت أعلم أنني سأجدك هنا، للأسف لن تشارك في هذا الهجوم، الذئاب لا تتسلق الجدران، ولا أريد أن تتسبب في زعر قردة البابون، الأمر كله مرهون بأن تُنفذ الخطة خلصة، العجيب أنه منذ أمس لم نرَ وهج شعلة أو قنديل في الحصن. أكثر ما أخشاه أن يكون الأسرى في عداد الأموات، ولكن لو قتلهم ذلك المعتوه لاستعرض جثثهم أمامنا، نجح في تقليص أعدادنا وبث اليأس والخوف في نفوس الناس، يبدو أن حربنا طويلة يا صاحبي، والقصاص من القتلة واجب، من أجل من أحببناهم وخذلناهم.

في الوقت ذاته، وداخل بيت الضيافة كان شاهين يجلس وحيدًا يتجرع آخر رمق من زجاجة نبيذ فاكهة، مر بذهنه الكثير من الذكريات، وداخل عقله تردد صدى سؤال: أتستحق سميرة هذا المصير؟ لو كان أمسك بها لقتلها لكذبها وتلاعبها به، أحييت في قلبه الأمل حين أخبرته بحملها الكاذب، غبي من يسلم رأسه للنساء، شوت المليحة النار، وانقطع دابرها من الدنيا، لم تعد شيئًا مذکورًا، من غيره سيذكرها؟ لم يحزن عليها بل على نفسه، حكمدار بلا نفوذ، وثار بلا جيش. ولكن الحرب لم تنته بعد.

سيرحل مع أهل الكفر البؤساء الذين ساندوه ودعموه، ما زال حيًا وبحوزته راية وإرث أجداده، لم تصل النار إلى

سراديب كفر البردقوش، برج الإفريز بعيد ومخفي عن العيون، يستطيع أن يبدأ من جديد هناك حتى يرى دعم حلفائه، قد يكون له ماضٍ يخجل منه ويأسف عليه، ويحيط به واقع معتم، لكن روحه تستوحش الإدبار والتراجع بعد الإقبال على حلمه، سيشارك الليلة في اقتحام الحصن الذي بناه، وليز بعد ذلك ما يحدث.

* * *

تسلُّ ناجح وهجوم مباغت، وحصن خاوٍ إلا من خيبة الأمل، رفعت المشاعل في إشارة لمن هم في الخارج، سيطر رجال كتيبي على أبراج وسور الحصن، وفتحت بوابة القنطرة وراح رجال غابة الظلال يعبرونها إلى الساحة الخاوية، لم يجدوا أحدًا، رحل سعد مصطحبًا معه كل الأسرى، هزيمة جديدة حاقت بجيش غابات الظلال، ودلف شاهين مع خياله إلى المكان، دار ببصره في الأنحاء، ترك الحصن خاويًا على حاله، كان محققًا، نجح البرغوث في إلهائهم وفر شمالًا عبر البوابة الخلفية في الليلة ذاتها، بدت الحسرة على وجه كتيبي ورفاقه، وسلام جاب الأبراج والغرف بحثًا عن شيء ما، وحث الحكمدار جواده للتقدم إلى حيث يقف أمير الرمح الفضي، تقابلت أعينهما والأخير يسأل بنبرة يملأها الأسى:

- هل تعلم إلى أين رحلوا؟

رماه شاهين بنظرة طويلة وكأنه يفكر في كلماته قبل نطقها:

- البوابة تفضي إلى منحدر وعر ومن بعده ممرات جبلية ضيقة.

- سنلحق بهم ونقبض عليهم.

- مهلاً أيها الأمير، لو رحلوا في الليلة ذاتها التي هاجمونا فيها، لربما يكونون على مشارف البوغان، أتعلم ما يعنيه هذا؟ أن سعد في طريقه للإبحار من هناك إلى عش العقاب.

- سنذهب جميعًا إلى هناك.

رد شاهين بهدوء:

- لا تصعب الأمر على نفسك، لا أمل لكم في مهاجمة البوغان، إنها أضخم من هذا الكفر بعشر مرات، لها دفاعات وأسوار منيعة، وكذلك هناك حامية قوية تقوم على حراستها.

- زوجتي وطفلي معهم.

لم يجبه الحكمدار، وقردة البابون راحت ينادي بعضها بعضًا، وظهر ذهب على عتبة الحصن ومن خلفه الدرويش، راح الذئب يشمشم في الأرض وينثر بوله على الحوائط، هدأ

المكان مرة أخرى وقد فرض الضاري وجوده، تقدم برهان
إلى حيث يقف كتيمبي وشاهين وجواده المتوتر من وجود
الذئب، قائلاً:

- يبدو أنك كنت محققاً يا حكمدار.

ابتسم الرجل بينما رد كتيمبي:

- سأتبعهم وإما أن أحررهم أو أموت دون ذلك.

تدخل شاهين قائلاً:

- اقتل العاطفة بداخلك يا سيد الرمح الفضي، لن يتخلص
سعد من الأسرى، إنهم ثمن عبوره إلى المدينة الزرقاء، اطمئن
لأنهم سيعاملون بشكل جيد، على الأقل النساء منهم، فكر
فيمن معك ولا تلقِ بهم إلى التهلكة.

أمسك الدرويش بكتف كتيمبي:

- الرجل محق، وجودنا هنا خطر علينا جميعاً، ورأيي أن
تستشير بقية الزعماء من غابة الظلال.

كاد الشاب أن يقول شيئاً، لولا برز سلام ضاحكاً بعفوية
حاملاً بيده قيثاراً، فعله كان غريباً في هذا الموضع، ساد
الوجوم لبرهة قبل أن يستطرد أبو الذهب:

- هون عليك يا كتيمبي، أعدك أن نعيد زوجتك سالمة.

هذه المرة الأولى التي يَعدُّ فيها أحدًا، هل عليه أن يفي بما قال للتو؟ أم أنها مجرد كلمات لتهدئة الأجواء، كزُّ كتيمبي الغاضب على أسنانه ويد الدرويش تربّت على ظهره. الموقف عصيب على الجميع، راح الجند ينتشرون فوق الأسوار، بسطوا هيمنتهم على الحصن ورجال الحكمدار يداهمون الغرف والأبراج بحثًا عن أي شيء ينفعهم، انسحبت القردة وأصحابها إلى الكفر ومنه إلى خارج سور النخيل، وفي أحد الأركان جلس كتيمبي صامتًا، أمضى الكثير من الوقت على هذه الحالة إلى أن اكتمل نصاب المجتمعين، وكانت أخته كونوا آخر الحضور، وهذا ما كان ينقصه.

أرّقه وجودهم في الحصن بعد أن كان خاويًا، بدّل الحصن ساكنيه وزواره، مزعجون هؤلاء القوم عن سابقهم، وعلى ضوء المشاعل الكثيرة رأهم يجتمعون في الساحة، تحلقوا حول بقعة دماء جافة، هنا قتل الرجل الضخم منذ أيام، نفض الصقر ريشه وعدل من رقدته داخل عشه ليرى بوضوح ما يحدث.

خفتت الهمهمات رويدًا رويدًا إلى أن ساد السكون، العيون تفيض بالقلق والقلوب تتوجّس من القادم، تبادل القادة النظرات فيما بينهم، وكان كتيمبي المتردد أول من تحدث:

- حين خرجنا من غابة الظلال، لم أفكر سوى في ثأرنا
وتحرير أسرى مملكة التل الدموي، قُتل في سبيل ذلك
العديد من زعماء قبائلنا ورجالنا الأبطال، ما زال أمامنا الكثير
لنصل إلى مبتغانا، سنتابع السير ومطاردة هؤلاء القتلة
المجرمين...

قاطعهُ كوما زعيم قبائل هضاب البدء:

- أول أمس مات سوناي سيد نبع الإله متأثراً بحروقه، لم
يكن الرجل ليتوانى عن دعمك يا كتيمبي وكذلك نحن، ولكن
عليك أن ترفق بهؤلاء الرجال الذين لم يموتوا بعد. لا نعلم أي
طريق سلك عدونا، كما أننا بأرض لا نعرف دروبها، سنهلك إن
قررنا خوض رحلة أخرى إلى المجهول.

تدخلت كونوا قائلة وهي تخطو للأمام لتقف قبالة صاحب
الخوذة من عظام الضبع قائلة:

- سيد كوما هل تريد التخلي عن قومنا؟

- لم أقل هذا، وإن كنت فعلته أنتِ بالأمس القريب.

زمجرت كونوا، وحل التوتر لبرهة قبل أن تتدخل تيانا
صائحة بغلظة:

- أفيقوا، لا تجعلوا للتشتت سبيلاً علينا، نحن تحت إمرة

أمير الرمح الفضي، ما سيقوله كتيبي ننفذه من فورنا، وهو أعلم بحالة جيشه وقواته، من أراد التراجع إلى غابة الظلال فليرجع الآن.

فور انتهاء كلماتها غادر كوما بلا أدنى كلمة، تبعه عدد غفير، ومن بقي كان مترددًا، بدا ذلك جليًا على الوجوه، لم يجد الدرويش شيئًا ليقوله، وظل شاهين جامد الملامح وكأنه لا يأبه بهم حتى رأى تلك النظرة على وجه الأرملة الأسيرة، كونوا، شرد لوهلة ثم قال محدثًا كتيبي بصوت قصد أن يسمعه المغادرون:

- بنو الأزرق سيأتون حتمًا إلى هنا، سأرحل وقومي فجراً إلى مكان قريب حتى تهدأ الأوضاع، وأقترح أن تتراجعوا معنا لتنظم صفوفنا، على أن تبقى فرق استطلاعكم مسيطرة على جسر السراب جنوبًا، وفرق أخرى تقتفي أثر سعد وركبه، أعهد إليكم بالأمان ما بقينا في الجانب ذاته.

قال جملته الأخيرة مادًا يده إلى أمير الرمح الفضي، صافحه قابضًا على كفه بقوة، كان بحاجة إلى ذلك الدعم، ولعله مقاتل ومخطط معارك بارع، ولكنه لم يرَ من حدود الحياة إلا غابتهم، تلك كانت مشورة الدرويش بأن يمنح الحكمدار شاهين قيادة الأمر برمته، الرجل أكثر هدوءًا ويعرف كيف يدير الأمور، هو من يستطيع تشذيب حماسة

كتيمبي، ووضعه في المكان الصحيح، ذهب يثق بالرجل
الظن، ويبدو أن طريق تحرير الأسرى ينتهي عند غازي،
وسعد وأمثالهم من الغادرين.

شعر سلام بالحنق والرغبة في مغادرة كل شيء، الرحيل
بلا وداع، لن يفتقده أحد، لن يبقى ليشهد نهاية مأساوية
أخرى، لن يموت هباءً كبياض القرش، شرد وأفاق على صوت
كتيمبي وهو يستدعي متطوعين للذهاب شمالاً مع مقتفي
الأثر، ودون تفكير رفع سلام يده قائلاً:

- سأذهب.

وبعفوية قالت كونوا:

- أنا أيضًا.

تدخل شاهين لحديثهما مقاطعًا بصوته الرخيم البارد:

- يفضل أن يذهب أناس من أهل البلاد.

قاطعته الدرويش:

- سأذهب أنا وسلام وذهب.

- لن يكون من السهل إخفاء الذئب في البوغان، أين
عقولكم؟ لا داعي لذهاب أحدكم، دعونا نرسل مقتفي الأثر
صحة بضعة رجال من أهل الكفر، قد يكون خبر حرق الكفر

قد استشرى، لذا سيكون عليهم تتبع أثر سعد كأحد الناجين من أهل الكفر، يدخلون إلى البوغاز ومن ثمّ الميناء وهناك سيكون سهلاً علينا معرفة وجهتهم.

مرة أخرى قال سلام:

- سأذهب.

لم يقف أحد أمام إصراره، انفض الجمع ليحزم كل منهم جعبته، ومع قدوم الفجر كانت قافلة عظيمة تخرج من محيط كفر البردقوش المحترق، خرجوا بعد أن ودعوا قبر بياض القرش، حملت النسوة والأطفال على عربات جرتها ثيران قبيلة قاع الأسود الضخمة، تعاون الجميع في الإخلاء العظيم، نظرة أخيرة من أهل الكفر على سور النخيل الذي بدا لهم بعيداً وهم يتخذون طريقهم جنوباً، يسيرون إلى المجهول من بعد إقامة ومكانة، يقودهم شاهين الذي حظي بفرصة جديدة لترتيب خطته، تمنى أن تسير الأمور على ما يرام، لا يدري لمّ جاءه طيف رقية، خسرت وفاز، ابتسم وقبض على الرمح المعلقة عليه راية الشمس، حث جواده على الركض، شعر بانتشاء غريب وهواء الفجر يضرب وجهه ويتلاعب بالراية الخفاقة، تجاوز صفوف الناس والجند متخذاً سبيله للصف الأول، هدأ من سرعة جواده حين صار على مقربة من الدرويش، تهادت خطوات الفحل حتى جاوره

محدثًا إياه:

- بدعمك وقومك لي وضعتم أنفسكم في قلب حربي ضد
بني الأزرق.

- هي حربنا جميعًا، من أجل العدل، من أجل بياض القرش.
وعلى قمة ربوة صخرية وقف ذهب رافعًا عنقه ليحيي
شمس الصبيحة بعواء طويل، لم يتحدثوا طوال طريقهم إلى
سفوح جبال الإفريز الكبرى، وفي الاتجاه الآخر وعلى بعد
أميال منهم كان سلام رفقة خمسة رجال يتجهون شمالًا،
لتعقب أثر البرغوث.

غازي

سقط كفر البردقوش، أحرقه البرابرة المتوحشون.

رسالة مقتضبة سرت فحواها داخل المدينة الزرقاء، لم يكن هناك تفاصيل والعامّة تكفلوا بوضع الكثير منها، وعادت قصة راجي قتيل الذئب تطفو لسطح الأسواق وتجمعات العاطلين، معاونو الفرسان راحوا ينادون ويشجعون الفتيان للانضمام إلى الفيلق السلطاني، نخبة العقبان التي يُتغنى بانتصاراتها في شوارع المدينة، يقولون إن جاد الصغير انتصر على المهرطقين وقضى عليهم، نصر في الشرق واجتاح العدو الجنوب، كل هذا حدث ولا يعرف أحد أين قاسم أصلان!

في الأعلى داخل قاعة ملك بني الأزرق، انخفضت رؤوس الوزراء وحاملي الألوية، مع سماعهم لصوت جان الصقار القوي يعلن عن قدوم السلطان، عبر بينهم بخطوات واسعة ثقيل وقعها على القلوب، قطع البهو الملكي وفوق القامات المحنية مر ذو العرف محلّقًا، ارتقى غازي درجات كرسيه من دون أن يلتفت إليهم، جلس وحط الجارح جواره على مسند العرش، اعتدلوا منتصبين لما أمرهم الحاجب بنبرته الجافة،

وساد السكون لبرهة قبل أن يحدثهم السلطان ببروده المعتاد وهو يجول في وجوههم المرتعبة:

- ما الفائدة منكم؟ أخبروني هيا، ما الضرورة لوجودكم في هذه الحياة؟ أريد سماع أصواتكم.

لم يجد إلا الصمت جوابًا، وانفجر بركان غضبه في وجوههم، كال لهم التهم بالتخاذل والفساد والجبن، خفضوا أعينهم تذللًا وطمعًا، يعرفون أن أرواحهم قد تفتى بإشارة منه، شدد عليهم وأوكل إليهم جمع أكبر جيش رآته الأرض يومًا، نفير عام لكل القبائل والحكمداريات، إمبراطوريتهم على المحك، وفي تاريخ الأمم لحظات فارقة لا يعود فيها الوضع كما كان أبدًا، وتلك ساعته وزمن أسطورته هو، غازي بن الأشرف، الوحش في قصصهم جميعًا.

صرفهم وانفض المجلس سريعًا، خرج وزراؤه وقادته لتنفيذ ما أمروا به، خوت القاعة بعد عمارها، الجدران الرخامية تبت برودة، لم تفلح في تخفيف اللهب المتقد بداخله، لم يحدث قَطُّ أن هوجمت إمبراطورية بني الأزرق، تجرأ البرابرة على عبور خندق السراب لأول مرة ومهاجمة كفر البردقوش، الرسالة التي وردت من البوغاز تؤكد الاجتياح والدمار، وهو الذي ظن أن لا أحد لديه الجرأة لمجابهته، سيخرج بنفسه على رأس حملة عظيمة، سيجوب

أصقاع مملكته ليرى الناس ويروه، كان يفعل هذا فيما مضى، ولكنه الآن يعيش حياة يحدها الملل من كل جانب، لم يبق معه من أتباعه المخلصين وصحبه إلا جان وذو العرف، نهض عن عرشه وهدق في القاعة الخاوية إلا من الأعمدة الرخامية الزرقاء، وتيجانها منحوتة على هيئة رؤوس عقبان، سار بينها متطلعًا إلى السقف وبياضه الناصع كغيم النعيم، كل هذه الرحابة ضاقت عليه، أحس بالضيق ينهش صدره، تسارعت دقات قلبه وهو يرى رأي العين ذكرى من ماضٍ ليس ببعيد.

كانت القاعة مزدحمة بأشباح عائلته، عشرات من الأمراء والأميرات، الجدات والأمهات، الجميع متأنقون بأبهى الملابس والحلي، يطوف عليهم خدم بسرراويل وقمصان ذهبية براقّة، يقدمون لهم صنوف الحلوى والعصائر، احتفال يليق بيوم تنصيب ولي العهد، بالطبع كان الجميع يعرف اسم صاحب اللقب وورث السلطان الكهل، جاء كل أحفاد جاد ذي العين الزرقاء ليشهدوا المراسم، ولكن لم تُقم أي طقوس في ذلك اليوم. إلا نقل الموتى المكдسين على أرضية البهو السلطاني.

سُمّموا جميعًا، والملك الطاعن في السن شاهد ذويه وأقرباءه يموتون أمام عينيه، لا أحد يعلم من فعل هذا، ولم

يغيب عن الحفل إلا أميران، برهان وغازي.

الأول لم يُعتر عليه قَطُّ وإنما وُجد أفراد عائلته مقتولين في قصرهم القريب من عش العقاب، والثاني جيء به جريحًا مضمد الوجه، قيل إن نمرًا ثلجياً هاجمه في رحلة صيده بمرتفعات الصقور، ولكن الحقيقة لم تكن كذلك قَطُّ، كان متخفياً كواحد من جند التشريفات المحيطين بالقصر.

هو من أباد أبناء عمومته وجل أقاربه، نصبه السلطان المحتضر جوهر بن صديق بن جاد ذو العين الزرقاء وريثاً لعرش العقاب، وفي اليوم الثاني مات المسن حسرة على قومه، جنازة ملكية مهيبة لأكثر من ستين شخصاً من نساء ورجال وأطفال، شيعهم غازي وقادته الجدد بإجلال، ذرفوا الدمع وأظهروا الأسى، وفي اليوم التالي احتفلوا ببيعته وتنصيبه سلطاناً لعصر جديد. عقد من الرخاء والعظمة، ولا أحد يدري كيف تسربت الشائعات والحكايات عن قتله لأقاربه، لا يشعر بأي ندم حيال فعلته، كان على العرش أن يحظى بملك قوي مثله، تتهاوى عند قدميه قامات الرجال طلباً لعفوه ونعمته، حكم الأرض بالحديد والنار، ويبدو أنه تراخى في الأعوام الأخيرة، وجد أعداؤه عليه سبيلاً، في البدء هاجموا قافلته الثمينة في بحر الرمال، ثم قتلوا راجي، ولم يكن يكفيه هذا حتى ظهر رجل يقول إنه نبي مرسل،

ربما حان الوقت ليظهر للرعاع مدى قوته وغشامة بطشه.

حلق ذو العرف عاليًا، بدا جليًا في سماء الغروب البرتقالية، جال الأفق باسطًا جناحيه العظيمين ببهاء، وفي ساحة المبارزة العتيقة الجدران والأعمدة، وقف عاري الصدر قابضًا على مقبضي فأسيه، طقطع رقبتة وبدأ القتال، ثمانية من حرسه الخاص، أمهر السيفين في ربوع مملكته، مبارزة حماسية استعراضية، خشوا أن يصيبوه وهو جرحهم حائًا إياهم على القتال، مجنون حقيقي، يعلمون أنهم لو رفضوا نزاله فسيموتون، وحده له الحكم في العفو والرحمة والموت، قد يأمر بقتلهم جميعًا إن أراد، يبتغون رضاه ومنحه المتعة التي يريد، في النهاية هم رجاله الأوفياء، حرسه الخاص المضحون بأنفسهم لأجله. أنهى تدريباته وحياتهم جميعًا على ما بذلوه من جهد، كان دمت الخلق مرخًا مع رجاله وقادته المقربين، هم عماد مملكته وأجنحة سلطنته، تناول خادمه الفأسين وناول سيده قميصه، ألقاه غازي على كتفه واتخذ سبيله عبر رواق الأجداد، يتراص على جانبيه تماثيل أسلافه، لم يتوقف عن السير على الرغم من أنه أدار بصره في وجوههم الباردة جميعًا، هل سينتهي به المطاف مثلهم؟! انقطع دابرهم جميعًا ولم يبق إلا هو، مضى إلى جناحه يلعن

الأغبياء. أحس بغتة أن أحدًا يسير خلفه في الممر، وحين التفت لم يجد أحدًا، الهواء يعبث بالستائر.

استقبلته شمس الشموس بفيض محبة وحنان، احتضنته وتناولت قميصه، وتحسست وجهه ولحيته، قبّل جبينها ومن ثمّ أزاحها برفق متجهاً إلى الشرفة المطلّة على غابة الطير وبركة الماء، لم تعهده هكذا، ظل صامتًا لبرهة قبل أن يحدثها:

- نوران، هل أنا شخص سيئ؟

اقتربت منه وأحاطته بذراعيها لاصقة صدرها بظهره ولثمت بشفتيها الرقيقتين وشم العقاب أسفل قفاه:

- من يجرؤ على قول هذا؟ مليكي، أنت البهاء كله، وكل فعل جميل أنت مصدره، بعطفك وبالغ كرمك يدعو لك رعاياك بداية من خندق السراب وحتى مرتفعات الصقور، يبيتون آمنين تحت ظل سلطانك، عمالك وخدمك يشقون الطرق والترع وتبني بوعيك وأمرك المصالح والدواوين. تمنح العطايا للبسطاء وتفرج عنهم من وقت لآخر، تهتم بعصافيري وطيوري وتسقي نباتاتي وتعلمها.

- حالمة أنت.

- ومالي لا أحلم في ظل عظمتك؟ أنت تستطيع فعل

الكثير للناس.

- وها هم يثورون عليّ، ويعضون اليد التي تبني وتعمر.

- اسمع لهم.

- بل سأخرج لهم.

- يريدون عدلك قبل بطشك.

انسل من بين يديها ملتفتًا:

- لن أصبر حتى تسقط البوغاز في يد البرابرة الجنوبيين،
ولا يمكنني البقاء هنا بينما ينتشر الهراطقة في سهول
وبلدات الشرق.

- رجالك يقومون بكل شيء صحيح، ثق بهم.

- لا أثق إلا في نفسي.

- أخشى عليك.

هوى في عمق عينيها، وجملتها الناعمة التي غلفت بصيرته،
ابتسم واحتضنها، فاستطردت:

- لا أريدك أن تغادر، هناك شيء غريب هنا.

عقد حاجبيه مستغربًا:

- لا أفهم قصدك.

- لا أشعر بأمان إلا في وجودك، هناك من يتتبع خطاي عبر أروقة القصر، يتلصص عليّ من الظلال والأركان المظلمة.

ضحك وهو يفلت ساعديه عنها:

- تلك المرة الأولى التي أسمع عن شيء كهذا! عش العقاب مقدس لا أشباح فيه ولا أرواح هائمة، ثم أين رأيت هذا الطيف؟

- قبل قدومك بقليل استشعرت بأنفاس أحد يقف خلفي، ظننته أنت وحين استدرت لم يكن هناك شيء، وقبل يومين رأيت كهلاً أصلع نحيفاً يرفل في أسمال متسخة مطارداً فراشة داخل كشك الشمس، ومن ثمّ اختفى.

- هل رآه أحد من الحرس؟

- لا، حين سألتهم واستجوبت الخدم أقسمت إحداهن بالعقاب المعظم إنها رآته قرب قبو التخزين.

حديثها وملامحها المرتعبة الصادقة أثاروا عواصف الريبة بداخله، كانت المرة الأولى التي يراها هكذا، الخوف داخلها تسلل إليه، لم يستطع إخبارها بأنه يشعر بأمور غريبة في القصر في الآونة الأخيرة، وبينما كانوا عالقين في هذه

الحالة، سمع طنينًا قويًا صم الآذان، دام لبرهة ولكنها كانت كافية لأن توقظ جميع من في القصر. فزع قلب غازي ونهض راكضًا نحو باب الغرفة مناديًا الحرس، سألهم عما يحدث، لا إجابة أو معرفة. أمر بحضور جان الصقار، عاد إليها مرة أخرى وطلب منها توخي الحذر وألا تسير وحدها بلا رفقة، العالم يحيط به الجنون، ولا يعلم أي لعنة حلت على رأسه، مشتت الذهن وهوس الاحتمالات يطعن قلبه مرارًا، الخوف وجد مستقرًا في قلبه البارد، ارتدى ملابسه وهو يسأل نفسه إن كان خائفًا حقًا أم لا؟ وممّ يخاف وهو ابن الأزرق سليل المحاربين العظماء، فرسان الجبال، تسع سنوات هي عمر جلوسه على العرش، والآن عليه الدفاع عن ملكه وإرث أسلافه وحقه في خلق سلالة عظيمة تنحدر منه، أن يستحق الخلود حتى بعد مماته، أن يُذكر أبد الدهر ويُرفع اسمه مقتدرًا بعظيم الأعمال في الدنيا، بينما يجاور جده المعظم في نعيم الأبطال.

ليت له سبيلًا للتغلب على الموت، لكان للخلود مذاق آخر، أعطى أوامره لقائد فرقة حرسه بزيادة المناوبات ودوريات الجند، ألا يدخل أحد ولا يخرج من عش العقاب، وقاد هو فرقة بحث أخرى، نزل رفقة الصقار وثلاثة من حرسه إلى أرجاء الحصن وقصوره، تفاجأ الخدم ونظراء الدواوين بوجوده، وعلى ضوء المشاعل والقناديل دار في وجوههم،

ندوبه الزرقاء كلون عينيه أوقعت رهبة مضاعفة بقلوبهم،
كان من العجيب رؤيته ومشاركته لتلك الحملة، تجول
ورفقتة بغابة الطير وقرب كشك الشمس، راقبتهم شمس
الشموس من نافذة غرفتها، نال منها الزهو بزوجها الذي سمع
لمخاوفها، نعم الزوج سلطانها الوسيم الشجاع، من ذا الذي
يريد محاربته وتعكير صفو سلطانها.

- أنا...

جاءتها الكلمة بصوت اقشعر بسببه بدنها، لم تجرؤ على
الالتفات، وكأن من يقف خلفها قرأ ما يجول في خاطرها،
تشعر بوجوده على مقربة منها بداخل الغرفة، وددت لو
صرخت منادية غازي والجند وأياً كان لينقذها، التفتت بغتة
ولم تجد إلا الخواء، ازداد تدفق الدماء في عروقها، تعرقت
وهي تحاول إزاحة مخاوفها والوساوس التي أحاطت بعقلها،
ليس هناك ما يدعو للخوف، هذا ما قالتة محدثة نفسها
واستدارت إلى النافذة مرة أخرى، وهذه المرة انتفضت فزعاً
مما رأت.

أرواح العقبان مقدسة.

هذا ما يؤمن به بنو الأزرق، وأثبت فعل ذي العرف ذلك،
هبط بجناحيه العظيمين على حافة نافذة السلطانة، أفرعها
وأطلقت صرخة مدوية تناهت إلى مسامع السلطان وجنده،

لم يدخروا وقتًا في الركض إلى القصر، أطلق جان صفيّرًا مناديًا العقاب ولكنه أبى القدوم، قفز إلى الداخل وراح يخطو باحثًا ببصره الثاقب في أرجاء المكان، التصقت السلطانة بالحائط وأخذ الكاسر يجول في الغرفة وكأنه يبحث عن شيء ما، وصل غازي دافعًا باب الغرفة، اقتحم ورجاله المكان ليجدوا ذا العرف ينظر وما لبث أن خفق بجناحيه وقفز إلى ذراع جان الصقار الممدودة، وأشار للجند بالانصراف، احتضن غازي زوجته الباكية وراح يربت على ظهرها، هدأت وقصت ما سمعته وشعرت به، نقل بصره بينها وبين جان والعقاب، أقسمت إن أحدًا كان في الغرفة، ليت الجارح ينطق ويخبرهم بما رأى أو ما كان يبحث عنه حين جاءوا.

وقعت عينا المبجل قيدار على حشود قوات السلطان، استقرت الكتائب على سهل المرقد، معسكر ضخم يضم مئات من الخيام ومرابط الخيل، الجند والفرسان ما زالوا يتوافدون، أفواج لبّت داعي الحرب، جيش إمبراطوري يزداد تعدادًا يومًا بعد يوم، رايات بني الأزرق وعقبانها الفضية تخفق بفعل نسيم ندي، البغال والثيران يجرون عربات المؤن على طول الطريق المؤدي إلى الزرقاء. وفي الأفق ينتصب مقام معظم جاد ذي العين الزرقاء، عملاق من الجلمود

الأزرق نُحت بمهارة ودقة لا مثيل لهما، تتضاءل وراءه مرتفعات الصقور كشریط داكن يفصل بين السماء والأرض، وكأنه يتباهى بالمحتشدين تحت ظله. ابتهج الفارس الأشيب وألقى بنظرة وبسمة ساخرة على رفيق رحلته، ولم يبذُ على إينال أي أثر للدهشة وبصره يجول في الجمع الغفير، شارد الذهن مكبلاً فوق صهوة جواد، أعطى قيدار الأمر لرجاله بالتقدم، وحثت الجياد على الركض مسابقة الريح صوب رباط جيش بني الأزرق العظيم.

لم يتوقف الركب كثيرًا عند المرقد، سقيت الخيل وأراحوا ظهورها لبعض الوقت، قبل أن ينطلقوا مجددًا إلى الزرقاء، ما زال السلطان في عش العقاب، وعلم قيدار أن مولاه عزم الخروج على رأس جيشه، منذ زمن لم يَرَ كل تلك الحشود، قبائل مرتفعات الصقور وجبال الدب وجبل الثلج، فرسان أوريجا ومقاتلو بستان الجياد حضروا أيضًا، الزهو والفخر يفيضان من مقلتي المبجل الذي نجح في نقل أسيره، شهر وبضعة أيام هي مدة سفره من أزاو مرورًا بحصن العدل والإبحار بنهر التاج، لبثوا أيامًا في قلعة النار العتيقة والآن لم يتبقَّ له الكثير حتى يصل إلى سلطانه.

أسوار الزرقاء وأبراجها تجلت في الأفق الشاسع، مبانيها الفريدة التي تكسو الهضبة تبرز معالمها رويدًا رويدًا مع

اقترب الموكب، وينعكس ضياء الشمس على تمثال العقاب
الفضي أعلى قصرها المنيف، عجيبه البنيان يراها إينال للمرة
الأولى، سمع الكثير عنها والآن يُقاد إليها مجبورًا، للخالق
حكمة لا يدركها عقله، ولا يدري سبب الطمأنينة التي تملكت
من جوارحه، لن يصيبه إلا ما قدر له. عبر موكب الفرسان
البوابات العملاقة، وأدى الحرس التحية ضاربين صدورهم
بقبضاتهم، وتُفخ في البوق ليُعلن وصول ركب المبجل قي دار،
استقبله العامة بالتهليل، أحاطت بهم نظرات تملأها البهجة،
وتناقلت الألسنة أخبار النصر في أزد، جاد الصغير كان على
موعد مع المجد، شق الفرسان طرقات المدينة ودروبها
الصاعدة إلى عش العقاب.

استقبل جان زمرة قي دار بترحاب وافر، عبر بهم أروقة
القصر في الوقت الذي سيق فيه إينال إلى محبسه الجديد،
وتبادل الصقار الحكايات مع رفاقه عن حربهم في أزد.
استقر بهم المقام في القاعة الملكية، قُدمت لهم العصائر
الباردة والفواكه، تباهاوا بأمجاد وبطولات نخبة العقبان،
وضحكوا على ما حل بالمهرطقين وأتباعهم، وأثناء ذلك
جاءهم السلطان يرقل في عباءة رمادية نُقشت على أطرافها
رسوم زرقاء لريش متناثر، معتمراً تاجه الفضى المرصع

بالبياقوت الأزرق. ركعوا إجلالاً وتقديرًا له، وقبّل المبجل يد
مليكه الذي ظل يحدق في وجهه طويلاً قبل أن يتحدث
بنبرته الرخيمة الباردة:

- قيذار، يبدو أن ما أوصيت به لم يُنفَّذ.

ابتلع الكهل ريقه قبل أن ينطق من دون أن يرفع بصره إلى
سلطانه:

- عفواً مولاي، ولكن الأمير جاد الصغير هو من أدار الأمور
كيفما يريد، وقد كُلت مساعيه بالنصر، وما نقلنا ذلك
المجدف معنا إلا بأوامره.

- أين هو؟

تدخل جان الصقار مجيبًا:

- أودعناه البرج الشمالي القديم، حتى تنظر جلالتك في
أمره.

رمقه بنظرة خاوية قبل أن يحدث قيذار:

- أريد أن أسمع منك كل شيء عن ذلك المهرطق وأتباعه،
من البداية وحتى لحظة وقوفك أمامي.

أطلق المبجل العنان للسانه، قص كل ما دار منذ وصولهم
إلى أزاز وحتى عودته إلى الزرقاء، لم يترك تفصيلاً صغيرة

أو كبيرة، وما إن انتهى حتى جال غازي في وجهه وصحبه بصمت، ثم مشى بخطوات بطيئة نحو الشرفة تاركًا إياهم خلفه يتبادلون النظرات خيفة، طال سكوته وعيناه الزرقاوان تجوبان رحاب الأفق الشاسع، ظل شاردًا حتى جاءه صوت قي دار مرة أخرى:

- سيدي، هل هناك أي أخبار عن المظفر قاسم أصلان؟

التفت إليه غازي مبتسمًا على غير عادته:

- سنذهب إليه قريبًا.

ابتسامته وجملته القصيرة كانتا كافيتين ليعلم قي دار وجهة الجيش الرابض في سهل المرقد، صرفهم جان للراحة كما أوصاهم السلطان، لم يسأل أحد عن مصير إينال، كانوا يعلمون أن نهايته قد صارت محتومة، وأثناء خروجهم إلى بهو الاستقبال رأى قي دار شيئًا لفت انتباهه، مجموعة من الخدم والعمال ينقلون بعض الأغراض، وآخرون يحملون قرصًا معدنيًا كبيرًا، أوقفهم قي دار واقترب رويدًا رويدًا منهم، أخذ يتفحص ذلك الشيء العجيب، رأى مثله من قبل، نعم هي تلك الزخارف والنقوش الغربية التي رآها على الأوراق والرقع التي وجدوها في بيت سهيل الأزادي. تجمد الرجل وظل يحدق في الدرع الدائرية الكبيرة، الأمر الذي جعل جان يسأله:

- ما بك؟

بعصبية أجاب المبجل:

- من أين جئتم بهذا الشيء؟

- حصلت عليه السلطانة من أحد التجار، وأمر السلطان بنقل هذه الأشياء إلى خارج القصر، هناك أمور غريبة تحدث منذ أن جاءتنا تلك الأغراض.

لا يعلم قي دار لم حضرت صورة إينال إلى رأسه الآن، ذلك المهرطق الهادئ بارد الملامح ذو الشارب الكث، يبدو أنه خطط لكل هذا منذ البداية، أفاق الفارس الأشيب على صوت جان، فما كان منه إلا أن أمسك بكتفي الصقار بقوة:

- ذلك الشيء ملعون، إنه مقدس للمهرطقين والمجدفين، علينا إخبار السلطان بذلك.

حملق جان في وجه الكهل المتعرق، حاول أن يستوعب كلماته ويفهمها، نقل بصره إلى القرص المصقول، وأخذ يتأمله وقبل أن ينطق محدثًا قي دار جاءه أحد مساعديه وهمس في أذنه، وما إن انتهى الرجل من همساته حتى أشار له جان بالانصراف، وبعدها صاح في العمال بأن يخفوا ذلك الشيء بعيدًا عن الأعين، بدا متوترًا وهو يتجاوز في عجلة

المبجل الذي سأله:

- ماذا هناك؟

باقتضاب أجاب حاجب السلطان:

- سأبلغ السلطان بما ذكرته، يمكنكم الذهاب الآن.

تركهم وراءه ومضى إلى سيده، دلف إلى القاعة الملكية ليجد غازي جالسًا على عرشه يداعب ذا العرف، يطعمه قطعًا صغيرة من اللحم، حاول أن يبتسم وفشل، وبدا جليًا الارتباك على وجهه، والتقت أعينهما قبل أن ينطق جان:

- سيدي، لقد رست للتو سفينة قادمة من البوغان، على متنها فرقة من جنودنا بقيادة الأمير قاطع بن سليم و قائمقام كفر البردقوش، معهم الكثير من الغنائم والأسرى.

- وهل يستدعي هذا كل الانزعاج الذي على وجهك؟

- لا، هناك شيء آخر.

- ما هو؟

- القرص العجيب الذي حصلت عليه السلطانة، يقول عنه قيثار إنه ملعون وإنه من أغراض ذلك المهرطق إينال.

لم يبذ على السلطان أي أثر للدهشة وهو يمسح أسفل

منقار جارحه، قائلاً ببلادة:

- ائتني به.

لمح غازي جان وهو يغادر القاعة، من النادر أن يجد المرء مرافقًا مطيعًا ووفيًا، وهذا يتوقف على مفهوم الوفاء لدى كل واحد من البشر، ذلك الغبي جاد الصغير وجب عليه قتل المهرطق وليس إرساله، يعمل عقله ويؤول ويخطط وينفذ ما يراه صحيحًا، لا يخشى عليه وإنما يخشى منه. وفي خضم الضجيج الذي يعج به رأسه، قبّل ما بين عينيّ ذي العرف محدثًا إياه بلطف وروية:

- كنا فاتري الذهن في الفترة الماضية، والآن علينا أن نستمتع باللعب، وئري أعداءنا حجمهم الحقيقي، وأن عقاب بني الأزرق هو سيد الأرض والسماء.

النردى

تجملت سماء المغيب الصافية بشفق وردى، وما تبقى من حمرة الشمس اندمل رويدًا رويدًا خلف جبال الأقف الشاهقة، وخرير مجرى النهر الكبير بالكاد يُسمع لبعده عن الطريق، جو رطب وهواء ناعم لطيف يسري جنوبًا مع الجواد القوي الماضي بمهل على الدرب الرملي الممهّد، خطواته رتيبة بطيئة جعلت وقع حوافره طرقات ناعمة، اهتزاز وركيه صعودًا ونزولًا ساعد على استرخاء راکبه فنام، لم يكن ثقیلاً على ظهر الحصان المتعب هو الآخر، ولكنه اعتاد صاحبه وجنونه، رفيقه الوحيد في هذه الحياة. يتنقلان من بلدة إلى أخرى، من نعيم السهول الخضراء إلى قسوة الصحراء والجبال، وبين صخب المدن وسكون الغابات، خاضا غمار حياة عامرة بالمغامرة والتجوال، وكثيرًا ما ينام صاحبه على سهوته كتلك اللحظة، فسفرهما لا يتوقف ولا يكادان يمكثان في قرية إلا قليلاً، يذكر كيف التقاه، فاز به في مراهنة مع صاحب مزرعة سكير، سمّاه حينها «خائل» لخيلائه ورفعته، ومنذ ذلك اليوم وهما رحّل، الأرض بيتهما والسماء لحافهما، يجوعان فيقطفان من ثمر المزارع، يعطشان فيتشاركان قربة الماء، يخوضان نهر

الحياة بلا تكلف، ولا يبخل عليه بالشعير والعلف والسكر حين يكون متاحًا، بل يسقيه من قنينة خمره وهو يقص على مسامعه قصصه وحكاياته داخل الخمارات والقصور ومنازل النبلاء، يجدل شعر ذيله في ضفيرة ثخينة، ويمشط جسده بفرشاة خشنة بين الحين والآخر، اعتاد بعضهما بعضًا، لم يعقد رباطه يومًا بحبل أو أنشودة، يتركه حرًا يتجول في الأرجاء بينما يخوض هو حياته التي يحب، وحين يريده يناديه بنغمة مميزة من صفير محبب، فيأتي إليه أينما كان. تلك كانت حياته مع ذلك الماجن النائم، وسيم عرييد ذو نبل، وإن كان لا يعرف أصله، لا يحب رفقة البشر إلا ليلعب النرد معهم، غريب أينما حل فلا موطن له ولا مستقر، يعيش الحياة ساخرًا غير مبالٍ بالمستقبل، يراهن ويفوز ونادرًا ما يخسر، لذا حظي بلقبه المحبب إلى قلبه الذي يعرفه به الناس؛ النردي، هارون النردي.

- أيها المار، أنت يا صاحب الدابة.

كررها صاحب الصوت المبحوح بنبرة مرتفعة، ولكن هارون لم يفق من نومه إلا مع توقف خائل، زفر الجواد وهز رأسه يمينًا ويسارًا، ففتح صاحبه عينيه بتثاقل متعجبًا متثائبًا، لماذا توقف حصانه عن المسير؟ ربّت على عنق حصانه وداعب جدائل شعره محدثًا إياه:

- ما بك أيها العنيد؟ لماذا توقفت؟

- لأنه رأي ولم تفعل أنت.

فزع هارون والتفت إلى مصدر الصوت، كهل محني الظهر يتوكأ على عصا، رث الهيئة أشعث الشعر على الرغم مما به من صلح، أخذ يتفحصه لبرهة قبل أن يتلفت حوله جائلاً في المكان ببصره، فجاءه صوت الكهل ساخرًا:

- ليس هناك أحد غيري على الطريق.

- ماذا تريد أيها الشيخ؟

- ثرى ما الذي يريده مُسن ضرير من عابر سبيل؟

مسح هارون وجهه وترجل عن صهوة جواده، جاب الأرجاء مرة أخرى بعينيه، الليل يتسرب إلى السماء والظلام يزداد بين الآجام، والجبال البعيدة سوداء وقد نفضت عنها النور وما بقي من رمق النهار، اقترب من الكهل ولوح أمام وجهه، كانت عينا الرجل بيضاوين كغماتين لا سواد فيهما كلحيته الكثة الخشنة، عليه ثوب من خيش مرقع، ولم يكن قلب هارون يحمل قدر حبة سمس من ثقة لأحد، بقي واقفًا يحدق في الرجل الذي تابع بنبرته الساخرة:

- هل ابتلعت لسانك أيها المسافر؟

- ما الذي تفعله هنا في هذا الطريق؟

- غريب هائم، يرجو الوصول إلى مبتغاه، تعبت قدمي
فجلست إلى جانب الطريق لأستريح من عناء السفر، هل
لديك قليل من ماء أو زاد؟

غمغم هارون وهو يتجه إلى جواده:

- مسافر أعمى؟

أتى بقربة الماء ودفعها إلى يد الكهل محدثًا إياه:

- أتعرف بأي وادٍ أنت؟

أخذ الرجل يرتوي والماء ينساب من بين شفطيه الجافتين
ليسقط على لحيته، وما إن فرغ حتى مد يده بالقربة إلى
صاحبها قائلاً:

- آخر مسافر سألته قال إنني على طريق الصقارة، وإنها
تبعد بضعة أميال عن هنا، إن كان مقصدنا واحدًا فهل لك أن
تأخذني معك في طريقك؟

عقد هارون حاجبيه وقبضت أصابعه على قربة الماء:

- كيف علمت أن الصقارة مقصدي؟

ضحك الرجل مقهقهاً:

- الأعمى بصير يا ولدي، وما فُقد من الحواس يعوّض بأخرى، قد أخبرك أن حدسي وسمعي أنبأني بهذا، لكني سأقول ما لا يشق عليك فهمه؛ تيار النهر الكبير جارف لا تقوى سواعد الرجال على التجديف صعودًا، المراكب فيه تبحر شمالًا حتى شلال الحياة وبعدها ينتقلون بڑًا إلى طريق المهد، فمنهم من يذهب إلى أزاد ومنهم من يتخذ سبيلًا آخر، ونحن على الدرب الوحيد المؤدي إلى الصقارة وسد الملك، ونادرًا ما يرتحل الناس سيرًا إلى الشمال، الجميع على هذا الطريق ذاهبون جنوبًا، لذا فوجهتك الصقارة أو ما أبعد من ذلك.

نظر هارون إلى جواده الذي كان يبادلُه النظرات وكأنه يفهم ما في نفس صاحبه، والكهل يستطرد:

- كل ما أريده هو العون والصحبة، إن كان حصانك يرفض أن يمتطيه غيرك فسأسير معكما، وإن كنت تنوي الراحة والمبيت هنا فيكفيني الجلوس إلى جوار راكية نار تدفئ جسدي الضئيل، أنا معكما على كل حال.

- وإن رفضت صحبتك؟

- لو أردت لفعلت ومضيت من دون أن تلتفت، ولكن قلبك لا قسوة فيه ولا خسة لتترك شيخًا أعمى على طريق موحش قليل سالكوه.

ابتسم هارون، ربما الرجل محق، أو لعله فخ ينصبه ذلك الكهل، الأمر أشبه بمراهنة، ولا شيء في حياته أفضل من الرهان، هكذا عاش طيلة عمره، يقامر حتى مع حصانه، النرد لا يفارق جرابًا صغيرًا في حزامه، تحسسه وهو يقول للرجل: - لكنتك قريبة من لهجة سكان أطلال مدينة الزاهرة، وإن كان هذا موطنك فأنت بعيد عن ديارك.

- دياري أبعد بكثير عن أطلال الزاهرة وأرض تلال الشمس، ولكنني تلك اكتسبتها خلال فترة بقائي في عين الشمس، أستطيع الحديث بلهجات أهل مرتفعات الصقور والبوغاز وكل مدن تلك الجزيرة، فقد قضيت عمرًا طويلًا بينهم.

- عبد أنت إذن، من عمال المناجم هناك؟

شرد العجوز لوهلة وكأن عينيه البيضاءوين سرت بهما لمعة غريبة قبل أن يجيب:

- شيء من هذا القبيل، ولكنني حر الآن، أبتغي سبيلي إلى بلدة أنعم فيها بالراحة وقضاء ما تبقى من العمر بين ظهور المحسنين.

- ومن بين كل القرى والبلدان لم تجد سوى الصقارة؟ ألم تسمع أن أهلها من سلالة بني الأزرق وأنهم لا يحبون الغرباء،

ولا يهتمون إلا بأنفسهم وطيورهم الجارحة؟ إن كانت تلك المدينة مقصدك حقًا فأنت ذاهب إلى التعاسة والشقاء وليس إلى ديار المحسنين.

- ليس جميع الناس أشرارًا، وإن كانوا كذلك، فلماذا أنت ذاهب إلى هناك؟

غمغم هارون وهو يثبت حزام غمده على خصره:

- لي حاجة سأقضيها وأرحل، قل لي، كيف تأمن على نفسك الترحال بلا مرشد أو زاد، أما تخشى السباع الهائمة أو قطاع الطرق واللصوص؟ إن كنت صادقًا فقد مضى على قدومك إلى هنا أيام وليالٍ، كيف قضيتها وحدك بلا أنيس؟

- يؤنسني خربير النهر وغناء الطير، وترشدني عصاي، ويجود عليّ المارة والمسافرون بقليل الزاد، والليل عندي كما النهار، لا أخشى الأشرار لأنني لا أراهم فماذا سيفعلون بكهل ضريب، وكذلك المفترسة من الدواب، لا أراها ولا تراني ولا تهتم بي وإن كنت أشعر بها من حولي، والآن، هل ستصحبني معك؟

هز هارون رأسه نفيًا وهو يحمل أغراضه عن ظهر جواده:

- بل سنقضي الليلة على شاطئ النهر الكبير، وبعدها نرى.

لم يطمئن لذلك الشيخ الأعمى، هناك شيء مريب بخصوصه، وليس سهلاً على مثله أن يثق بالغرباء، وهو الذي عاش غريباً لا يثق به أحد وكذلك يفعل مع الناس، ولكنه أراد أخذ قسط من الراحة والتمدد على الثرى الرطب، يجتاح الألم وركيه وظهره جراء امتطائه للجواد فترة طويلة، وذلك الأخير بحاجة أيضاً للراحة والتمرغ في التراب والحصى والاستحمام في مياه النهر. اختار بقعة التخيم بعناية ودقة، صخرة كبيرة ملساء على حافة النهر، وضع أغراضه في كنفها وفرش عباءته الصوف السوداء أرضاً، ساعد الكهل على الجلوس وراح هو ينتقي بضعة أحجار وعدة أعواد حطب. بزغ القمر آتياً على مهل من قبل المشرق، ألقى بضياؤه فوق صفحة النهر الجاري، وأثار ضفتيه وقمم الآجام والأشجار بنوره الفضي، نقيق الضفادع وصرابير الحقول يعمران الأجواء. ألقى خائل جسده على العشب والنردي يقلب عصا ثبت فيها ما تبقى من لحم أرنب مقدد كان قد اصطاده قبل أيام، النيران تطقطق ويزداد اشتعالها بفعل قطرات الدهن المسال عليها، لم يتحدث مع الأعمى الذي خلد إلى النوم في دفاء النار. ولكن الرائحة الشهية للحم المشوي الساخن أيقظته، أخذ يستنشقها بعمق مما جذب انتباه هارون إليه، ضحك وسأله:

- كم مضى عليك منذ أكلت لحم أرنب بري؟

- أشم رائحة سخرية في سؤالك.

- بل تشم رائحة اللحم المشوي على نار هادئة.

ضحك الأعمى بدوره قبل أن يرد على جليسه:

- أكلت من اللحوم ما لا يتخيله عقلك، ولكني لم أذق لحمًا منذ زمن.

قطع هارون بسكينه جزيلة ونهض إليه، منحه إياها بين يديه:

- حسنًا أيها الكهل، تذوق طعامي ولا تعقب إن كان سيئًا، فأنا رحال لا أجيد الطبخ وصنع الطعام.

مرر الرجل قطعة اللحم أمام أنفه ثم لعقها بلسانه، تقزز هارون وامتعض من فعله وعاد إلى مكانه وتركه يأكل، جلس هو الآخر يقطع بطرف خنجره قطعًا صغيرةً راح يلتقمها من دون أن ينظر نحو الشيخ، الذي ما إن فرغ من طعامه حتى تجشأ وسأله:

- هل لي بقطعة أخرى وقدر شراب؟

- هل تريد جارية حسناء أيضًا؟

ضح المكان بضحكات الرجل مما أفزع الضفادع وصراصير

الحقل فتوقفت عن غنائها الليلي، وحدها قهقهات الكهل
ترددت في المكان، لم يرق الأمر لهارون ولام نفسه على بقاءه
مع ذلك السمج المتبجح، ألقى بحجره قطعة أخرى من اللحم:
- خذ هذه ولا تعتذ طعمه، فالمدينة التي ستذهب إليها لا
يقدمون للمشردين والسائلين اللحم.

راح الشيخ يتناول طعامه بطريقة أثارت اشمزاز هارون
الذي نهض وتركه، ذهب إلى حافة النهر وأخذ يغسل يديه
في الماء الجاري، جاءه جواده ووقف إلى جواره ليشرب هو
الآخر، ربت على عنقه محدثًا إياه:

- يبدو أنك أيضًا مللت هذا الكهل، ما وجب علينا التوقف
والبقاء معه.

سهل خائل فابتسم صاحبه واستطرد:

- أعلم أنك توافقني الرأي، على كل حال هي الليلة وبعدها
نمضي لحال سبيلنا.

عادا إلى حيث يجلس رفيقهما فوجده ممسكًا بقنينة النبيذ
مناديًا إياه:

- يا صاح، أما زلت هنا أم أنك ستأخذ حصانك وترحل؟

غضب هارون وجذب القنينة من يد الرجل بغلظة، كانت

فارغة والرجل يتابع حديثه:

- وجدتھا بالقرب مني فتجرعت ما فيها، كان قليلاً.

ألقى هارون بالقنينة بعيداً بكل قوته، وحدثه باقتضاب:

- اصمت ولن نتركك وراءنا، سنحملك في الصباح معنا إلى

الصقارة ونفترق بعدها.

- لقد حسن ظني بك أيها الرجل، ومعدرة على نفاذ نبيذك.

لم يجبه هارون، فقط تمدد على ظهره بجوار النيران. أخذ يتأمل السماء ونجومها والبدر الرابض في زرقتها الداكنة، تحسس جراب نرده الصغير وأخرج منه نرددين أسودين، أخذ يقلبهما أمام بصره، إنهما متطابقان حتى في رسومهما، ستة أوجه لكل منهما وكل وجه عليه نقش ذهبي صغير، أسد، وميزان، وعقرب، وعذراء، وقوس، وشمس. من هذين النرددين حظي بلقبه، هما تميمة حظه وقال الخير عليه، الشيء الوحيد الذي ورثه عن والديه اللذين لا يعرفهما، وُضعا في جيب صغير بملابسه وهو رضيع، وضعوه على قارعة الطريق ورحلوا، وتلقفته نسوة القرية يرضعنه ويهتمن به رافة ورحمة، احتفظت إحداهن بالنردين معها ومنحته إياهما قبيل رحيلها وزوجها إلى البوغان، تركوه ولا لوم عليهم إن كان والداه قد فعلا هذا من قبل. حين وعى

الدنيا كان مجرد صبي عامل في خمارة واقعة على طريق المهد، لا أب له ولا أم، يغسل الأطباق والصحون مقابل طعامه ومبيته، يمنحه المسافرون ما تبقى من طعامهم، وكثيرًا ما كان يعنفه صاحب الحانة، يسبه ويضربه ويكيل له صنوف المهانة أمام الزبائن، عمل شاق لا يليق بطفل صغير، لم تستح منه العاهرات ولم يبالي أحد بوجوده، كان يندس بين طاولات لعب النرد والقمار، كان ابن عشر سنوات حين كشف خداع أحدهم على طاولة اللعب، الأمر الذي لم يرق للمخادع فصفعه، تعالت الضحكات ووجه الصبي احمر غضبًا وألمًا من أثر الصفقة، وكان رد فعله مباغتًا للجميع، حطم هارون الصغير زجاجة خمر فوق رأس ضاربه، اختلط الدم بالبيذ وتعالت الصيحات مقترنة بالسباب والضحكات، حاولوا الإمساك به ولكنه أفلت من بين أيدي السكارى كفأر يهرب من برائن قُطّ منزلي شره، شجار دار في الحانة كان هو سببه، وانتهى الأمر به هاربًا مطارّدًا، ربما كان هذا منذ زمن بعيد ولكن التفاصيل بقيت محفورة في عقله. دارت به الدنيا وخاض غمار حياة عجيبة، متنقلًا بين المدن والقرى، يلعب ويقامر والحظ معه، لقب بالنردي لحسن زهره وطاقته، وفي هذه الرحلة الشاقة في الحياة استطاع أن ينجو، كان ناجيًا حقيقيًا في عالم لا يأبه إلا بالقوة والنفوذ، لا يحسد أحدًا ولا يتمنى ما للناس، صار ما يحب أن يكون، مقاتل

شوارع وحانات لم يحتج يوماً إلى ونس وصحبة إلا ونس وصحبة حصانه خائل، يفضل كونه وحيداً، ذلك أيسر من أن يُخذل، صقلته الأيام وشدت عوده المواقف، والآن يجلس رفقة أعمى لا يعرف اسمه. قطع شروده صوت الرجل وكأنه سمع ما يدور في نفسه:

- ما اسمك يا صاحب الدابة؟ أليس من العجيب أننا قضينا ساعات مع بعضنا ولا يعرف أحدنا اسم الآخر؟ أنا أدعى نرغال.

اعتدل هارون جالساً مكرراً اسم الرجل باستغراب:

- نرغال، وماذا يعني هذا؟

- سيد النار، ولكن دعك من هذا، قل لي ما اسمك؟

تردد هارون، لا يحب الناس، فما باله بذلك الغريب ذي الاسم العجيب، ولكن ما الضير من قول اسمه لأعمى لا يعرف شكله؟ تمتم:

- يلقبونني بالنردى.

- محظوظ إذن، ولك نصيب من اسمك.

- وهل كان لك نصيب من اسمك يا سيد النار؟

- ربما كان هذا منذ زمن بعيد، وقد نلت نصيبي، أما أنت

فالنرد لقبك وهو دائم الثقلب، كلما راهنت فزت أو خسرت.

- وما أدراك أني مقامر؟

- أنا أتبع حدسي فقط.

- غريب أمرك واسمك أيها الرجل، ما الذي يدفعك حقًا

لخوض تلك الرحلة الشاقة إلى الصقارة، من أي البلاد أنت؟

- أخبرتك أن ديارى بعيدة عن تلك الجزيرة التي تحسبونها

هي الدنيا والعالم وحدها، ولكن دعني أسألك أنا، ما الذي

يدفعك للذهاب لمدينة لا تحبها ولا يعجبك أهلها؟

- قلت لك لي حاجة هناك.

- المال إذن هو ما يقودك إلى الصقارة.

- ربما، ولكن قل لي، ما قصتك يا سيد النار؟

ألقي هارون السؤال ساخرًا، ابتسم الرجل ورفع مقلتيه

البيضاوين إلى السماء، بدا مظهره مخيفًا والنيران المتراقصة

تضيء عنقه ووجهه وهو يقول:

- قصتي أعجب من أن يدركها عقلك، كنت ملكًا له من

القدرة والقوة ما ليس لأقراني، ربما تستعجب الأمر وتقول

إنني مجرد هرم سكير، ولكنها الحقيقة التي تسخر نفسك منها

الآن.

- لا، أكمل، إني مستمع جيد.

قبض الشيخ على عصاه بقوة وتبدلت نبرة صوته للأسى:

- جُرِّدت من قواي، واجتمع عليَّ إخوتي طمعًا في قدرتي وملكِي، وليمة كبيرة دُعيت إليها وانتهى المطاف بهم إلى تكبيلي، ومن ثمَّ سجنِي، وفي النهاية نفوني لينعموا هم بكل المجد والقوة. ألقى بي إلى تلك الأرض التي لم أغارها منذ وجدت نفسي فيها، حبيسًا وحيدًا لا أتمنى سوى الخروج من عين الشمس. كان الأمر شاقًّا بلا عون، حتى جاء اليوم الذي نفذت من محبسي إلى الخارج، لأعوام طويلة حاولت إقناع البعض بدعمي ولم يثق أحد بي، قواي لم تعد كما كانت، وقدراتي بالكاد أشعر بها، تنقلت من مقام إلى مقام ومن بلدة إلى بلدة بحثًا عن مقتنياتِي وما سلبوه مني.

قاطعه هارون الذي كان متأكدًا أن الخمر لعبت برأس الرجل الخرف، كان يضحك في سره وهو يسأله:

- هل زرت أزاك من قبل؟

- نعم، ولكني كنت قد التقيته قبلها بسنوات في عين الشمس.

- من هذا؟

- ذلك الذي زرتة ذات يوم غائم ممطر.

لم يبالي بتخاريف الرجل وسأله:

- منذ متى وأنت لا تبصر، متى فقدت بصرك؟

- أعيش في الظلام منذ زمن بعيد، لم أعد أحصي التاريخ والأيام فكلها متشابهاً، أسمع حكايات الناس وشكواهم وما تجيش به ألسنتهم، بل وما يوقرون في الصدور، أنست بقصصهم وآمالهم، وهذا ما مدني بالقوة للخروج إلى الدنيا مرة أخرى.

كان هارون على يقين بأن الكهل يهذي بفعل الخمر، ولكنه مسلٌّ، ظل يتحدث طوال الليل عن أساطير قديمة يحفظ منها النردى الكثير، ولكن للعجوز تفاصيل عجيبة وغريبة يسمعها منه لأول مرة، حديثه عن سقوط النجم في غابر الزمان، وعن جفاف البحر الأوسط أو ما يُسمى الآن «بحر الرمال» وعن حورياته، وحكاياته عن ملوك بني شمس الأوائل وكيف بدأت إمبراطوريتهم، كان لدى الأعمى الكثير من القصص حول بناء مدن جزيرة تلال الشمس، ولكن الأعجب حين ذكر لهارون أمر ذلك النبي من أزد، إينال بن أنو، ذلك المهرطق الذي قابله النردى منذ سنة في مرفأ أزد.

زنخ السمك في ذلك اليوم أزكم الأنفاس، الحر خانق وجيوش من ذباب تحلق فوق الطاومات والمظلات والشباك المنشورة، الباعة يهشون وينادون والعمال يحملون البضائع وصناديق الأسماك المملحة، سفن تتجهز وأخرى تفرغ، والزحام شديد في ساحة سقف النهر التي تتوسط ضفتي مجرى التاج، ذلك النهر الغاضب لولا السدان العتيقان للمدينة، يعملان على ضبط حركة التيار والفيضان، هنا تتوفر أسماك السلمون بكثرة في موسم هجرتها، وهي مصدر رزق معظم السكان. البلدة العامرة الصاخبة نهارًا تضج بحياة الليل واللهو ليلاً، يجتمع البحارة والمسافرون في الحانات وبيوت الهوى، الأغاني والموسيقى وغانيات مختلفة ألوانهن وأحجامهن، غجر يقرأون الطالع وسكارى يتمايلون مع القهقهات، صخب حول حلبات الرهان على الديوك والكلاب المتصارعة، وأقداح تفيض بالنبيذ والجمعة، وفي إحدى الزوايا من حانة قديمة مزدحمة كانت طاولة النرد، مقامرة هي العاشرة له هذه الليلة، خسر في أربع منها وفاز في خمس، كان بحاجة لفوز آخر ليتم انتصاره، أخذ ينفخ في قبضته ثلاثًا هامسًا للنردين القابض عليهما بأمر ما، ثم يلقيهما صائحًا بمرح:

- أسد وعذراء.

يدور النردان ويلفان حول بعضهما على الطاولة الخشبية،
تترقب أعين المراهنين، وينتظر النردى توقفهما وقد ضاقت
حدقتاه، توقفا... عذراء وأسد كما قال، أصاب مرة أخرى
وراح يضحك وسط صيحات المشجعين وتذمر الخاسرين،
أحاط بالدنانير بكلتا يديه تاركًا المهزومين يحملقون في
النرد بحسرة، شد رباط كيس نقوده ووضع بجراب خصره
وسألهم مبتسمًا:

- هل لديكم ما يكفي لدفع ثمن الشراب أم... أَدفع عنكم؟

- أنت محتال.

قالها أحدهم بصوت أجش وقد تجلى الغضب على قسَمات
وجهه المليء بالوشوم، وقام آخر ضاربًا المنضدة بكلتا يديه،
ولكن النردى لم يبدِ أي ردة فعل تجاههما، تراجع ليريح ظهره
في كرسيه باسترخاء ممسكًا قَدح النبيذ، تأملهم للحظات ثم
ارتشف لامباليًا بمن نهضوا عن مقاعدهم حوله، أنهى شرابه
ووضع القَدح على الطاولة محدثًا إياهم:

- مهلاً يا رفاق، لا داعي لكل هذا الغضب، هكذا هو اللعب،
فوز وخسارة، وها هو النرد ما زال أمامكم، وقد سمع
الحضور رهاني.

- لقد خدعتنا أيها اللقيط، هذا نرد مزيف.

نهض فجأة فانتفضت أجسادهم استعدادًا للقتال، ولكنه أخذ النردين وقلبهما في كفه:

- إنها أكثر قدمًا وأصالة من أي نرد على تلك الأرض، ثم إنني لعبت بنردكما وفزت من قبل، ولكني أتفهم ما تعانون منه، فمذاق الخسارة...

«موجع»، ربما كانت تلك الكلمة التي ابتلعها النردى ولم يكذب ينطق بها، لكمة قوية أوجعته وأخرسته ولكنها كانت إشارة لبدء العراك، لم يتوقف عند ألمه والمفاجأة كثيرًا، اعتاد مثل هذه الأمور، لذا وقبل أن يهجموا عليه جميعًا، كان هارون قد بدأ بالفعل رد اعتباره، الأمر يسيرٌ على من تربى في الشوارع وخاض عشرات المعارك في الأزقة والحانات الضيقة، على الرغم من الزحام والهرج كان نداءً قويًا لأربعة أشخاص، يتفاوتون في القوة والبنيان ولكن قبضة هارون كانت كالمطرقة تدك الأفكاك وتحطم الأنوف، يعرف أين يضرب ومتى يتفادى، التدافع والسقوط والتحطيم كل هذا الهرج أدى إلى معركة يقاتل فيها كل من في الحانة بعضهم بعضًا، تهشمت القوارير فوق الرؤوس، العاهرات يصرخن ويركضن وصاحب المكان يولول راكضًا إلى الخارج، وجوه ملطخة بالدماء والكدمات، والنردى ما زال هائجًا مستمتعًا بالعراك مبتسمًا حتى شعر بشيء يغرس في جانبه الأيسر، الألم كان

يفوق قدرته على الوقوف، حاول ألا يسقط واستدار ليجابه طاعنه، كان الضخم ذا الوشوم، وما كاد هارون يلتفت حتى نطحه الرجل ضاربًا جبهته برأسه، ترنح وسقط أرضًا بعدما سحب الضخم الخنجر بقسوة، أمسك هارون جرحه محاولًا وقف تدفق الدماء، أراد النهوض مرة أخرى ولكن قواه لم تسعفه، بالكاد جلس على ركبتيه والرجل يقترب منه مبتسمًا كاشفًا عن فم فقدت معظم أسنانه، منح هارون لكمة قوية جعلته يسقط تحت قدميه:

- ها أنت في موضعك الطبيعي أيها اللقيط المحتال.

رفع خنجره أمام وجهه، وكاد أن يقول شيئًا لولا سماعه صافرات الدرك وتعالى في المكان وقع أقدامهم، وكان آخر ما رآه هارون هو وجه رجل ذي عمامة زرقاء وشارب كث يقترب منه، ثم أظلمت الدنيا.

حين فتح عينيه كان ضوء النهار يغمر الغرفة النظيفة، وجد نفسه مدثرًا في فراش مريح، الألم يغزو جانبه ليذكره بما حدث في الليلة الماضية، رفع الغطاء عن جذعه العاري ليجد الضمادات تحيط بطنه، ألقى برأسه على الوسادة وراح يحمق في السقف بعد أن اطمأن أن أغراضه على كرسي قريب منه. كان محظوظًا هذه المرة أيضًا، لم يتوقع أن يكون لدى أحدهم سلاح داخل ذلك الحي، كان عليهم وضع

أسلحتهم في الخارج في صناديق الأمانات قبل الدخول، ولكن لكل قاعدة استثناء وهذا ما حدث، هؤلاء العصبة من المقامرين لم يتقبلوا خسارتهم، ولم يكن القتال معهم نزيهًا، على كل حال ما زال حيًا في مكان ما داخل أسوار أزد، أرخى جفنيه وغط في نوم عميق وحين فتحهما مرة أخرى رأى شخصين يقفان بالقرب من فراشه، تتأب وراح يحملق فيهما حتى ابتسم الأشيب ذو اللحية الحليقة والشعر الأهوج الناعم وحدثه:

- لقد قمت بخياطة جرحك وتضميده، لم تنزف كثيرًا فالطعنة كانت في تجويف هوائي، ستشعر ببعض الألم لأسابيع حتى يتم التئام جرحك، ويبدو أنه ليس أول جرح يصيبك.

تدخل الثاني ذو العمامة الزرقاء والشارب الكث:

- محظوظ أنت بقدومنا في الوقت المناسب، أنا قائم مقام أزد، جبران الأزادي، وهذا هو طبيب البلدة ذاك النويري. سأحتاج إلى سؤالك بضعة أسئلة إذا كنت قادرًا على الكلام، ولا أظن أن السكين الذي طعنت به نال من لسانك.

- في البدء عليّ شكركما لإنقاذني، ولا أجد كلمات تفي ما فعلتماه لي، ولكن عذرًا سيدي القائم مقام، ألم يكن من باب أولى سؤال الجاني؟

- الجميع قالوا إن السكين يعود إليك، وإنك احتلت عليهم
وأخذت نقودهم.

- الأمر هكذا إذن! من المسؤول عن دخول السلاح إلى حي
اللهو، أليس رجالك؟ يمكنك سؤال حارس المناوبة وستجد
أسلحتي وبقية أغراضي هناك.

جلب جبران كرسيًا ووضعته بالقرب من الفراش وجلس
محدثًا إياه:

- لا أتهمك بشيء أيها السيد، ما اسمك حتى يتيسر لنا
الحديث؟
- هارون.

- حسنًا سيد هارون، ما حدث في الليلة الماضية كاد أن
يودي بحياتك، ودوري هو حمايتك والذود عن الجميع هنا
إلى جانب إحلال الأمن في المدينة، ولهذا سأسديك نصيحة
اجعلها تميمة لتحفظ بها مقامك هنا، لا تفتعل المشاجرات
في بلدتي وكن ضيفًا خفيًا، اقض حاجتك هنا وامض لحال
سبيلك.

- هل تطردني؟

- لا، أنت هنا في حمايتي ما دمت صالحًا، ودعني أوضح لك

أن المدينة هادئة منذ فترة طويلة حتى أتيت أنت وحدث ما حدث، لسنوات لم يتشاجر السكارى ولاعبو القمار، ولكن يبدو أنك لم ترق لهم أو أنك كما يقولون.

- محتال، هذا حكم مسبق من رجل في مكانتك ووقارك.

تدخل الطبيب في حديثهما ضاحكًا:

- سيد هارون، لا تأخذ حديث المبجل جبران بهذا المحمل، كل ما في الأمر أن أزداد لم تشهد منذ فترة أي حوادث ولهذا ينصحك وينبهك فقط، فلا يعلم أحد ما تخفيه صدور الناس من غل لخسارة أو مهانة.

انصرفا عنه وتركاه يفكر فيما حدث وما هو آتٍ، جاء الطبيب بطعام شهى؛ مرق بالخضراوات وقطع الدجاج، وقدم أحد الجند ببقية أغراضه؛ حزام غمده وسيفه وخنجره بالإضافة لكيس النقود وجراب النرد. ثلاثة أيام قضاها في بيت الطبيب قبل أن يغادره مودعًا إياه، توجه إلى حظيرة الخيل حيث ترك خائل، لقاؤهما كان حميمًا بين عناق وصهيل عتاب، لم يكتمل اندمال جرحه، ولكنه قرر الرحيل عن تلك المدينة، سرج الجواد ودفع ما كان عليه من إيجار لصاحب الحظيرة، ومضى خارجًا إلى شوارع المدينة، وهناك بين الزحام رأى القائمقام، عرفه وإن كان متخفيًا بين الناس بغطاء رأس. شيء ما جعله يتبعه، ترجل عن خائل ودفع به

إلى زقاق جانبي، همس في أذن الحصان بالبقاء في مكانه،
وذهب خلف صاحب غطاء الرأس الرمادي، ووسط السوق
ونداء الباعة كانت هناك جلبة، واندفع جبران إلى وسط
الناس ليحتوي شخصًا من بينهم، كانوا يلقمونه الحجارة
والخضراوات الفاسدة، ولكن القائمقام كشف عن وجهه
فتوقف العامة، صدموا حين رأوه يأخذ ذلك المتصوف
المسكين من بين أيديهم، وحين سأل هارون الناس عما
يحدث، أجابوه بأن هذا الرجل مهرطق يدعي النبوة واسمه
إينال، وقد هاجمه مشرد يُدعى سياس ومن بعدها نال منه
الناس.

- كان هذا لقائي الوحيد مع ذلك الشخص، وسألت نفسي
حينها ما الذي يجعل رجلاً في مثل سنه أن يصبر على الأذى
بوجه باسم؟ إن كان نبيًا حقًا فلماذا لم يدافع عن نفسه
بمعجزة تجعلهم يؤمنون بما يقول؟

بصوته ذي النبرة الغريبة سأله الكهل الضرير:

- هارون، لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

- لديك عروس لي؟

- بل لديّ رغبة في معرفة قليل عنك، شاب قوي مثلك لماذا

لا يحظى بعشيقة أو زوجة وبيت وأطفال ككل الناس؟!

- لست مثل بقية الناس، أنا هارون النردي، الزهر معي، ولي في كل مدينة وبلدة عشيقة وحببية، أما من رغبت بها فصارت الآن ملك رجل آخر. أعيش كل يوم بهدف المتعة، أنا مقامر يعيش كل يوم بيومه، لا آبه بما مضى ولا أحاول استشراف الحاضر، وأنتظر الغد وكأن كل ليلة هي الأخيرة لي على هذه الأرض.

- أنت محطم يا هارون.

- بل حي، أقص على سمع أعمى حكاية لا فائدة منها.

تطلع إلى النجوم المتوهجة في صمت، تنهد وأطلق زفرة وضحك لذكرى راودته، سأله نرغال:

- ما الذي يضحكك؟

- الحياة، عجيب أمرها حقًا، المؤمنون من بني الأزرق يقولون إن أقدارنا نقشت بيد الرب على ألواح من الجلمود الأزرق، وكل ما نفعله هو أن نعيش ما كُتب. وبنو شمس لطالما كانت ترانيمهم ومزاميرهم تقول إن اختيارات البشر هي التي تحدد المصير، استدلوا بالنجوم وقدسوها ليعرفوا مستقبلهم وما يطمحون إليه، نهايتنا ستكون إلى رماد تذروه الريح أو لحدٍ ذي شاهد حجري، أيًا كان ما بعد ذلك فهو ما

بعد حياتنا العجيبة. وضعت لنفسي قانونًا يحكم حياتي؛
عش الحياة كما تريد الحياة وليس كما تريد أنت. يا رجل،
يظن الناس أنهم محور الكون، بينما نحن أقل من ذرة حصى،
العالم شاسع للغاية.

ضحك الكهل ونهض متكئًا على عصاه الغليظة وقال
ساخرًا:

- تريد من الحياة المتعة فقط، بينما هناك ما هو أكثر.

تطلع هارون إلى رفيقه غريب الأطوار، كان يقف على
الناحية الأخرى من حفرة النار، تمايلت ظلال اللهب على ثوبه
الخشن، هيئته جعلت رجفة تسري في جسد هارون، انتصب
شعر يده باعثًا قشعريرة غريبة والأعمى يقول متابعًا بلهجة
قوية:

- أنت بحاجة لإله يا هارون، كحال أهل بلاد وأقطار هذه
الأرض، لآلاف السنين عبد الناس المعبود الخاطيء، ثلة تعبد
الكواكب والنجوم، وآخرون يحكمون ببقايا شريعة بائدة
بالكاد يعرفون من كتبها، وقوم يعبدون الأوثان التي لا تضر
ولا تنفع، وهناك في الغابات البعيدة قبائل تقدر الحوريات.
إن هذه الأرض بحاجة إلى...

- النوم، نحن بحاجة إلى النوم، أمامنا رحلة طويلة في

الصباح إلى الصقارة، واحك ما شئت خلال الطريق.

مقاطعة هارون لم تجد، لم يتوقف الرجل عن الحديث متابعًا هرطقته، الممل هو المسيطر على عقل النردى، ليته ما توقف ليلتقط ذلك الثرثار، الخمر جعلته يهذي بأمر غريبة وعجبية، وهيئته كانت كافية لبعث الرعب في أوصاله والكهل يقول:

- أنا من أهلكت بني شمس، وأرسلت عليهم ربح السموم، لم يتضرعوا إليّ لأعيد إليهم الحياة من جديد وأمحو عنهم الوباء والمرض.

- من أنت؟

- سبق وذكرت اسمي يا هارون، نرغال سجين النجم، سيد النار وواهب الخلود، لم يبق سوى القليل حتى أستعيد قوتي وأحصل على جسد المجتبي، وبعدها...

مع آخر كلماته انفجر بوميض محيلاً الخواء إلى بياض، صرخ النردى والانفجار يطيح به، طار في الفراغ طويلاً حتى سقط على وجهه متألماً، لوّث البياض كياناً من سواد يتشقق بنار وجمر، اقترب منه، لم يقوَ النردى على الحركة وذلك الشيء الغريب يلمس أصابعه، صرخ هارون من الألم، فتح عينيه ليجد يده قريبة من حجر حفرة النار، لسعته فاستيقظ

من نومه فزعًا، بحث في المكان بعينيه عن ذلك الغريب
الأعمى.

لم يكن هناك أحد.

فقط حصانه، ولا أثر لدرغال.

كأن لم يكن.